كتاب المبتدئات

لمؤلف الشذرات الذهبية

مقدمة

نتضرع إلى الله يتواضع أن يبارك هذا الكتاب الصغير ويسمح بأن يصير رفيق المبتدئات ويساعدهنَّ على استيضاح دعوتهنَّ وعلى الاستعداد لنعمة النذور المقدسة الجزيلة الخطورة.

نحن نعلم أن الله ليس بحاجة إلى عملنا ليكمِّل النفوس. لذلك لم يخطر ببالنا أن نقدّم شغلنا هذا لله، بل بالحري أن نطلب إليه ليتنازل ويقبله ويستخدمه لأغراض مجده.

ونعلم أيضاً أن الأديرة الابتداء في الرهبانيات قواعد عملية حكيمة استُخدمت حتى الآن لتربية نفوس رهبانية قدّيسة. فهذه القواعد، المفعمة من روح مؤسس الجماعة الرهبانية، سوف تبقى أبداً دليلاً وسنداً للنفوس اللاجئة إلى هذه الأديرة كإلى حمى أمين في بيوت الله.

ليس من غرضنا أن يقوم شغلنا مقام هذه القواعد الفائضة بالعلم والفطنة والتقوى، بل أن نُعِدَّ المبتدئة لفهمها وتقديرها ومحبتها.

إن الفتاة الآتية من العالم، وإن عاشت فيه تقيةً □الحة، لا تتشرب فجأة روح الجماعة التي تنضم إليها ولا تتثقف سريعاً على الحياة الفائقة الطبيعة التي إنما هي حياة كل نفسٍ تقف ذاتها لله. فإن روح كل دير رهباني جو خاص يتغلغل تدريجياً في النفس والأخلاق والطباع، فيوليها، على نحوٍ ما، طبيعة جديدة. وهذه الروح تفعل فعلاً مضموناً بقدر ما تجد النفس مستعدة لقبولها.

فكتابنا هذا ليس له غرض سوى إعداد النفوس لقبول تأثيرات هذا الجو الرهباني الخاص. فيعلّمها ماذا يجب أن تحذف، وأن تزيد، وما هي الرياضات الواجبة ممارستها، والأفكار الواجب أن تتغذّى بها على مهلٍ.

إن ما يُسديه من النصائح بسيط في متناول الجميع، لا يقول إلاّ ما بوسع أ□لغر المبتدئات أن تدركه وتجرّبه. وإذا أتاح لنا الله، عُدنا فيما بعد إلى كتاب آخر نتوجه به إلى الناذرات.

نرجو من المبتدئات أن يصلّين لأجلنا. ولتتكرَّم معلمات الابتداء، إذا وجدنّ في كتابنا هذا بعض العون في ما يُلقينهُ من التعاليم على المبتدئات، ويطلبنَّ إلى الله أن نقدَّس نحن نفسنا بعملنا على تقديس الآخرين.

تمهيد

إلى المبتدئات

أيتها المبتدئة التقية، الأمينة لتعاليم الذين يرشدونك، تسألين في صمت التأمل وبحضرة السيد المسيح في سرّ القربان المقدَّس: لمَ أتيت إلى هنا؟

أصغي إلى صوت ملاكك الحارس الكثير الحلاوة والعذوبة يجيب إلى رغبة قلبك:

1

– "جئتِ إلى الدير لتصيري راهبة، أي لترتبطي بالله تعالى ارتباطاً أبدياً. وكل عمل من أعمال ابتدائك يَحْبُكُ هذا الوثاق المثلث السري الذي سيربطك عمَّا قليل بالسيد المسيح إلى الأبد".

فلدى هذا الجواب الجزيل البساطة والحقيقة، يُرسل قلبك المتأثّر هذا الصراخ:

"آه! مَنْ لي بذلك اليوم الذي يربطني بيسوع المسيح!

كم نفسي متحرّقة إلى القول: لن أستطيع بعد إذن ولن أستطيع إلى الأبد أن أنفصل عن يسوع المسيحّ! فالتضحيات التي عملتها لأتعلق به لستُ آسفة عليها، ومهما كان ذكرها مريراً، فأنا مستعدة أن أجدّدها أيضاً. عندما أصير خاصتك، يا إلهي، أليس حقاً أنك تصير أبي وأمي وأخوتي وأخواتي؟

أليس حقاً أننا يوماً ما سنكون مجتمعين كلنا في السماء أنا وأسرتي، لنحبّ بعضنا بعضاً إلى الأبد؟

ولربَّما سأسمع من فم الذين أحبهم والذين تركتهم لأجل السيد المسيح هذه الكلمة العذبة:

يا ابنتي، إننا بفضلك وبفضل تضحيتك وصلواتك، قد استحقنا الخلاص.

إيه! نعم، نعم، أريد أن أكون راهبة!"

2

ويُردف الصوت:

– "أنتِ هنا لتخلصي نفسك بأكثر سهولةً وتأكيداً، في حالةٍ كل شيء فيها يتكلم عن الله، وكل شيء يقود إلى الله، وكل شيء يُعمل بإسم الله.

أُنظري؛ ها قد تخلَّصتِ من همّ قيادِكِ.

لو بقيت في العالم لكنتِ خضعتِ لجاذبية المصلحة، أو المزاج، أو الوضع الاجتماعي.

وما كنتِ لتسمعي بوضوح صوت الله تعالى يطلب منك تضحية، أو يحرّضُكِ على كفرٍ بالنفس، أو يُعيّن لكِ واجباً.

متى صرتِ راهبة، فرئيستكِ تقول لكِ: افعلي هذا، وستكونين مؤمنة بأن الله تعالى يريد أن تفعليه.

وفيما بعد تُنقَّذين من تقلّبكِ الطبيعي.

إن الرُبُط التي بها تتحدين بيسوع المسيح ستقيّد خفَّتكِ، وحينئذٍ لا يعود في إمكانك أن تفعلي إلاّ ما يؤول في الواقع إلى خلاص نفسك.

ستأتي التجربة تدفعك إلى فعل يضاد شريعة الله، فتجيبينها: لم يبقَ لي سلطان على نفسي!

وستأتي الطبيعة تحرّضك على التمرد وخلع نير الخضوع، فتقولين: لم يعُد في وسعي! وشبه مرغمةٍ تتبعين إلى السماء يسوع المسيح الذي به ارتبطتِ".

3

"وقد أتيتِ إلى هنا أيضاً لتُستخدَمي أداةً لمجد الله ورحمته.

إن الله، ولا شك، لا يحتاج إلى إذن الخلائق ليصل، بواسطتها، إلى غاياته؛ لكنه إذا أراد أن يستخدم، مباشرةً، خليقة معيَّنة، يسألها هل تريد ذلك؛ وهذه الخليقة الحقيرة تستطيع أن تقول لخالقها: لا أريد أن أقيد حريتي برغبتك.

أما أنتِ، فما خشيتِ أن تحطمي قلبكِ لتلبي هذه الدعوة. لقد قلتِ: نعم، وها أنتِ في هذه الساعة كأنَّكِ في مدرسة الله تعالى.

إن الإبتداء لمدرسة في الحقيقة، مدرسة يهيّئ الله فيها النفوس التي بذلت له ذاتها:

فالبعض لتَكسب له تفوساً أخرى بواسطة التبشير، وبعض آخر لتمجده بصلواتها؛ وبعض آخر لتوفي بعذاباتها الطوعية؛ وغيرها لتعلّم اسمه للأولاد الصغار؛ وأخرى لتعتني بجسد المرضى، وتمنع التجديف الذي يدفعهم إليه العذاب، وتقودُهم بتؤدة إلى السماء.

4

"لهذا أتيتِ إلى تختلين، تحت قيادة معلمات خبيرات، بين جدران دير الابتداء هذا.

إقبلي، من أيديهنَّ، هذا الكتاب الصغير الذي يكمِّل تعاليمهنَّ. إقرأيه بإنتباه، فهو يدلّك على الوسائل الناجعة لتستفيدي في مدرسة الله هذه، وتستعدّي لتكوني أهلاً لما يريده منكِ.

كوني بسيطة لتفهمي ما تقرأين.

وكوني متواضعة لتقبليه.

وكوني منقادة لتحبيه.

وأخيراَ، كوني سخية لتمارسي ما سوف يُعطى لكِ من الارشادات".

أما المواد التي ستُبحث فيه فهذه عناوينها:

1. أهمية الابتداء
2. روح الابتداء
3. النقائص التي يجب إصلاحها في الابتداء
4. الروح الواجب إقصاؤه عن الابتداء
5. الفضائل الواجب اكتسابها وممارستها في الابتداء
6. حِكَم الابتداء
7. شغل الابتداء
8. مِحَن الابتداء
9. عبادات الابتداء
10. أركان الابتداء
11. التجارب التي يوسوس بها الشيطان مدة الابتداء
12. الأيام الأخيرة من الابتداء

الفصل الأول

أهمية الابتداء

الابتداء هو الوقت الذي فيه يختلي الإنسان إذا اعتقد أنه مدعو إلى الحياة الرهبانية، ليمتحن في الجمعية التي اختارها قواه، وطباعه، ومؤهّلاته، ليرى هل توافقه تلك الجمعية؛ وفي الوقت نفسه تدرسه الجمعية وتختبره لترى هل يوافقها.

يكفيكِ أن تقرأي بإنتباه هذا التحديد للإبتداء لكي تفهمي كل أهميته.

1

في وقت الابتداء ندرس دعوتنا بهدوء أعظم ونور أوفر؛ فنبتُّ في شأنها بضمانة أكثر.

فالنفوس في العالم، حتى أكثرها استقامة، تكوّن لأنفسها في بعض الأحيان أفكاراً غير صحيحة، أو على الأقل غير كاملة، في الحياة الرهبانية، وأكثرها تشعر بالميل إلى اعتناقها بدافع المخيلة لا بدافع النعمة.

هذه النفوس تعرف اجمالاً أن الحياة الرهبانية كفر بالنفس؛ ولكنها لم تلمّ بتفاصيل هذا الكفر بالنفس.

لقد رأت الجهة المتألقة من التضحية – والواقع أنه لا يخلو من بهجة وجمال ذلك الوداع للعالم، ولكل ما يلذّ، ويفتن ويجذب في عمر تظهر فيه الحياة ضاحكة زاهية، – ولكن هذه النفوس لم تحاول أن تعلم ماذا يكون بعد ذلك، فمضت تغبط النفس التي رأت منها هذا السخاء.

تعرف هذه النفوس أنه لا بد من تمزيق القلب بترك الأسرة — ولا بدَّ من التخلي عن عوائد كانت تظهر ممتزجة بالحياة — ولا بدّ من توديع حياة رغيدة قد تكون منسوجة من ألف تفاهة، لكنها ألف تفاهة تجعل الإنسان يرى الحياة البيتية على غاية الحلاوة والعذوبة.

بيد أن هذه النفوس قد قرأت عن سعادة الحياة الرهبانية، وعن جمال العيشة الاجتماعية في الرهبانيات، وعن عذوبة نير السيد المسيح، وعن السلام الناتج من الابتعاد عن العالم، وعن المكافآت الأكيدة التي وُعدت بها النفوس

التي تترك كل شيء لوجه الله، وقرأت صفحات مؤثرة، مقدسة، مقنعة للغاية فاستنتجت من ذلك كله: متى صرتُ هناك سأكون سعيدة.

إي نعم ستكونين سعيدة في الحياة الرهبانية؛ نعم، إن قلبكِ ونفسكِ يجدان فيها سلاماً وفرحاً يفوقان الوصف، ولكن بشرط أن تكوني مدعوّة حقاً إلى الحياة الرهبانية وتكوني أمينة في مجاراة هذه الدعوة.

فالابتداء أُنشئ لتستطعي أن تحكمي، لا بدافع الانفعالات التي أثارتها فيكِ رؤية لبس الثوب المقدس، أو قراءة كتب ألَّفتها نفس حارة، بل أن تحكمي وأنتِ في تلك السكينة الناشئة عن العقل ينيره الإيمان، هل الله هو الذي يدعوكِ حقاً إلى هذه الحياة.

هذان وإنكِ لن تستقلي في هذا الحكم؛ فإن رؤساءكِ الذين يتبعونك عن كثب، ويرونكِ في العمل، ولهم مثلك مصلحة كبرى تقضي بأن لا يقبلوا في جمعيتهم من تكون دعوتها متقلقلة أو موضوعاً للريب، هم أنفسهم يحكمون في شأنكِ على ضوء الحكمة التي ينالونها عن طريق النعمة والخبرة.

وإذا رأوا، في آخر الابتداء، أن صوتهم يتفق مع صوت ضميرك، ليقول لكِ: تقدمي إلى النذور، فعندئذ يمكنكِ أن تنذري بدون خوف.

2

في أثناء الابتداء، تختبر المبتدئات قواهنَّ، وطبعهنَّ ومؤهلاتهنَّ.

الدعوة الرهبانية لا تقوم فقط على أن تمارس الراهبة بأمانة ذلك العهد الذي قطعته على نفسها في المعمودية، وبه يكون المسيحي مسيحياً حقيقياً، عندما نُطق بالنيابة عنها هذه الكلمات: إني أكفر بالشيطان، وبأعماله، وبأباطيله، وأتعلَّق بيسوع المسيح إلى الأبد، بل تقوم أيضاً بأن ترتبط الراهبة بالمسيح يسوع ارتباطاً وثيقاً وتتبعه في كل مكان.

تتبعيته لا ريب إلى السماء حيث العهود المقدسة التي تربطِ به تُدخلك حتماً، إذا لم تنقضيها؛ ولكن لا بدّ من قبلُ أن تسيري معه طول طريق الجلجلة التي صبغها بدمه، وأن تقبلي بأن تُصلبي مثله، إذا لزم الأمر.

أما هو حقيقي أن هذه الفكرة تبعث الذعر في النفس بسبب ما نحن عليه من روح الاستقلال والميل إلى الملذّات الحسيَّة؟

لذلك أي كاهن لا يشعر بشيء من القلق، عندما تأتي إليه فتاة وتقول: أريد أن أصير راهبة، ولا يقول في نفسه: تُرى هل يكون لها القدرُ الكافي من الشجاعة؟

في نظر الكثيرات عني الترهب، ولا شك، كسب السماء، ولكن هو أيضاً، وغالباً جداً، الخروج من طريق الارتباك والهموم لإنتحال عيشة قانونية رتيبة تلطفها محبة الله تعالى وعطف أُسرة كاملة من الأخوات.

تجدين ذلك في الحياة الرهبانية، وتجدين أكثر من هذا أيضاً ... ولكن ليس هذا كل ما تجدين.

أتعلمين ماذا يضع يسوع في "سلة الخطبة" للتي يختارها عروساً له؟ – يضع صليبه – وإكليله الشائك، – ومساميره.

أتعلمين ماذا يهمس في قلب التي تعاهده بالأمانة؟ – إذا كنتِ تحبينني، فخذي صليبك واتبعيني.

أتعلمين ما هي الصورة التي يقدمها لها لكي لا تنسى عروسها لدى غيابه عنها؟ – إنها صورة المصلوب.

فحَمْلُ هذا الصليب إذن، وحمل هذا الاكليل من الشوك، والسير مدة حياة كاملة على طريق الجلجلة، تُعوَّدين في مدة ابتدائك؛ وعلى الكفر بأميالكِ وعوائدكِ تدرَّبين، لتتخذي لكِ أميال يسوع وعوائده.

إذ لا يريد المسؤولون عنكِ، أن تجدي الحياة قاسية بإفراط من بعد أن تتقيدي بإتباع يسوع المسيح، وأن تستطيعي القول: آه! لو كنت أعرف ذلك!

ولكن لا تتوهمي أنه ليس في الابتداء سوى أيام شاقة. لا، لا، يا أختي؛ فإن هذه الخلوات المباركة التي دُعيت بحقٍ "الفردوس على الأرض"، لا تخلو من التعزيات والأفراح، والسلام؛ لأنها فيها، كما في السماء، تظهر بطريقة محسوسة لا توصف جودة من قال: تعالوا إليَّ إن نيري ليّن وحملي خفيف.

إن الأميرة لويز دي فرانس مع أنها كانت قد تمتعت بكل ما يمكن أن تحلم به المخيلة على هذه الأرض، كتبت من الكرمل ما يلي: إن السعادة لا تفارق بيوت الله، حيث السنة كلها عيد مفعم بالبهجة، وحيث كل شيء يضحك حتى الجدران التي تفصل عن العالم.

وكيف لا يكون في بيوت الله سعادة وفرح وتعزية؟ ففيها الحياة بصحبة الله، والطاعة لله، والراحة بقرب الله، والعمل المفيد لله، وإفناء الذات شيئاً فشيئاً لأجل الله؛ وفيها خصوصاً الشعور المحسوس بمحبة الله.

وهل نعجب من بعد إذا سمعنا راهبة ترابستية تهتف قائلة: "ولو لزمني أن أمشي على الجمر المتَّقد لأصير عروسة ليسوع المسيح، فلا أستطيع التردّد لحظة".

3

في الابتداء، ترى الفتاة هل الجمعية التي استمالتها هي ملائمة لها؛ وترى الجمعية أيضاً هل المبتدئة تناسبها.

إن الله قد احترم حريتكِ إذ لم يرد منكِ عهداً صادراً عن تسرّع وعدم تبصُّر. والكنيسة، بإسمه تعالى، وفّرت عدد الجمعيات الرهبانية، لتترك لكِ حرية الاختيار، وقد طُبعت كل جمعية بطابع خاص، وأرادت من الجمعية التي وقع عليها اختيارك لتقضي فيها مدة التجربة، أن تظهر لكِ بروحها الذي يقودها، والفضائل التي تطلبها، والممارسات التي تفرضها، والشغل الذي تتطلبه... وبعد أن تري كل شيء وتعملي كل شيء، تقول لكِ: أنتِ حرة، فلكِ أن تبقي معنا، أو تقرعي باب رهبانية أخرى لتختبري فيها نفسك من جديد، أو ترجعي إلى العالم.

لكن هذه الحرية التي تُمَنَحينَها، يجب أن تتمتع بمثلها الجمعية لتُبتّ في قبولك أو رفضك. فصحتك النحيفة، ومزاجك، ونقائصك الطبيعية التي، وإن أَمكنَ أن لا تحول دون ذهابك إلى السماء، تقلق النظام العام، ومؤهلاتك المخالفة لما تقتضيه الرهبانية، قد تكون من الأسباب الكافية لعدم الاحتفاظ بكِ.

فإذا انفصلتِ عنها، فليس لأحدٍ من الجانبين أن يقلق ويضطرب: فالعدل ما أُسيء إليه في شيء؛ والمحبة التي كان في إمكانها أن تصير صميمة تبقى كما كانت من قبل؛ ويستمر التعاون بتبادل الصلوات للذهاب إلى السماء، ولكن لا في الطريق الواحدة، بل في طريقين.

4

في الابتداء تدّخر النفس مؤونة وافرة لخيرها الخاص ولخير الآخرين.

ذلك لأنها تُعطى كل شيء بوفرة: أمثلة مستديمة توفّرها لها نفوسٌ تتنافس في السعي وراء الكمال؛

وإصلاحاً لنقائصها يتمّ بمثابرة، وجدّ، ولطف، وخبرة؛ ودرساً لواجباتها يُلقى عليها بجلاء واستمرار طويل؛ وتحريضات متواترة غايتها كلها إن تعضدها وتدفعها إلى عمل الخير، وتشجعها؛

وسهراً طويلاً لا يترك هنيهة تذهب سدىً، يلاحظ كل شيء، ويدرك كل شيء، ويسعى إلى معرفة كل شي ولكن غايته واحدة، أن يقود إلى الكمال والقداسة؛ وتفانياً بلا حساب لحل الصعوبات، واستماع هموم النفس، والارشاد في الشك... يتكرَّر كل يوم بدون ملل ولا كلل.

وإذا أُعطي في الابتداء كثير فلا يُطلب إلاّ القليل.

لا يُطلب من المبتدئة في بداية الأمر سوى شيئين: ليونة الأخلاق فتنقاد بسهولة، والإرادة الحازمة فلا تيأس.

وبعد الابتداء الجيد، كم تكون النتائج جميلة بل غير منتظرة، كأنها عجيبة؟

فالابتداء هو الاتون الذي تخرج منه النفس مطهَّرة من كل العيوب الغليظة التي كانت تشوّه جمالها، وتظهر بهيئة جديدة: كانت متمسكة بإرادتها، فأصبحت ليّنة؛ كانت محبة لذاتها، فغدت خدومة مضحية؛ كانت سريعة التأثر، شهوانية، فأصبحت قوية، شجاعة، متقشِّفة.

الابتداء هو القالب الذي تخرج منه النفس مصوغة لحياة جديدة، حياة يسوع المسيح.

الابتداء هو مستودع الأسلحة حيث تقتبس النفس أُصول المعارف التي تتسلّح بها لمباشرة عمل الله؛ وحيث خصوصاً صارت قادرة على قبول وحفظ النعم الضرورية للمهمَّة التي سيُعهد بها إليها.

"الابتداء هو العمل المجدّد للروح الذي يجعل النعمة الإلهية تسود قدر الامكان، سيادة كاملة على قوى النفس، وطاقاتها ونزعاتها".

"إنه نوع من الخلق، وهو انقلاب حاسم لا بد أن يحرّر النفس من القيود الجمَّة التي كانت تعرقلها بشتى أنواع المصالح الذاتية، والمآرب، والتعلقات العاطفية، والأهواء الطبيعية".

"هو الموقد الذي فيه يلين الحديد فيكسب كياناً جديداً، هو المبرد الذي يصقل، وينزع الصدأ، ويهيئ الآلة، ويضعها مفيدة في يد العامل".

"حينئذٍ يرتسم في الإنسان إتّجاه يغنيه عن كل الارشادات البشرية، وذلك بإبتغائه مجد الله وخلاص الجميع الأبدي، لا غير". (الأب دي رافينيان)

فالقديس اغناطيوس مقتنع شديد الاقتناع بأنه يحدث في النفس، مدة الابتداء، إنقلاب عجيب جداً حتى أن المبتدئات يخرجن منه بروح الحرارة، والاماتة، وبروح المحبة للاختلاء والتأمل في الأشياء الروحية؛ حتى لَيَظُنّ نفسه مضطراً إلى تنبيه اللواتي ينصرفن من بعد إلى متابعة دروسهنّ، أن يلطّفنَّ من حرارتهنَّ، ويمارسن التقشف بوجه أقل.

طوبى للمبتدئات اللواتي يحتجن إلى مثل هذه التنبيهات!

5

في الابتداء تتثقَّف النفس بوجه يمكن معه القول بأن الحياة الرهبانية كلها تتعلّق بالحرارة أو الفتور اللذين يرافقان المبتدئة مدة ابتدائها.

ولنا الدليل على هذا القول من خبرة جميع الرهبان ومن تعليم معلّمي الحياة الروحية، فكلُّهم مجمعون على تأكيده.

فيقول أحد المؤلفين الأتقياء بحسرة: إنه ليس بالنادر أن نرى مبتدئاً حاراً يهبط من حرارته الأولى، أما المبتدئون الفاترون فلا أدري هل نجد منهم واحداً من مئة يصير حاراً بعد نذوره، ويعيش، من بعدُ، عيشة الراهب المثالي.

الابتداء الشيء مصيبة كبيرة لا يمكن تعويضها إلاّ بصعوبة.

اسمعي هذه الكلمة من رودريكس يخاطب مبتدئة: " أنتِ الآن في الابتداء، ولكِ فيه وقت كثير لتجتهدي في تقدمك الروحي، ولكِ وسائل كثيرة تساعدكِ على هذا التقدم، لأن رؤسائكِ لا يفكرون إلاّ في ذلك ولا همَّ يشغلهم أكثر منه".

"ثم لكِ تحت نظركِ قدوة صالحة في المبتدئات الأُخريات اللواتي لا يهتمّنَّ إلاّ بتقديس أنفسهنَّ، والمثل الصالح له عادة تأثير كبير حتى ليصعب على الإنسان العائش دائماً ما بين أشخاص مكبّين على ممارسة الفضيلة، متقدمين فيها أشواطاً عظيمة، أن لا تدفعه نفسه إلى الخروج من جبانته مهما كان جباناً".

"ولكِ فوق ذلك قلب متحرر من جميع أفكار العالم وميّال إلى الفضيلة، على ما يظهر، وليس لكِ فرصة تميل بكِ عن الفضيلة بل لكِ ألف فرصة تحملك عليها.

"فإذا كنتِ الآن، ولستِ هنا إلا لتصيري فاضلة ولا عملَ لكِ إلا في اكتساب الفضائل، لا تتقدمين البتة ولا تكتنزين رأس مال روحياً للمستقبل، فماذا يكون منكِ عندما يمتلئ قلبكِ بألف أمر تتقاسمه؟".

"وإذا كنتِ الآن، ولكِ الفُرص والتسهيلات والمساعدات وافرة بكثرة، لا تُحسنين تأملك ولا فحص الضمير، وإذا كنتِ الآن لا تقومين جيداً وفي دقة وتقوى بتماريناكِ الروحية، فماذا يكون منكِ عندما تضطلعين بشؤون الوظائف ومهام الخدم الخارجية!".

فإذا كنتِ لا تستفدين بالرغم من كل المحاضرات والتحريضات والأمثال الصالحة والحوافز التي يوفرها لكِ الابتداء، فماذا يكون من أمركِ عندما تصبحين تقريباً منقردة لنفسكِ وتنهال عليكِ الموانع والعقبات من كل نوع؟.

فاحرصي إذن جيداً على استغلال هذا الوقت الثمين من الابتداء، وفكري أنكِ لن تجدي في الأرجح وقتاً آخر يساعدك مثله على العمل في سبيل تقدمك في الفضيلة وعلى جمع الكنوز الروحية. فلا تضيعي منه يوماً، بل لا تضيعي منه ساعة.

الفصل الثاني

في روح الابتداء

إن ما يسمى روح الابتداء هو بمثابة الجو الذي تتنفس فيه الروح

المبتدئات لا يشعرن بهذا الجو الخاص، الذي يشمل ويغذي نفوسهنَّ ويحوّلهنَّ شيئاً فشيئاً؛ لكن شخصاً غريباً يقضي في الدير يوماً واحداً فقط يحسّ بارتياح نفساني يدهشه إذ يرى ذاته في محيط يسحر قلبه ويجعله يقول: ما أهنأ التنفس ههنا!

نعم، إن التنفس هنيء في الابتداء، والفتاة التي تحمل إلى هذا البيت المبارك قلباً نقياً، ونفساً مخلصة، وإرادة حازمة لتتكرَّس لله، تشعر شيئاً فشيئاً يتغيُّر يجري في كل كيانها.

إنها تُعطى شبه طبيعة جديدة: فهيئتها، وأفكارها، وكلامها، وحركاتها، وآراؤها، ومحيَّاها نفسه، كلّها تتَّسم سمة سماوية رائعة.

فالابتداء في الحياة الرهبانية كالطفولة في الحياة العيليّة. تجد الفتاة في الابتداء ما يجده الولد في العيلة:

قليلاً من الهمّ وكثيراً من الفرح؛ قليلاً من العمل وكثيراً من المكافآت؛ قليلاً من التجرد وكثيراً من المودَّة.

آه! لو يستطيع الإنسان أن يبقى طفلاً ومبتدئاً عهد طويلاً طويلاً!

فروح الابتداء يدعى إجمالاً روح الله، لأن الله يسيطر عليه كسيِّد ويعترف له الكل بهذه السيادة؛ وكل شيء في الابتداء بتأييده، وبإرادته، وبأمره.

وعمل هذا الروح يجري في داخل النفس خصوصاً، وفي الداخل يحدث الإنقلاب الذي تنتظره الكنيسة من النفوس الفتيَّة التي تُخضعها لإمتحان الابتداء.

قال كتاب الاقتداء بالمسيح: "إذا حصرنا كل تقدم في الحياة المسيحية والرهبانية، في ممارسة الأمور الخارجية ممارسة دقيقة، فعبادتنا لا تدوم طويلاً. فالراهب الصالح يجب أن يكون أكثر قداسة وأكثر نقاوة في أعماق قلبه مما يظهر منه في الخارج، لأن الله هو نفسه يرى ويحكم.

والمبتدئة الصالحة ليست هي التي لا تخالف أي مادة من ترتيبات وفرائض الابتداء، فتعجل إلى النهوض من النوم، وتسرع قبل الكل إلى الخورس، وتقوم بوظيفتها بدقة، ولا تتصلب أبداً من أمرٍ ما، وتحافظ على الرصانة في كلامها، وتنقاد بسهولة لمطالب الآخرين ...

كل هذا، ولا ريب، ضروري لكل مبتدئة صالحة، ولكن هذا كله يجب أن تمارسه المبتدئة وهي تفكر بأنها تمارسه إرضاءً لله، وخضوعاً لمشيئته، وتمجيداً له.

أما إذا كان روح الله تعالى لا ينعش المبتدئة فلا تكون محافظةً على الفرائض، وعلى الصمت، وعلى الحشمة إلا اضطراراً، ولأن جميع المحيطين بها يحافظون على ذلك كله... فيُخشى أن تسلك بدافع المزاج، أو بدافع العادة، أو أيضاً بدافع المجد البا□ل والرثاء!

فمن المهم إذن، منذ الأيام الأولى، أن تتملّى من الروح الذي يكوّن جو الابتداء، كما رأينا سابقاً، وأن تنقاد لفعله الخيّر.

1
روح إيمان

فروح الإيمان يظهر الابتداء كأنه بيت الله تعالى، يكون فيه الله المعلم الأسمى.

والقانون هو تعبير لا عن إرادة هذا الشخص أو ذاكن بل عن إرادة الله نفسه.

والخلائق التي تكتفنا، كل واحدة بحسب وضعها الخاص، وكل واحدة بحسب مزاجها وعقلها ونقائصها أيضاً، هي الوسائل المادية التي بواسطتها يتّصل الله بنا.

روح الإيمان يرينا الله تعالى يقودنا بشخص المعرِّف؛ ويأمرنا بواسطة القوانين والرؤساء؛ ويمتحننا بواسطة مزاج الرفيقة الفلانية، وبرتابة الوظيفة الفلانية، وبعذاب المرض الفلاني، وبالاتضاع الناتج من الملاحظة الفلانية.

روح الإيمان يجعل المبتدئة دوماً محتشمة، دوماً رصينة، دوماً عاملة بنشاط، لأن نظر الله تعالى لا يفرقها أبداً ولأنها لا تريد أن تغيظه أبداً.

روح الإيمان يجعلها أيضاً مسرورة على الدوام لأنه يريها الله تعالى ساهراً عليها بمحبة، ويريها الله يقوم بقربها مقام كل الذين تركتهم لأجله، ويحسب لها، ليكافئها في السماء، كل عمل من أعمالها، وكل تصرُّف من تصرُّفاتها، وكل دمعة من دموعها.

2
روح ثقة وتسليم

1. **نحو الله** الذي دعا المبتدئة وهو يرافقها في طريقها، ليسندها ويشجعها، ويشددها ويقيل عثرتها ...

الله، الذي تشعر المبتدئة بحبِّه لها، وبأنها تحبّه هي محبة صميمة وتكل إليه أمرها دائماً وفي كل شيء.

الله الذي تبتهل إليه بإرتياح عظيم، وتعود إليه بعاطفة بنوية صادقة، طالة الصفح، وتدعوه بطيب الخاطر: يا أبي!

ففي العالم لا تشعر النفوس بعناية الله الأبوية كما تشعر بها جماعة الدير؛ لأن الله في الدير هو الكل بالكل. فطوبى للمبتدئة التي تفهم جيداً فحوى هذه الكلمات: الله هو كل شيء لي[1].

ولهذا ما أعظم ارتياحها عندما تذهب إلى الصلاة. وكم ترى نفسها سعيدة بأن يفرض عليها الواجب أن تمثل لدى الله، مرات عديدة كل يوم، للتأمل وتلاوة الفرض، وزيارة القربان المقدس.

لقد قيل أن الدير هو "بيت الصلاة" وتفهم الآن، وهي فيه، كل ما تحويه هذه التمسية من عذوبة وقوة وتعزية؛ وتستطيع أن تأتي معلمة الابتداء ومرشدها لستطلع على الوسيلة التي تمكِّنها من الصلاة الدائمة، التي تكلمها عنها الكتب المقدسة.

"كنَّ بناة صلاة، وأنا أَكفل لكنَّ سعادتكنَّ في الجمعية" هكذا قالت إحدى معلمات الابتداء لمبتدئاتها.

---

[1] لقد كتبت إحدى الراهبات التّرابستين ما يلي: "يظهر لي أنه لم يمضِ يعد يوم عليَّ منذ أن نذرت لله نفسي، وأني لا أعدّ سنين حياتي إلا ابتداءً من ذلك الوقت. أترين كما أنا صغيرة: إني لا أتجاوز السنة! وهذه الفكرة تسرّني كثيراً بقدر ما تدفعني إلى ثقة عظمى بالسيد المسيح. فالطفل الصغير ابن السنة الواحدة لا يقدر إلا أن يحب والدته وهي تصفح له عن كل شيء، بل يظهر لي أن أخطاءه الصغيرة تجعلها تحبّه محبة أوفر".

2. ثقة وتسليم **نحو الكاهن** الذي فوّضت إليه الطاعة أن يهتم بنفسها، فأصبح لها بمثابة الله منظوراً بشكل محسوس؛ فكلمته هي كلمة الله، وإرشاداته هي إرشادات الله؛ تعرض له ببساطة أحوال نفسها وتعيش بطمأنينة متيقّنة أنه يقودها إلى السماء. وما يهمّها أنها لم تعد تسمع صوت المرشد الذي قادها في العالم! إنها، ولا شك، لن تنسى أبداً من قاد خطواتها مدة طويلة؛ وستتذكر نصائحه، وتصلي لأجله؛ لكنها لن تتحسَّر عليه بحسي مفهوم هذه الكلمة عند أبناء العالم. فإن الله الذي كان قد منحها كاهناً قديساً لإرشادها، يمنحها الآن أيضاً كاهناً قديساً، وفي منبر التوبة لا ترى إلاّ الله.

وإذا سمعت اليوم بعض كلمات تظهر لها أقل عذوبة، وإذا بدا لها التعليم الذي يُلقى عليها أكثر شدة وقساوة، فإنها ولا شك تشعر بقليل من إنقباض القلب؛ لكنها لا تدرك أنها لا تزال ضعيفة، وتنتظر بسكينة أن تتدرب أكثر على الحياة الروحية، وأن تفهم الكفر بالنفس فهماً أدق.

3. ثقة وتسليم **تجاه رئيستها** التي هي رسولة الله إليها؛ إنها تقوم مقام أُمها، ولها تكشف عن قلبها ببساطة الطفلن وبها تتصل سريعاً بعرى الصداقة الصميمة.

فبإتحاد هذه القلبين، أو بالحري هاتين النفسين، معاً، يحلّي الله تعالى مرارة الكأس الناشئة عن الفراق.

ليست المبتدئة بحاجة إلى معرفة رئيستها ومعلمتها لتحبهما. فبنعمة خاصة، تنفتح بعضها لبعض منذ أول يوم، وتتفاهم، وتتحاب، وبهذه الواسطة تتكوّن الأسرة... وإذا بقيت المتبدئة على محبتها لله كما أحبته حين دخولها الدير، فهذه المحبة تجعلها سعيدة مدة حياتها الرهبانية كلها.

4. ثقة وتسليم **نحو رفيقاتها** اللواتي تطلق عليهنَّ، بفرح وغبطة، اسم الأخوات، ويجعلنها تحسّ بعذوبة الأفراح العيلية.

وكيف لا تتحد هذه القلوب التي شعرت بالعذابات نفسها، وتعمل لهدف واحد، وتسير في الطريق الواحد؟ ... إنهنَّ يحببن بعضهن بعضاً، ويؤكدن هذه المحبة بعضهن لبعض مبرهنات عنها بألف طريقة.

فبينهنَّ ليس من رسميات بل إنطلاق وبساطة مستعذبان، واحترام بدون جهد، وصراحة وديّة تجعلهنَّ في الحال صديقات حميمات، هنَّ اللواتي لم يكن يعرف بعضهنَّ بعضاً من أمس فما قبل.

لا بد، بالطبع، من بعض الرزانة في العلاقات بين المبتدئات، غير أن هذه الرزانة الناشئة عن الفطنة لا تضرّ بتاتاً بعواطف المحبة والمودة القلبية الكائنة بينهنَّ.

3
روح استقامة وبساطة

إن هذا الروح يجعل المبتدئة تنصرف إلى العمل بدون نيات محبَّأة، وتقوم بالواجب المطلوب منها على أحسن ما في إمكانها بدون محبة الذات، وبدون مباهاة؛ إنما تقوم به لأنه طُلب منها.

تتصرف بالطريقة الفلانية، وفي الوقت الفلانية، لأنه هكذا أُريد منها.

تقول ما تعرفه بدون إعتداد بالنفس؛ وتقرّ بجهلها ما لا تعرف من غير ارتباك.

تكشف عن أفراحها، وهمومها، وقلقها، ونفورها، وأخطائها كما تراها وتعرفها. حسبُها أن يكون ذلك مطلوباً منها.

إذا شعرت بشيء من الإنزعاج تعرضه ببساطة، وتستعمل العلاج الذي يُعيَّن لها.

إذا كانت على شيء من المرض فإنها تقوله أيضاً. وإذا خطر لها أن ما تعترف به قد يكون عائقاً في سبيل قبولها، فإن روح الإيمان الذي يقودها يجيبها هكذا:

"أتريدين أن تكوني راهبة ضد إرادة الله تعالى؟ لا، بالطبع. فإذا كان الله قد أرسل إليكِ هذه العلّة التي تمنعكِ عن دعوتك، فلماذا تريدين أن تقاومي إرادته؟ وإذا كان الله يريد أن تصيري راهبة؛ فاطمئني بالاً، فهو يدبرك إمَّا بشفائك وإمَّا بجعلك مقبولة بالرغم من كل شيء"

4
روح ترتيب ونظام

بهذا الروح لا تترك المبتدئة نفسها ترتبك بكثرة الواجبات المترتبة عليها. إنها لا تقوم إلاّ بعمل واحد لا غير، وتنهيه دائماً قبل أن تباشر عملاً آخر؛ تبدأ نهارها بجعلها كل شيء في موضعه؛ – وتعمل كل شيء بدقة متقيّدةً

بالوقت والمكان وطريقة العمل، وهذا كله بدون إنزعاج ولا ارهاق نفس ولا وسواس؛ – تترك العمل الذب ابتدأت له عندما تدعوها الطاعة إلى عمل آخر، وبعد ذلك تعود إلى عملها الأول بهدوء، وتتمّه من غير أن تفقد الصبر. كل الأعمال، في نظرها، متساوية في القدر إذا فرضتها الطاعة؛ وليس من فرق عندها أن يكون العمل صلاة، أو كناسة، أو درساً، أو ترقيع ثياب ...

فسواء أقامت أمام القربان المقدس، أم بقرب مريض، أم وحدها في حجرتها، أم بين أخواتها أثناء النزهة... فكل شيء حسن لديها لأنها ترى في كل شيء مشيئة الله.

5
روح سلام ومحبة

هذا الروح يحتمل ما يضاده، وينسى سريعاً الخطأ الذي ارتُكب نحوه. يحسب كل شيء، المعاكسات التي لا مناص منها في الحياة الاجتماعية، ويحترز من أن لا يزعج أحداً؛ يتجنب التشكي، ولا يصغي إلى النميمة والاغتياب، بل يجتهد في جمع القلوب المتفرقة.

إن التي من طبعها تتعلّق بكل شيء، وتكون منازعة ومزعجة لم تُخلق للحياة المشتركة.

من كان فيها روح المحبة هذا لم تعُد تخ نفسها بل تخ ، على نوع ما، الجميع.

إنها خدوم على الدوام، فلا تتردّد البتة في القيام بكل خدمة بل هي مستعدة على الدوام لمساعدة الجميع، وللقيام مقام رفيقة تعِبة، ولتأدية مهمَّة أهملها غيرها.

إنها سخية فلا تتساءل أبداً: أَأَنا ملتزمة بهذا العمل؟ بل تبادر إليه، وتجعل نفسها في خدمة الغير، وتتعب حتى العناء، ورائدها هذه الفكرة: إن كل ما أعمله للآخرين لوجه الله، فالله يعمله لي.

فهذا الروح هو روح الحياة الرهبانية بالذات.

وقد قال أحد القديسين: "افح بنوع خاص مقدار المحبة التي يمكن أن تستوعبه نفس فتاة، فإذا كان بوسعها أن تحب كثيراً الله وقريبها، فإقبلها للرهبنة".

6
روح قوة

هذا الروح يتألم، ويصمت، ويصبر.

تعلم المبتدئة أن أكثر البيوت قداسة لا تخلو من الصعوبات، وأن هذه الصعوبات لها غاية خاصة هي تقديس النفس؛ لذلك تستقبل تلك الصعوبات بسكون إذ ينبغي لها أن تكفِّر.

وتعلم أيضاً أن من غاية الصعوبات تثقيفها على الحياة الرهبانية؛ لذلك تنتظرها بشجاعة وفي شيء من فارغ الصبر؛ إذ ينبغي لها أن تتجرَّد من كل ما هو فاسد فيها.

إنها الفأس التي تقطع ما هو زائد في الطبيعة.

وهي المِنْحَت الذي يصقل ما هو خشن فيها.

المبتدئة تتحدث عن صعوباتها الداخلية إلى الله، وإلى معرفها ورئيسها... وما من أحد غيرهم يطَّلع عليها.

أما من جهة صعوباتها الخارجية الناشئة عن الأشخاص المحيطين بها، فإنها تعرف جيداً أنها لا تعيش مع ملائكة؛ وأن لها هي أيضاً إنحرافاتها، وأنها بقدر ما تتقدم في طريق القداسة، يقل شعورها بنقائص الآخرين. ومن ثم فلا تعيرها إلاّ أقل ما يمكنها من الاهتمام، وإذا صادفت من غيرها ما لا تستطيع إلاّ الشعور به فإنها تتحمله بسكينة.

7
روح فرح

هذا الروح يجعلها تُسَرّ بالله وبكامل ما يشاؤه الله؛ فتبتسم عادةً، وتبث الحياة والنشاط في النزهات، وتبعث النشاط في العمل، ولا تنظر في كل شيء إلاّ إلى الوجه الجذاب؛ وأخيراً تحمل معها السعد والسرور فتبثّهما حواليها، من غير إزعاج ولا طيش ولا تبدُّد خارجي؛ وشعارها في ذلك كلمة لطيفة فاه بها القديس فرنسيس السالسي لكنها لا تجسر هي على إعلانها لئلاّ تجرح بعض الطباع: القديس الحزين هو في الغالب بئسَ القديس. ولها في ذلك أيضاً

قاعدة أخرى أقرب إلى الحياة العملية: إذا كنتُ لا أستطيع أن أعطي الآخرين كثيراً، فأسعى بكل الوسائل الممكنة لأُعطيهم قليلاً من الفرح.

الآن، وقد اضمحلّت الاجتماعات العيلية المرحة وأقفرت المنازل في العالم، تلك المنازل التي كان يجتمع فيها حول الجد والأولاد والأحفاد مصغين إلى أقوال الشيخ العجوز المرحة ومالئين البيت بصدى ضحكهم الصاخب، فما عادت تُصادَف تلك الضحكات اللذيذة إلاّ في الأديرة، وفيها وحدها تُطلق الأقوال الفاتنة والنُكات الطريفة، والروايات والأقا□يص الساذجة التي تشرح النفس وتنزّه العقل وتسرّي عن النفس الهابطة أحياناً، كما كانت تسلّي في القديم حجلةٌ لطيفة مرحة خاطر القديس يوحنا الرسول. فإن الجماعة التي ليس فيها فرح لجماعةٌ مريضة.

•

نستميحُ القرّاء أن نلحَّ في و□ف روح الفرح هذا، الذي يجب أن ينعش كل أديرة الابتداء. فهو علامة النفس النقية المستقيمة الواثقة المفعمة سلاماً ومحبة!

لو كان يوسعنا أن نذكر كل ما نعرف عن نزهات بعض أديرة الابتداء لَأُتيح لنا أن نسرد الشيء الكثير من النُكات الطريفة. فنكتفي بأن نورد □فحةً من سيرة الأم ماري إفرام/ إحدى راهبات القديس توما في فِلّانوفا، التي قامت مدة طويلة بوظيفة معلمة المبتدئات:

لم تكن الأم ماري إفرام ترى مبتدئاتها في ساعة محاضرة الابتداء فقط، بل كانت تحرسهنّ كل يوم في نزهة المساء وتحرم ذاتها نادراً مما كانت تدعوه أعذب لذاتها. كانت هذه الأم الطيبة الذكر تحب أن ترى ذاتها تحيط بها بناتها الكثيرات؛ فكان عندها لكل واحدة منهنَّ بلا تمييز إبتسامة، وكلمة طيبة، وإنتباه رقيق. لذلك ما كادت تظهر بينهنَّ حتى ترى كل الوجوه تنشرح، فيبدو عليها الفرح الشديد، وتنطلق الألسنة بنداء "ماميرر... ها هي الماميرر... أنظرن الماميرر... □باح الخير أو مساء الخير يا ماميرر!".

في أثناء الصيف كانت تبادر زمرة المبتدئات والطالبات إلى تحويط الأم ماري إفرام. فيبتدئ السير بالأحرى في المسلك المؤدي إلى مغارة سيدة لاساليت. فعند و□ول الجمهور إلى المغارة تندفع الأ□وات لتحيّي بنشيد تقوي تمثال مريم الواقفة بين الراعيَين. ثم يحثو الجمهور ويتلوا السلام الملائكي. وبعد أن يكثر الجمهور من تقبيل مريم العذراء كان

ذلك القطيع السعيد يتوجه إلى الصنوبر وأحياناً إلى الغابة القريبة. فكانت الضحكات، يردّدها الصدى المسائي، تدل من بعيد على فرح تلك القلوب الفتية.

وكانت الأم ماري إفرام سعيدة بين بناتها، يُشرق وجهها بإبتسامة عذبة، مع أنها كانت عادةً كثيرة الجدّ والتفكير. فتقول: إلعبنَّ يا أولادي، إلعبنَّ ففرحكنَّ يبهج قلبي وينفع نفسي. ترضي المبتدئة يسوع وأمه إذا أحسنت السلوك في نزهتها.

وكانت في غالب الأحيان لا تستطيع أن تجيب عن كل ما يُطرح عليها من الأسئلة، فتنشب بين السائلات حرب لطيف؛ فتقول الواحدة: يا أمي لم تقولي بعد لي شيئاً؛ وتردف الأخرى: وأنا لم ألقَ بعد تحيتك، مع أني كررت تحيتي مراراً. وتصرخ ثالثة: ماذا جرى "لحازورتي" إني لموقنة أنكِ لم تفكري بعد في معرفتها. وهذه المطالبات كلها كانت تقابَل بضحكٍ مفعمٍ فرحاً، والأم ماري إفرام تحاول أن تجيب عليها، فتقول: كيف! أنا إذن متأخرة جداً في أجوبتي، فماذا عليّ منها: واحد أم ثلاثة أم أكثر! فكان ذلك يزيد في الفرح العام.

وكثيراً ما كان الجرس يوقف فجأة على الشفاه أقوالاً شُرع فيها فتكون خاتمة إبتسامة الموافقة الصامتة من قبل المعلمة الطيبة.

وكان لهذه النزهات نكهتها في الشتاء، في المشغل الكبير. فكان جمهور المبتدئات والطالبات يحيط بالأم المعلمة، ويضحك، ويتحدث، ويدور الكلام فيها على الله،ويُنشد بعض الأناشيد التقية، وتُروى قصة فيها بنيان للنفس. فكان الروح يجد دوماً هذه النزهات تسلية لذيذة، والنفس غذاءً.

فيا له من فرح لذيذ وعذب ومقدَّس!

8
روح تضحية وكفر بالنفس

هذا الروح يجعل المبتدئة تقول بحزم منذ مطلع ابتدائها: ينبغي أن لا أكون لذاتي فيما بعد، بل لله وللرؤساء القائمين مقامه تجاهي. وهكذا تضع المبتدئة بين أيدي رؤسائها إرادتها وحكمها ومؤهلاتها، بتلك البساطة التي تجعلها تضع بين أيديهم شيئاً مادياً تريد أن تتجرد منه، فتعطي رؤساءها حرية تامة ليزيدوا ويحذفوا ويبدّلوا فيها كما يشاؤون.

سوف يُقال لكِ فيما بعد أن الراهبة نفس تبذل ذاتها تماماً في خدمة الله وتقدم ذاتها لله كمحرقة. فقد قال القديس توما: "إن الحالة الرهبانية يمكن اعتبارها محرقةً بها تقدّم النفس ذاتها لله مع كل ما تملكه. فتقدّم لله الخيرات الخارجية بواسطة نذر الفقر الاختياري، وتَقف له خير الجسد بنذور العفة؛ وتقدّم له خير النفس كاملاً بواسطة الطاعة إذ تضحي له بإرادتها الذاتية".

قال القديس فرنسيس السالسي: "هل تعرفين ماذا يعني كلمة الراهبة؟ إنها تعني نفساً متصلةً بالله بالإماتة الدائمة يحبث لا تحيا إلاّ لله وحده. إذ لا يسوغ أن يقال للنفس الداخلة في الرهبانية أنها متى صارت راهبة سوف يقودها سيدنا يسوع المسيح على جبل ثابور لتقول مع القديس بطرس: حَسن لنا يا رب أن نكون ههنا. بل يجب أن يقال لها، سواء كانت مزمعة أن تنذر أم أن تدخل في الابتداء: يجب أن تصعدي إلى جبل الجلجلة لتُصلبي دوماً مع سيدنا يسوع المسيح. يجب أن تصلبي عقلكِ لتحصري أفكاركِ ولا تقبلي منها بإرادتكِ إلاّ ما تعيّنه لكِ دعوتكِ التي اخترتها. يجب أن تصلبي أيضاً ذاكرتكِ لكي لا تعودي تقبلين تذكاراً واحداً مما تركته في العالم. ويجب أيضاً أن تعلقي على صليب سيدنا يسوع المسيح إرادتكِ الخاصة لكي لا تستخدميها من بعد على هواكِ؛ بل يجب عليكِ أن تعيشي في خضوع وطاعة كاملين مدة حياتكِ كلها".

فيجب إذن، منذ الابتداء:

1. أن تدَعي غيركِ يجرّدكِ من إرادتكِ، فلا تقولي أبداً: أريد، أو لا أريد، بل تحاولي أن تفعلي كل ما يشاؤه أولئك الذين حلَّت فيهم سلطة الله، وتطلبي مراراً إلى الله النعمة لكي لا تجادلي جدالاً داخلياً حول موافقة الأمر الذي تُعطَينَهُ لظروف الحال ومطالب الحكمة والفطنة.

2. أن تدَعي غيرك يعاكسكِ في أميالكِ، وطريقة شغلكِ، وصلاتكِ، وأحاديثكِ، وهيئتكِ، ومشيئتكِ.

3. أن تدَعي الغير يحرمكِ كل ما يفيض عن الضروري، مثل تلك الأشياء الصغيرة التي جلبتها من العالم وأنتِ بها متعلقة لما يُناطُ بها من التذكارات.

4. أن تتعوّدي عدم التشكي من تونيب أو تذليل أو تقصير في الاحترام الواجب لكِ، أو نسيان ... وهلمَّ جرا.

نحن لا نطلب الآن من المبتدئة أن تبادر إلى عمل التضحيات؛ وإنما نطلب منها أن تسمح لغيرها بأن يحملها على صنيع بعض التضحيات.

***

تستطيع المبتدئة أن تعرف هل هي منتعشة بروح الابتداء، أي بروح الله، إذا كانت تُتمُّ أفعالها اليومية:

1. **بدقة**: فلا تهمل منها واحداً عن تعمُّد، وتفعلها كلها في الآوان المناسب، وفي المكان المعيّن، وبالطريقة المفروضة. إن المبتدئة الدقيقة لا ترى ولا تعرف إلاّ قانونها. فحالما يقتضي هذا القانون ترك أحد الأشغال تتركه وتعكف على شغل آخر، وتخرج من حيث كانت لتتوجه إلى موضع آخر. إن صوت الجرس هو لها كالنجم المشع الذي قاد المجوس إلى مهد يسوع المسيح؛ وصوت معلمتها هو لها صوت يسوع المسيح القائل للرسل: تعال واتبعني.

2. **بحرارة**: لا بتلك الحرارة واللذة المحسوسة، إذ بوسع المبتدئة أن تكون حارة، وهي تنفر طبعاً من كل ما تفعله، وأن تشعر بنفور وكراهية من العمل الفلاني أو من الرفيقة التي تفرضها عليها الطاعة. هذه الحرارة تعني سلوكاً حازماً شجاعاً، يُخفي التأثير الداخلي ويندفع إلى العمل بالتفكير أنه عملٌ تحت نظر الله الذي هو السيد، يأمر بالشغل الفلاني، مع الشخ الفلاني، بالطريقة الفلانية؛ فالمبتدئة التي تحب الله تريد أن ترضيه.

3. **بثبات**: هي النقطة الجوهرية، بل الصعبة. إن المبتدئة التي تفعل اليوم ما فعلته أمس وما هي ملتزمة بأن تفعله غداً، وتواصل فعلها هذا بالإنتباه عينه، والعناية عينها، والكمال نفسه، من الأكيد أنها تعاني استشهاداً أليماً جداً؛ لكن عينيها مرفوعتان إلى السماء؛ فإكليل الشهداء ينتظرها.

الفصل الثالث

في النقائص الواجب إصلاحها في الابتداء

إن النقائص التي تأتي بها المبتدئة إلى الابتداء، ويجب أن تعمل على إزالتها، يمكن أن تكون في العقل – أو في القلب – أو في الجسم.

لا نتكلم عن النقائص التي لا تأتلف البتة مع العيشة الرهبانية، بل عن تلك التي تركت الخطيئة الأصلية أصولها في كل واحد منَّا، والتي تتوصل الجهود المتواصلة، بمعونة النعمة، إلى استئصالها أو إلى إضعافها إضعافاً محسوساً.

ولا نتطلب أن تكون المبتدئة في آخر ابتدائها بلا نقائص، بل أن تكون قد جاهدت كل يوم لمقاومة النقائص التي اكتشفتها في ذاتها.

هوَذا الآن أهم الأسباب التي تمنع جماعة رهبانية من قبول طالبة تطرق باب الابتداء، أو مبتدئة تتقدم لإبراز النذور، إذا لم تُكشف هذه إلا مدة الابتداء:

1. تُرفَضُ الطالبات أو المبتدئات إن لم تكن لهنَّ الصحة أو المؤهلات أو المواهب الضرورية للقيام بوظائف الرهبانية، ولا سيما إذا كانت الصحة ضعيفة والفضيلة ضئيلة. ففي هذه الحال لا يمكن أن تكون الطالبات إلا عالةً على الجمهور والرهبانية.

2. إذا كنَّ على درجة قاصية من الطبع السوداوي، معرَّضات من طبعهنَّ للوساوس، دوماً في القلق والاضطراب، معرَّضات للسير مع المخيلة، متمسكات بعناد برأيهن الخاص، لا يسلكن إلا بحسب مزاجهن ولا يعملن إلا ما يبدو لهنَّ حسناً ومفيداً. فإن هذه العيوب هي عادةً غير قابلة للإصلاح، والطاعة العمياء وحدها قادرة أن تجني من هذه النفوس بعض الخير، لكنها لا تدرك أن الطاعة واجبة.

3. إذا كانت طباعهنَّ وأخلاقهنَّ سيئة، وروحهن غضوب عنيف لا يحتمل شيئاً، أو قلِق ومقلِق لا يثبت في السلام، له كلمةٌ يقولها في كل شيء، أو فخور طموح لا يقوى على الخضوع ويسعى دوماً إلى التسلط، أو حسود حذِر يخلق لنفسه أوهاماً كثيرة يخاف منها، أو دسَّاس محراك خبيث مرائي يستخدم الحيَل دائماً، غالباً ما يفاجأ ساعياً ليختفي، لا سبيل إلى استعياب نياته ومقاصده.

4. إذا كنَّ من طبعهنَّ رَخيَّات، محبَّات للذات الحسيّة، شرهات، يرغبنّ في عناية بليغة بالجسد والهندام، مما يدل على فكر ضيق؛ كسولات يتركن الشغل المتعب لغيرهنَّ ويتظاهرنَ بالإنشغال؛ سريعات التأثر لدى أقل ملاحظة. قال القديس فرنسيس السالسي: "أما الفتيات الرَّخصات اللواتي لا يحتملن الإ□لاح من غير أن يض□ربنّ بل يمرضنَّ غالباً بسببه، فيجب أن يُفتح لهنَّ الباب (ويصرَفنَّ من الرهبانية). فإنهنَّ مريضات ولا يُردن معالجة، فيبدو بوضوح أنهنَّ يُصبحنَّ غير قابلات الإ□لاح، فلا أمل من شفائهنَّ. أما هذه الرخاوة، في الروح كما في الجسم، فهي من أكبر الموانع للعيشة الرهبانية، وفي كل مكان يجب أن يُعنى عنايةً كبيرة بأن لا تُقبل في الحالة الرهبانية النفوس المصابة بهذا الداء لأنها لا تريد الشفاء إذ ترفض أن نستخدم ما يمكن أن يع□يها الصحة".

هذه العيوب كلها ثقيلة، وإذا كانت متأ□لة في طبيعة الـ□البات، فهنالك أسباب كافية للحُكم بأن الفتاة المصابة والتي لم تسعَ حتى دخولها الابتداء بل لم تفكر في إ□لاح ذاتها منها، لن تكون راهبة □الحة.

1

نقائص العقل وعيوبه

1. إن عيب العقل الأول، والذي يهمّ بالأكثر قمُعه ويل□ب إرادة قوية ثابتة وخصو□اً تكرار الأفعال الصدارة عن الفضيلة المضادة له، هو **الكبرياء**، الذي ربما تتخيل الفتاة أنها قد قمعتها لأنها لم تظهَر منذ مدة طويلة، لكنها ترافق كل الأفكار وكل الأعمال بعناد شي□اني.

هذا العيب يظهر، ثم يختفي، ثم يبدو ميتاً، ثم ينهض. فإن لن لم نُبِدْهُ مدة الابتداء سوف يسبّب لنا متاعب كثيرة ويحملنا على اقتراف خ□ايا كثيرة.

الكبرياء تحمل على تفضيل الذات على الغير، وعلى الاعتداد بالنفس وحسبان الذات فوق الآخرين، فتعدُّ النفس ذاتها ألبَق من غيرها وأفـ□ن في أساليبها، وترى ذاتها أدق في السلوك، وأبلغ في الفضيلة، وأكثر حرارة، وأجزل ثواباً من غيرها.

وقد تبلغ الكبرياء أنها توحي إلينا بأن الرهبانية سعيدة بالحصول علينا، إمَّا لأننا جئنا إلى الدير ببائنةٍ (دوطة) جديرة بالاعتبار، وإمّا لأننا نرى فينا مواهب وأساليب عملية تفوق مواهب وأساليب رفيقاتنا.

الكبرياء تحمل على فحص كل شيء، وتجعلنا، من غير أن ندري، نرى أن مواد كثيرة من الفرائض تحتاج إلى إصلاح. الكبرياء تُلهمُنا شيئاً فشيئاً أفكار الاستقلال: فيكون ذلك أولاً بطريقة عابرة ثم تصبح تلك الأفكار مع الزمن ثابتة في الذهن فتُنشئ احتقاراً للفرائض وازدراء لصغار الأمور وهرباً من الإصلاح، وتجنُّباً لنظر المعلّمات، ونفوراً من الاستئذانات الصغيرة... بل ميلاً إلى الأجوبة الحادة بل الوَقِحة تجاه أدنى ملاحظة.

2. العيب الثاني الذي يضرُّ بالنمو في الفضيلة ضرراً جسيماً لا حد له، هو **الخفة والطيش**، فإن هذا العيب يولي صاحبه ظاهراً لطيفاً محبوباً يُرضي أحياناً أهل العالم حيث كل شيء سطحي، لكنه في الجماعات الرهبانية يثير شكوكاً ومعاثر أو يدفع الآخرين خارج دائرة الواجب.

إن المبتدئة الطائشة كثيرة النسيان. فالتحريضات التي تسمعُها والمقاصد التي تأخذها والمواعد التي تقطعها، لا تُحسَب شيئاً لديها بعد بضع دقائق.

وهي كثيرة الكلام، مِهذار تدوّخ الجميع في النزهات؛ وفي غير النزهات لا تفكر أبداً أن لزوم الصمت مما تفرضه الفرائض. وتظنّ أن لها عذراً في ما تقوله بسذاجة: أنا لا أقدر أن أضبط نفسي.

وهي كثيرة التشتُّت، عاجزة عن الصلاة العقلية أو إتّباع قراءة علنية. فتخلط بين أمرٍ وأمرٍ وتلقي التشويش في نظام الجمهور.

وهي عادمة الثبات، تشعر بحاجة إلى التنقل من مكان إلى آخر، ومن وظيفة إلى أخرى، وإلى تبديل رفيقاتها... إلخ.

إن العيبين السابقين لعلى جانب عظيم جداً من الخطورة، فتلفت إليهما سهر المعلمات وإنتباه المبتدئات.

ولأنهما ليسا غير قابلين الشفاء والمعالجة لا يُرفَض دخول الابتداء للطالبة التي لن تُصلح بعد ذاتها منهما؛ بيد أنّا نتضرع إليها أن تخضع خضوعاً أعمى لكل ما تقتضيه منها معلمتها. إذ يُعقَل أن لا تُقبل للنذور المبتدئة المتكبرة أو الطائشة.

قال القديس فرنسيس السالسي: "أمّا النفوس التي هي عادةً مفعمة زهواً واعتداداً بالذت، والتي كانت وهي في العالم حوانيت الزهو وقد دخلت الدير لا لتتَّضع بل كأنها تروم أن تُلقي دروساً في الفلسفة واللاهوت وأن تقود وتحكم في كل شيء، فهذه النفوس يجب أن الحذر منها كثيراً."

وقال كولّيه: "إن النفس المتقلقلة الغير الثابتة تحمل في ذاتها صك الحكم بإبعادها عن العيشة الرهبانية"

3. وهنالك عيب آخر نشير إليه أيضاً، مع أنه غير قابل للإصلاح التام، لأنه قد لا يكون مُضراً بالجمهور إذا كانت المبتدئة المـ□ابة به تتوّصل إلى أن تخضع خضوعاً أعمى، وهذا العيب هو **ضيق الفكر**، الذي يمكن أن يُفضي، إن لم يكن القلب صالحاً والعبادة ساذجة، إلى إنتاج الوساوس. وهذه الوساوس وباء في الرهبانيات سوف نتكلم عنه في كتاب الناذرات[2].

نقف عند هذا الحد. أما سائر العيوب كحدة الطباع والبُطء في الحركات... فإنها تضعف شيئاً فشيئاً تحت تأثير التقوى والمثل الـ□الح.

قال القديس فرنسيس السالسي: "وإن تكن الطالبات ضعيفات أو غضوبات أو معرَّضات لعيوب أخرى، فهذا لا يمنع الابتداء، بشرط أن تكون فيهنَّ رغبة صالحة في إصلاح ذواتهن وفي الخضوع وفي استعمال العلاجات والأدوية الموافقة لشفائهن. وإن يكن فيهن نفور وكراهية لتلك الأدوية، وإن قبلنها بـ□عوية كبيرة، فلا بأس من ذلك إن كنَّ يُقبلن عليها ويُبدين إرادة ثابتة ورغبة في الشفاء مهما كلَّفهن. فإن هذه النفوس، بعد عناء طويل، يأتينَ بثمار غزيرة في الرهبانية ويـ□بحن من خادمات الله الكبيرات ويُحرزن فضيلة راهنة وقوية. فإن نعمة الله تعوّض الخلل الناجم عن النقيضة، وحيثما يكون نـ□يب الطبيعة أقلّ يكون عادةً نـ□يب النعمة أوفر.

2

نقائص القلب وعيوبه

عيوب القلب هي:

[2]ليس ضيق الفكر الخلو من الحكم الـ□ائب. قالت القديسة تريزيا: إذا كان الحكم الـ□ائب ينقض الفتاة، فلا أرى في أي شيء تستطيع أن تفيد جماعتها، بل أرى جيداً أنها قد يمكن أن تضر بها كثيراً.

1. اللامبالاة: إن بعض الطباع باردة، صعبة التأثر؛ فلو بقيت في العالم لصارت فريسة الأنانية. هذه الطباع هي عادةً دقيقة، قانونية، متأدّبة، لكنها قلّما تكون مبادرة بالكياسة والخدمة لأنها لا تفكر في ذلك، وقلّما تكون شفيقة لأنها لا تكتشف الألم ولا تدركه. أمّا في الدير، فالتقوى التي يتشرّبنَها، والتأملات المتواترة في محبة الله لهنّ، ورسوم المحبة الأخوية التي يخضعنّ لها لأنهنَ يعرفنّ أهميتها، هذه كلها تضع فيهنّ محبة ذات ثواب، إن لم تكن محبة ودية. ولا سبيل إلى طلب أكثر من ذلك منهنّ. هؤلاء يَمتنَ من غير أن يحببنَ أحداً أو يحبهنَّ أحد؛ لكنهنَّ يتعزينَّ في ذهابهنَّ إلى السماء بأنهنَّ لم يحِدنَّ قط عن الواجب حياداً باهظاً.

2. الكراهية والنفور: وهنالك طباع تشمئز لأدنى النقائ ولا تحتمل الطباع المعاكسة لطبعها. فتنشأ من ذلك كراهيات، ونفور، وأقوال لاذعة، وانتقامات صغيرة، ومساعٍ لتجسيم الأخطاء، ومخالفات للصبر، وأجوبة قاسية وناشفة وحادة وجارحة. فلا بدّ لهذه الطبائع الرديئة من جهود عنيفة ومتواصلة لتتعلم الاحتمال والصمت ومبادرة الغير بالالطاف. ومع ذلك سوف تبلغ هذه النفوس الهدف المقصود بمعونة النعمة واستخدام الوسائل التي تعينها المعلمة، وإذا واظبت على الظهور بمظهرها الحقيقي بمعزل عن الرثاء. إنما تلاقي المعلمة في هذه النفوس رأس مالٍ أضعف مما في الطباع الباردة غير المبالية؛ وهي أصعب مراساً من تلك.

3. الطبع السوداوي. هذا العيب، في الجماعات الرهبانية، أخطر مما يبدو لأول وهلة. والقديستان تريزيا وجان دي شنتال توصيان صريحاً بناتهما بأن لا يقبلنّ في صفوفهنَّ ذوات الطبع السوداوي.

قال القديس الفونس دي ليغوري: اهربوا من هذا العيب، فإنه طاعون العبادة وسبب أخطاء كثيرة؛ يضر بالنفس كما يضر العث بالنسيج الذي يأكله؛ ويجعل النفس تدريجاً عادمة الشعور ويتركها بين يدي الشيطان وفي حوزته وسلطانه.

إن ما تبديه معلمة الابتداء مثلاً من المودة اللطيفة المقدسة، وما تقرأه المبتدئة بتواتر في مطالعاتها عن رحمة الله وجودته، من شأنهما أن يساعدا المبتدئة على إتقاء الأخطار المنوطة بهذا العيب.

بيد أن ما ينتاب النفس من نوبات الحزن العارضة العابرة لا يدل على طبيعة مصابة بالسويداء. إذ من القريب إلى الادراك أن تنتاب القلب الكسير أحياناً ساعات يحتاج فيها إلى الخلوة والانفراد، ولا بد أن تكون في الحياة بعض أويقات أليمة تكون فيها الابتسامة مزعجة ومؤلمة.

أما في مدة الامتحان أو الابتداء، فالحزن يأتي عادةً من ذلك المرض الهائل المدعو "الشوق إلى الوطن". وقد وصفه صاحب "الرسائل على الحياة الرهبانية" كما يلي: كان في العالم فتاة تشتهي منذ أمد بعيد الساعة السعيدة التي تُقبل فيها في أحد الأديرة المقدسة؛ وقد خضعت لذلك بسخاء لحَنٍ طويلة. ثم شكرت لله حصولها على الإذن وودعت كل ما هو عزيز عليها وذهبت إلى الدير معلنةً فرحها وسعادتها. وفي الواقع كانت لها الأيام الأولى بعد وصولها مدعاةً للذة والسرور والارتياح، فانقضت الأيام كأنها ساعات، وكان كل شيء في الدير زاهياً يبسم لها ويسرّها. ولكن ما عتم المجرّب إن دنا منها شيئاً فشيئاً، فثارت المصاعب في وجهها وزال فرحها.

فاستبدلت بهجتها الأولى بملامح الغارقة في التفكير، وعلا وجهها قتام وكدر، وخفّ كلامها، وانقطعت عن الضحك، وبانت لها النزهات طويلة، وجعل الشغل يتعبها وفقدت شهوتها للطعام، وباين النوم جفنيها، وصار يلاحقها ذكر أهلها وأسرتها أينما حلّت. فصارت تحب العزلة عن رفيقاتها، وفي الخفاء صارت تسترسل في البكاء، فذابت وضمُرت وأخذت تأسف على مجيئها إلى الدير، وتخشى أن تكون قد تورّطت في وجهة لا توافقها، وجعلت تفكّر في الرجوع إلى العالم.

ذلك هو مرض "الشوق إلى الوطن"، وهو تجربة خطرة تنتاب الطالبات المبتدئات في بدء انخراطهنّ في السلك الرهباني.

فيا أختس، تنشّطي وتشجعي وثقي. اذهبي وارتمي بين ذراعي معلمتكِ وقولي لها ببساطة وموّدة: إني لضاجرة. اسمعي نصائحها واقبلي مداعباتها فتري أن السكون يعود لقلبكِ، وتسمعي الله يقول لكِ في صمت التأمل: إني أنا أبوكِ وأمكِ وأخوكِ؛ أمّا الذين تركتِهم فلا تقلقي بشأنهم، فأنا أعزّيهم.

4. تعلق القلب البشري. إن هذا العيب كثير الحدوث في بدء الحياة الرهبانية. فإنه طبيعي أن يتعلّق قلب المبتدئة بمعلمتها أو برفيقة توافقها بمزاجها وطبعها وسلوكها. بل أن في ذلك كثيراً من القداسة والنقاوة. هذه الموّدة تولي

صاحبتها كثيراً من الفرح، وتساعدها كثيراً على تحمّل الانفصال عن الأسرة، وتوحي إليها بكثير من الحرارة في صلواتها، وتجعلها تجد فتنةً غير يسيرة في العيشة المشتركة، ويظهر أنها مباركة من الله حتى أن المبتدئة تدهش كل الدهش عند سماعها أن هذه المودة عيب في المبتدئة.

نحن، في وهمنا، نعدّ عاطفة القلب هذه من أرقّ ما في المحبة، وكنعمة من الله تعوّضنا ما نبذله من التضحيات. ونلاحظ أننا بهذه المودة ننعزل عن الجمهور، ونضع الرفيقة التي نحبّها في مقدِس قلبنا حيث يجب أن لا يكون إلاّ الله وحده، وأننا نهتم بها مدة الصلاة أكثر من اهتمامنا بالله الذي نناجيه. لا نلاحظ أننا عادةً نخالف المحبة معها إذ تمرّ في أحاديثنا تارة المعلمة وتارة رفيقاتنا كموضوع للتسلية أو الانتقاد، وأن كل واحدة من كلتَينا لا تقوى على احتمال أدنى لوم يوَّجه إلى الأخرى، وأننا ننفخ الواحدة الأحرى، ونساند إحدانا الأخرى في أفكار الجبانة والحزن التي قد تعرض لنا، وأحياناً حتى في أفكار المقاومة والمعاندة نفسها.

إن تغذية هذا العيب تُنتج شيئاً فشيئاً الروح السيئة التي سنتكلم عنها عمّا قليل، ولا بد من إقصائها عن الابتداء.

3

نقائص الجسد وعيوبه

لا نعني بهذه العبارة العيوب الجسدية الثقيلة التي تمنع في بعض الأديرة قبول الطالبة في الابتداء، بل العيوب والنقائ التي تظهر في الهيئة واللبس والمشية، والتي هي نتيجة تربية سيئة.

فمن ذلك الخشونة في الألفاظ، والنغمة القرويّة في الكلام، والمشية التي تدل على تهاون أو تصنّع، وبعض التمايل والاهتزاز في الجسم لإستلفات الأنظار، والهيئة المتكلّفة وإن عن غير نية مقصودة، والإتّساخ، والإفراط في النحافة، والاسترسال في الضحك الصاخب وفي الفرح غير المرتّب، ومظاهر الصداقة التي قلّما تأتلف مع اللياقات والحشمة الرهبانية، والألعاب التي تؤذن بإلفةٍ غير مرتبة... فهذه كلها، وإن لم تمنع من الذهاب إلى السماء، تشوّش الترتيب والنظام في جماعة رهبانية، وتضرّ بالاتحاد والحب الأخوي.

فلكي تُصلح هذه العيوب والنقائ ، لا بدّ:

1. **من معرفتها**، إذ بوجه عام قلّما نعرف نحن أنفسنا عيوبنا، فيجب أن نُدَلَّ عليها، وهذا لا يتم من غير أن تُجرَح محبتنا الذاتية في غالب الأحيان.
2. **من الانقياد**، لنقبل ببساطة ما يُسدى لنا من نصائح ويوجَّه إلينا من ملامة، وما تسبِّبه لنا أخطاؤنا وهفواتنا من التذليلات الصغيرة.
3. **من الثبات**، لنباشر ثم نواصل مدة سنوات عديدة، إذا لزم الأمر، جهاداً سخيّاً في سبيل إصلاحها.

إن العيوب والنقائص الجسدية هي ما يصلح المرء نفسه منهُ بأوفر سهولة لأنها تسبب مذلات متواترة. فهل تكون المذلة آمن وسيلة وأعجلها للبلوغ إلى الكمال؟

والآن نستطيع أن نلخِّص مع بعض المعلمين الصفات التي تجعل النفس أهلاً للحياة الرهبانية. لا ريب في أن هذه الصفات ليست دليلاً قاطعاً على الدعوة، بيد أنها تولي النفوس المدعوّة ضمانة أقوى على حقيقة دعوتها.

إن الروح المستقيم، الفَرِح، المنقاد، الوديع، الصبور، الحائز صحةً تتفق مع مطالب العيشة الرهبانية، يكوّن استعداداً ممتازاً للعيشة ضمن الأديرة.

الروح الذي يتحمل بالأحسن صعوبات العيشة الديرية هو الروح اللطيف، السهل المعاملة، الشجاع، المحمول على الفرح والمرح أكثر مما على الحزن والكآبة.

الصفات التي تدل على أن النفس تكون سعيدة في الدير هي: البساطة، والصراحة، ولين الطباع، والقلب الشفيق، ولستقامة الروح التي تجعل صاحبها قادراً أن يُقاد بالعقل وخالياً من الاستسلام للهوى والمخيلة والزهو.

مما تقدّم بيانه يُستنتج، مع مؤلّف المحاضرات الرهبانية، أن ما يجب النظر إليه في الطالبة إنما هو الطبع أكثر من الفضيلة. فإن لم تكن فاضلة فستصبح فاضلة في الحياة الرهبانية، بشرط أن يكون لها رغبة حقيقية وإرادة صادقة. فما تراه في الدير من الأمثال الصالحة، وما تسمعه من الدروس والتحريضات المكرّرة، وما يُفرض عليها من حضور التمارين التقوية، هي لها وسائل أكيدة لتصير فاضلة حالما تروم أن تعمل لاستخدامها بطريقة فعّالة. ولكن إذا أتت إلى الدير بطباع وأخلاق صعبة لا تأتلف مع العيشة الاجتماعية، فلا تغيّر طباعها في الدير أو قلّما تغيّرها وبصعوبة كبرى. كان القديس فرنسيس السالسي شديد الاقتناع بهذه الحقيقة حتى أنه يوصي راهباته بأن لا يقبلن في الدير إلاّ

ذوات الروح الطيبة، وهو يعني بذلك الروح المتزنة التي يسود فيها الحكم الصوابي. فيجب إذن أن يُفحص طبعهنّ قبل فضيلتهنّ. إن العيشة الرهبانية تُكسب الراهبة التقوى، لكنها لا توليها الروح الطيبة الصائبة.

الفصل الرابع

في الأرواح الواجب اقصاؤها

عن الابتداء

إن العيوب التي تكلّمنا عليها حتى الآن تُولِّد، في دير الابتداء، أرواحاً شريرة من شأنها أن تبيد منه شيئاً فشيئاًروح الله. فتجب معرفة هذه الأرواح الشريرة للعمل على إبادتها منذ ظهورها.

1

روح الحرد

يقوم هذا الروح في أن تظل المبتدئة حائدة عن الجمهور، لا بالانعزال عنه من الوجهة المادية، بل بالخروج عن دائرة أفكاره وأفراحه ونيَّاته.

هذا الروح يتكلّف الصمت مدة النُزهات، والكآبة مدة الشغل، والتعب مدة الصلاة، والاستياء من كل شيء وفي كل مكان.

ينشأ هذا الروح عن الحسد لدى رؤية رفيقة تمتاز عنّا بسلوكها أو بفهمها أو بمعاملة الرؤساء لها؛ أو عن الزهو وامتعاض الحب الذاتي على أثر توبيخ أو نسيان لنا، أو مديح وُجّه إلى غيرنا؛ أو عن هوى من تعوَّدت أن تجري حتى الساعة على حسب أهوائها.

غاية صاحبة هذا الروح أن تلفت إليها الأنظار والأشواق والمداعبات.

إن روح الحرد هذا كثير الحدوث في الأشهر الأولى من زمن الامتحان، ويُدعى حينئذٍ باسم يلطِّف عيبه، فيُسمى "الولدنة". وفي الواقع هو روح الأولاد المدلَّلين، لكن العيشة الرهبانية لا يكون فيها دلال وأولاد مدلَّلون؛ لأن جوهر الفضيلة في القوة، وروح الحرد يدل على ضعف وجبانة.

نرجو من معلمات الابتداء أن لا يسمحن لهذا الروح أن يدخل ويتبلّد في أديرة الابتداء. فهو مبيد للتقوى والمحبة، وهو مبدأ روح الانتقاد والتحزّب، الذي سيأتي عليه كلامنا.

2

الروح العالمي

هذا الروح العالمي يقوم في أن تُحفظ في الابتداء العوائد والأفكار والأحكام التي كانت للمبتدئات وهنَّ في العالم. ويبدو هذا الروح.

1. في الأحاديث: إذا كانت المبتدئة تتكلم دوماً، ومن غير أن تنتبه لذلك، عمّا كانت تفعل في العالم، وعن الاشخاص الذين كانت تراهم هناك، وعن زيارات الناس لها، وعن الأعياد العالمية التي تركت فيها أطيب الذكريات.

ويبدو هذا الروح أيضاً إذا كانت المبتدئة تسعى بنَهَمٍ لمعرفة أخبار العالم، وتتحمَّس لرأي سياسي، وتظهر دوماً كأنها الأولى في معرفة ما يجري والتحدث عنه، وتسمح لذاتها، بحجة تسلية الآخرين ببعض نكات تجرح التحفظ والحشمة الرهبانية.

ويبدو أيضاً إذا كانت المبتدئة تقرأ كل أقاصيص الجرائد التي تقع تحت نظرها، وتنتظر بفروغ صبر النشرات الدينية، فيبدو أنها لا غنى لها عنها[3].

2. في الهيئة الظاهرة: يبدو هذا الروح العالمي أيضاً عندما تتكلف المبتدئة الظهور بأنها أنظف وأحسن هنداماً من أخواتها؛ وعندما تلبس منديلها بأناقة زائدة، خ□وصاً عندما تُدعى إلى غرفة الاستقبال؛ وعندما تمشي على رؤوس أصابعها أو تتمايل بغنج ودلال فتّان يستلفت الأنظار.

إن هذا الروح، الذي له علاقة بالتربية الأولى، يزول تدريجياً بقدر ما تلِج التقوى النفس حتى صميمها.

3
روح التميز عن الغير

[3] في بعض أديرة الابتداء تُقبل نشرات دينية، شهرية وأسبوعية، فيها أخبار عن الحبر الأعظم والمشاريع الكاثوليكية. فنحن لا نـ□در حكماً بشأن هذه النشرات ودخولها أديرة الابتداء، ونترك لمعلمات الابتداء أنفسهنّ أن يحكمنّ في ما يحسن فعله لأجل خير النفوس الموكولة إلى عنايتهنّ.

إن هذا الروح لا يقوم، ولا شك، في أن لا تعمل المبتدئة ما يعمله غيرها، لأن في ذلك مخالفة صريحة للطاعة، بل يقوم بأن تفعل ما تفعله بطريقة تختلف عن طريقة الغير، وأن تدوم على فعله أكثر من غيرها، ومدّعية أنها تفعله أحسن من غيرها. وعلى ذلك أمثلة عديدة.

1. تروم المبتدئة أن تبقى في الكنيسة أكثر من غيرها، فتطيل شكرها بعد التناول، أو تصوم أشد مما تفعله رفيقاتها أو تسمح به المعلمة.
2. وتروم ان تصعد إلى الدير أو تذهب إلى المعبد فيما رفيقاتها في نزهة، وأن تتلو فرضها في المحل الفلاني والوقت الفلاني، وأن تلزم الصمت فيما غيرها يتكلم في أوقات النُزهات، وأن تعتزل عن رفيقاتها المجتمعات لعمل تشترك فيه المبتدئات جميعاً.
3. وتكون سحنتها كئيبة في أيام الفرح العام، وتغور في جمع فكرٍ وقنوتٍ بالغَين أيام الأعياد، إذ يكون المعبد لابساً أبهى حلة، وتمشي بإتئادٍ او برشاقة خلافاً لما تفعل رفيقاتها، وتتمادى في ضحكٍ صاخب، فيما رفيقاتها متحفظات في ضحكهنّ.

إن هذا الروح شارد يميل عن السبل العادية. ولا بد لقمعه من كثير من الصبر والحزم. فإن لم تطع المبتدئة طاعة عمياء صارت فيما بعد غريبة الأطوار، قلقة، وعلة سأم للجمهور.

4
روح التهكم

يقوم هذا الروح في أن تلاحظ المبتدئة كل النقائص والاخلال والزلات الصغيرة والأخطاء التي تبدر من كل عضو من أعضاء دير الابتداء، وأن تلفت إليها إنتباه الغير، لا يقصد أن توسعها إزدراء، بل لإثارة ضحك الجمهور ومرَحه.

إن هذا الروح من أكثر الأرواح مناقصةً للروح الرهباني الحقيقي والعيشة الرهبانية، وإن لم يبدُ لأول وهلة إلا موضوعاً للتسلية. ذلك أنه يبيد المحبة، وتسري عدواهُ بسرعة كبيرة، ويجرح حتى الصميم الأشخاص هم ضحاياه، وأحياناً يحملهم على ترك ديرٍ يجدون فيه ذواتهم عرضةً لمذلَّةٍ متواصلة؛ ثم أنه يمنع عمل النعمة في النفس المتهكمة، ويجعلها في آخر الأمر مكروهة عند الجميع.

كان القديس باسيليوس يطلب أن لا يُحفظ في الرهبانية الشخص المبتلى بروح التهكم.

أما مصدر هذا الروح فهو الحب الذاتي ومعرفة الفضل الذاتي الذي يعرف الشيطان كيف يجسّمه لصاحبه.

فبعض التذليلات العلنية، وعقوبة تُفرض كل مرة على من تبدر منها كلمة تهكم، من شأنها أن تُصلح هذا العيب.

والتأملات المتواترة أمام القربان المقدس على روح المحبة وعلى أوهاننا الشخصية من شأنها أن تعلمنا عاجلاً أن نصمت وأن نشفق على أوهان الآخرين.

5
روح الانتقاد

ليس هذا الروح في غالب الأحيان إلاّ روح التهكم، تُرك يكبُر، فأجال شيئاً فشيئاً نظره النقَّاد حتى في أعمال الرؤساء ونيّاتهم. ومن السهل إدراك كل ما في هذا الروح من الشرّ وكم تهم إبادته: انتقاد الروساء والحكم عليهم!

الويل للمبتدئة التي تسترسل عمداً في أفكتر انتقادية وخصوصاً تبلّغها إلى الآخرين!.

يُدعى الانتقاد أحياناً باسم التمرمر، ويبدو، من بعض الوجوه، شرعياً لأنه يظهر لنا مبنياً على أساس، كما لو لم يكن للشيطان دوماً أشباه حججٍ يقدّمها!

وبما أن التذمر والتمرمر هو من طبعه ميّال إلى الامتداد والتوسع، فها نحن ندل على أهم الشكاوي التي تستسلم الراهبات لها. فعسى أن تبيّن هذه اللائحة لمن يقرأها من غير ما تحيّز، الظلم الذي تتضمنه تلك الشكاوي:

- يُطلب دوما مني أنا إتمام أصعب ما في الدير وأجلبه للتعب.
- يَظهر لي أني لستُ بقدر فلانة أو لستُ مثل سائر الراهبات.
- إذا كانت ثمةَ مهمة صعبة أو مذلَّة، فإليّ يُعهد فيها دوماً.
- لا تُسمع أبداً كلمتي عندما أبدي ملاحظة، ويُسمع دوماً للأخريات جميعاً.
- لستُ مرضيَّة في عيون الغير، ومع ذلك ماذا فعلت؟

- عليّ تقع دوماً الملاحظات والملامات.
- هذه مرة عاشرة أطلب فيها شيئاً ضرورياً. وليس من متسع وقت يتيح أن يُلبى طلبي. ومع ذلك تُلبى طلبات الغير.
- الطعام كريه، لا يُعتنى بنا أدنى عناية.
- الرؤساء كالآخرين، لهم أحباؤهم ... أما الراهبات المسكينات غير المحبوبات! ...

6
روح التحزب

هو شرُّ الأرواح الشرير. لا يبدو ريحاً مدة الابتداء، لكنه يكبر رويداً في إحدى ثنايا القلب، وبعد أن يلده الحرَد ويغذيه التذمر. فإذا لم يُعمل على إزالته منذ ظهوره فيا لسوء مصير الجمهور الذي يظهر فيه.

إن روح التحزب هذا، وليد الكبرياء التي تروم التفوّق على الآخرين في المعرفة، وابن اللذة الحسية التي تريد أن تنْزعج، تغذيّه وتقويه الصداقات الخاصة. وهدفه أن يكون بتؤدةٍ وعلى مهل حزباً، ثم يُبيد ما هو كائن. لا ريب أن ذلك أمر شنيع!

هذا ولا نتجاوز ما قلناه إلى ما هو أشنع، خشية أن نشكك المبتدئات الساذجات. إنما نستحلفكنّ بدعوتكنّ التي كلّفت الله كثيراً من المعجزات ولعلها كلفتكنّ تضحيات كثيرة، أن تدعنَ من له سلطان عليكنّ يقودكنّ ببساطة وسذاجة. إقبلنّ التوبيخ والملامة والتذليل وتمزيق القلب. دعنَ، مهما كلف الأمر، غيركنّ ينتزع من نفسكنّ كل جرثومة شريرة!

عليكن تُبنى آمال الرهبانية. فلو كنتنّ مزمعاتً أن تصرنَ ليباً للرهبانية التي قبلتكنّ في حضنها بحب جزيل! لو كنتنّ مزمعاتٍ أن تمزقنَ يوماً قلب أُمكنَّ وتصرن سبب عثرة لأخواتكنّ، وتصبحن أدواتٍ بين يدي إبليس لعمل الشر! ... لو كان ذلك هو مصيركنّ، لما قلت لكنّ: إرجعنّ إلى العالم؛ بل بالحري أطلبنّ إلى الله أن تُمتن إبَّان الابتداء، وهو لن يرفض لكنّ هذه النعمة الآن وأنتنّ تحببنَهُ حباً جزيلاً.

أجل، يا أختي، أجل، اذهبي إلى السماء، فذلك خير لكِ!

الفصل الخامس

في الفضائل الواجب اكتسابها وممارستها في الابتداء

إن الفضائل الخاصة بالابتداء، تلك التي يجب على المبتدئات أن يعنينَ خصوصاً بإحرازها، هي الطاعة، والمحبة الاخوية، والتواضع، والاماتة، والبساطة.

هي ثمرة أو تحقيق الروح السائد في الابتداء، والذي يتغلغل وحده في النفس التي بذلت ذاتها بإخلاص لله.

من هذه الفضائل ندلّ خصوصاً على الوجهة العملية، وفي قصدنا أن نعود إلى بعض منها في كتاب الناذرات.

إن هذه الوجهة العملية في الفضيلة هي من شؤون الابتداء الخاصة. فإن المبتدئة التي تعودت ممارسة أفعال التواضع والتجرد سوف تتمسك بهذه الفضائل بحب أعظم متى درست فيما بعد طبيعتها وأهميتها ودرجاتها المختلفة. يكفيها الآن أن تعرف أن الله يريد أن تقوم بهذه الأفعال، وإنها اذا مارستها بنية خالصة، سوف تتقدس بها[4].

1

فضيلة الطاعة

إن الطاعة، التي تقوم بإخضاع الإرادة لإرادة الغير، هي، بحسب تعليم كل القديسين والمعلّمين، الفضيلة الخاصة بالحياة الرهبانية. قالت القديسة تريزيا: "من لا يطيع ليس براهب". الطاعة تُعِدّ النفس لإحراز سائر الفضائل: هي التي تبيد شيئاً فشيئاً جراثيم الأميال الشريرة، وهي التي تزيل نتوءات الطباع المتنافرة، وهي التي تصقل ما هو

---

[4] تستطيع معلمة الابتداء أن تعيّن لكل أسبوع أو أسبوعين، ممارسة إحدى الفضائل التي يدور كلامنا عليها، فتكون هذه الفضيلة فضيلة المبتدئات الخاصة في أثناء تلك المدّة، أي الفضيلة التي تعنى كل مبتدئة أن تمارس منها بعض الافعال.

يمكن وضع اسم تلك الفضيلة علناً في غرفة اجتماعات المبتدئات.

وفي يوم معيّن، تجتمع المبتدئات، فتؤدي كل منهنّ بياناً عمّا مارسته من أفعال هذه الفضيلة، سواء اكتفت بما نبسطه هنا أم أقبلت على أفعال ألهمها الله ممارستها.

وتبدّل الفضيلة كل خمسة عشر يوماً.وبعد الفضائل الخمس المذكورة يُعاد دورها هي عينها.

يلوح لنا أن في ما ذكرناه وسيلةً لتشجيع المنافسة وإنشاء وحدة روحية بين المبتدئات. ولا تمنع هذه الفضيلة الشاملة للمبتدئات كلهن أن تجتهد كل مبتدئة بمفردها لإحراز فضيلة خاصة عيّنتها لها المعلمة أو معرّفها.

خشن، وتليّن ما هو قاسٍ في النفس، وتفعل في أعضاء جمهور رهباني فعل النار التي تليّن أصلب المعادن، فتذبيبها وتُتيح إلقاؤها في قالب تخرج منه بهيئة جديدة.

فإذا مارستِ هذه الفضيلة بثبات مدة الابتداء صرتِ فيما بعد راهبة حارّة وقديسة وسعيدة[5].

تبدو الطاعة صعبة وقاسية لأول وهلة. وتُلزم في الأوقات الأولى بتجردات تمزق القلب والعقل والارادة. ولكن متى بذلت النفس ذاتها للطاعة بذلاً تاماً، نشرَت هي في حياة هذه النفس إرتياحاً عظيماً وسلاماً عذباً، حتى أن النفس لا تعود تستغني عن إرادة تأمر إرادتها.

كانت إحدى الراهبات قد تذوّقت كل السعادة المعلَّقة بفضيلة الطاعة، فتقول: "أطِعنَ، وبطاعتكن ينضب فيكنَّ مَعين كل خطيئة. إن النفس المطيعة تصير من بعض الوجوه معصومة عن الخطأ. أطِعنَ، وبطاعتكنّ تملأنَ ساعاتكن كلّها استحقاقاً وثواباً، فيصير كل فعل وكل تنقّل وكل خطوة درّة سنيَّة في إكليلكنّ. أطِعنَ، وبطاعتكنَّ تصرنَ دوماً منشرحات، ليقينكنَّ الدائم أنكنَّ تُتممنَ مشيئة الله".

البواعث على الطاعة وأسبابها:

1. جودة هذه الفضيلة وسموّها. هي تفوق كل الذبائح والتضحيات الممكن تقديمها لله. لأن إرادتنا التي نخضعها لهُ بالطاعة تفوق عظمةً وكمالاً ضحايا الدنيا بأسرها. لذلك، لما احتفظ شاول بعشرة حيوانات يقدمها ذبيحة لله، خلافاً لوصية الله الصريحة، جاءه صموئيل يقول لهُ إن العصيان نوع من عبادة الوثن، وإن الطاعة أفضل من هذه الذبائح كلها.

2. ثواب هذه الفضيلة. إن الطاعة تولي أعمالنا كلها قدراً سامياً، حتى أن اصغر الممارسات القانونية، كصوم نقوم به بروح الطاعة، (ولا سيما بعد نذر بأن نصوم)، يكون له ثواب أعظم بكثير من ثواب أصعب التقشفات الممارسة

[5] أتذكرين أنكِ لما كنتِ صغيرة بعد وكنتِ تُعلمَّين الكتابة، كان يُقال لكِ: دعي غيركِ يقود يدكِ، ولا تتبعي حركة أخرى غير التي تُعطى ليدكِ لتعوَّد على تصوير الحروف كما ينبغي. فلو لم تتبعي هذه الطريقة لما كنتِ تعرفين إلا أن "تخربشي" على الورق.
هكذا إذا إردتِ أن تصيري راهبة صالحة. لن يُقال لكِ: لا تحركي يدكِ ودَعيها تجري على هوى يد المعلمة. لا، وحاشا، وكلا. بل يقال لكِ: أميتي إرادتكِ، ولا تكن لكِ مشيئة رئيستكِ، وإلا كانت فضيلتكِ نوعاً من "الخربشة" الروحية.

بمعزل عن الطاعة. إن النفس الرهبانية تستطيع أن تقول دوماً لذاتها، وهي تعمل بروح الطاعة، إنها وإن اشتغلت شغلاً يسيراً جدّاً فثوابها دائماً جزيل.

3. الضمانة الناجمة عن هذه الفضيلة. إن المرؤوس المطيع في الأشياء التي لا تخالف وصايا الله يُضمن لهُ أنه لا يغلط أبداً أمام الله، وأنه يفعل ما هو مرضيٌّ جدّاً لدى هذا السيد الأسمى، وإن كان الرئيس الذي يأمره مخطئاً في أمره. فإن الطاعة عذر دائم القبول أمام الله، وإذا لام الله نفساً على كونها لم توفِ الوفاء الكافي بتوبتها وتقشفاتها، فإذا أمكن هذه النفس أن تقول لهُ أنه لم يُسمح لها بأكثر ممَّا فعلَت، فالله يكتفي بهذا العذر.

4. مثل سيدنا يسوع المسيح: إن حياة المخلص كلها فعل طاعة متواصلة. كان يقول: طعامي أن أعمل مشيئة أبي. فأطاع أمه، وأطاع جلّاديهأ وصار يطيع حتى الموت موت الصليب. عاش في الطاعة، ومات فيها، مؤثراً، على حدّ ما قال القديس برنردس، أن يفقد الحياة ولا يفقد الطاعة.

ممارسات الطاعة

تعوّدي أن تري الله في معلمتكِ، وأن تقبلي أوامرها كأنها آتية من الله. إن الله لن يكلمكِ رأساً، ولن يقول لكِ في كل صباح: إفعلي كذا ثم كذا؛ لكنه يقول لكِ بواسطة الشخص الذي إختاره شرعياً لقيادتكِ. فإذا كنتِ على هذا اليقين، وأنتِ عليه إذ أنكِ لم تأتِ إلى الابتداء إلاّ لتتمي مشيئة الله إتماماً أكثر صراحة مما في العالم، وأنتِ تعلمين جيداً أن هذه المشيئة لا تظهر لكِ إلاّ بواسطة رؤسائكِ، إذا كنتِ على هذا اليقين، فلا يعود يصعب عليكِ شيء.

أتركي لمعلمتكِ حرية تامة ومطلقة أن تعيّن لكِ الوظيفة الفلانية أو تنزعها منكِ، والمحل الفلاني أو تنقلكِ منه، وأن تأمركِ بالعمل الفلاني ولا تدعكِ تنهينَهُ، بحيث تستطعين أن تقولي لدى كل استدعاء: ها أنا ذي، ماذا تريدين أن أفعل.

لا تنظري أبداً في البواعث التي حملت معلمتكِ على إصدار أمرها، ولا في ملائمة ذلك الأمر، ولا في نوعه وطبيعته. بل فليكن شعارك: يُرادُ مني هذا فأنا فاعلتُه؛ لا يُراد مني هذا بعد، فأنا تاركته؛ أُرسلتُ إلى كذا، فأنا ذاهبة. ذلك ما يجب أن يكون حديثكِ.

لا تبحثي أبداً في داخلكِ عن سبب أمرٍ أو نصيحة أو ملامة توّجه إليكِ. فإذا كانت معلمتكِ هي المخطئة، فهي المسؤولة عن خطئها أمام الله، لا أنتِ. وإذا كنتِ لا ترين الهدف الذي تقصده، فماذا يهمّكِ؟ ليس لكِ سوى أن تقبلي ما عرضته وأن تبادري إلى العمل.

اخضعي بسرعة، بلا تأجيل، بلا تأخر، وأتركي ما تفعلينه لتعملي ما تؤمرين به. وكوني مستعدة لتجيبي في كل وقت: ها أنا ذي.

اخضعي خضوعاً تاماً، في ما يسوءكِ كما في ما يسرّك؛ في ما يزعجكِ كما في ما يلذّ لكِ؛ في الراحة كما في الشغل، في الكلام كما في لزوم الصمت، في أخذ الشيء من التسلية كما في حرمان ذاتكِ من أي شيء.

اخضعي بفرح. ولعمري، إذا كنتِ تفكرين أنكِ تطيعين الله، كيف لا تكونين فرحة؟ إلهي، إلهي، يا لسعادة من يكون أكيداً لديها، في كل حين، أنها تفعل ما تشاء أنتَ، وأنها ترضيك وتمجدك! يا لسعادتها!

لا تفعلي شيئاً بلا استئذان، حتى أبسط الأشياء الاعتيادية، ما لم تعيّنها بوضوح واجبات وظيفتك. إنكِ بذلك تبرهنين على رقة ضميركِ وعلى رغبتكِ في إرضاء الله. لا تستأذني بأقوال مبهمة ذات معنيَين، كما لو كنتِ تخافين أن تُفهم أفكاركِ جيداً. لا تعيدي الكرّة في الاستئذان بإلحافٍ وإلحاح بحيث تقتنصين قنصاً الإذن الذي لا تروم السلطة أن تمنحه. بوجه عام، لا تحتاج الراهبة الفاضلة إلى كثير من الاستئذان، باستثناء ما تفرض الفرائض نفسها طلبه.

أتمي ما تؤمَرين به بدقة، من غير قلق ولا وسواس، بتلك الروح الودية التي تطلب أن ترضي الله. لا تتوسعي في ما نلتِه من الإذن والسماح أكثر ممّا يقتضيه الإذن الممنوح، لا من حيث الوقت، ولا من حيث الأمكنة، ولا من حيث الظروف. وكل مرة تستأذنين في شيء استعدي لقبول ما يُرفض لكِ بسكينة وسلام.

سوف نتكلم في كتاب الناذرات عن الحجج الواهية التي يلقنها الشيطان للراهبات ليمنعهنّ عن الطاعة، أو على الأقل ليحرمهنّ ثوابها. فإنه خزاه الله، قلّما يتعرض للمبتدئات بمثل هذه الاعذار، بل يهابهنَّ، ولا سيما إذا كنّ محافظاتٍ على بساطتهنّ منذ دخولهن في الابتداء، وإذا كنّ يغذّين في ذواتهنّ العواطف الودّية التي تربهنّ أمّا في معلمتهنَّ، وأخواتٍ في رفيقاتهنَّ.

بعض اعتبارات بشأن الطاعة

لو كان يسوع المسيح يظهر لي بطريقة محسوسة ويكلمني، أما كنتُ لأول صوتٍ أسمعه منهُ أترك كل ما يشغلني الآن، مهما بدا لي مفيداً أو يقتضي السرعة. أما كنتُ أترك المقطع الذي أخطه بل الحرف الذي أرسمه ناقلاً لأطير حيث يدعوني؟ هل كنتُ أنتظر أن يكلمني براحة؟ ومتى تمكنتُ أن أقرأ في عينيه أو في إشاراته ما ينوي طلبه مني، هل كنتُ أستزيده ايضاحاً وتفسير؟

لو كان يسوع المسيح يظهر ذاته بطريقة محسوسة، هل كنت أميز في أوامره بين شؤون كبيرة وشؤون صغيرة؟ هل كنتُ أجسر أن أقول: هذا صعب يكلفني عناءً كبيراً؟ هل كنتُ ألفت نظره إلى صحتي؟ فإن النفس الرهبانية، كل مرة تخالف عمداً إحدى مواد قوانينها تقدر أن تقول لذاتها بحقّ: إني الآن فاعلة ما لا يريد الله أن أفعله. هل كنتُ أجسر أن أفكر في صميم قلبي حيث يسوع يقرأ كما في كتاب مفتوح: إنه يقضي مني ما يفوق الطاقة، ولا يأمر غيري بأشياء صعبة كهذه؟

لو كان يسوع يظهر ذاته بطريقة محسومة، هل كنت أُتعبه الى أن يمنحني ما أشتهيه أو يضعني في المحل الموافق زهوي وذوقي، أو يعطيني ما يتطلبه حبي للذة أكثر من الضرورة؟ هل كنت أسعى لإمالته إليّ بكثرة المبادرات والالطاف التي هي من وحي الرثاء أكثر مما هي من وحي عاطفة الاحترام والخضوع؟

لو كان يسوع يظهر بطريقة محسوسة، هل كنتُ أحاجُّهُ أو أتذمر من أوامره عندما لا أرى صوابيتها بوضوح؟ هل كنتُ أستعب الاعتقاد بأن لهُ أسباباً أفضل من براهيني وإن كنتُ لا أُدركُها؟ أما كنتُ أفكر أن كل ما يأمر به مقدّس وصالح ومفيد، وإني ملتزم دوماً أن أطيعه في كل شيء؟ أما كنتُ أسعدُ بخضوعي لأوامره وباختياره لي لأحقق مشيئاته وأنفّذها؟

والآن، ألا أعلم من قوانين أن يسوع المسيح هو الذي يأمرني عندما تصدر الأوامر من رؤسائي؛ وأني أطيع يسوع المسيح في طاعتي لرؤسائي؟ إن ادراك هذه الفكرة على ما ينبغي من شأنه أن يقطع السبيل لكل تذمر وكل استكراه وكل جبانة. فيا الهي، أعنّي على فهمِها ومحبتها والانقياد لها.

2

فضيلة المحبة الاخوية

"يا أولادي الصغار، أحبّوا بعضكم بعضاً". هذه هي الأقوال المؤثرة للقديس يوحنا الرسول، نروم أن تردّدها المعلمة كل صباح لمبتدئاتها المجتمعات للرياضة الأولى من الرياضات اليومية: يا أخواتي الصغيرات، أحببنّ بعضكنَّ بعضاً حبّاً جزيلاً؛ لنحبَّ بعضنا بعضاً. واذا خطر للمبتدئات أن يسألنَ معلمتهنَّ: لماذا تردّدين علينا دوماً الكلام نفسهُ، فبوسعها أن تجيبهنَّ، على مثال الرسول: "يا أخواتي، أحببنَ بعضكنّ بعضاً، فيصير الابتداء صورة للسماء".

أجل يكون صورةً للسماء الابتداء حيث كل الراهبات يحببن بعضهنَّ بعضاً حبّاً متبادلاً. ومعنى هذا الحب المتبادل الاحتمال المتبادَل، والتعاون المتبادَل، والتقدير المتبادَل، والعمل على إسعاد بعضنا البعض، والإعتناء بعضنا ببعض، وإرضاء بعضنا بعضاً، وإكمال بعضنا بعضاً، وإسناد بعضنا بعضاً، وقيادة بعضنا بعضاً إلى السماء. لله ما اجمل هذه المحبة!

ذلك كمالٌ في المحبة لن نبلغه أبداً، وإنما يجب أن نسعى إليه بكل قوانا. يجب أن تكون المحبة الفضيلة المختارة الممتازة في الجماعات الرهبانية. فهي الفضيلة الخاصة بقلب يسوع المسيح. هي بمثابة النفس لكل جماعة تتألف باسم يسوع. هي ثروة الجماعة الرهبانية ومجدها وشرفها. هي متعتُها، وهي التي تزيل عنها الكآبة. هي التي توثّق عرى الاتحاد بين أعضائها، وهي التي تعدّ لهمُ ميتةً عذبة، باسمة، سلامية، وتضمن لهم أبدية كلها سلام ومحبة.

البواعث على المحبة الاخوية

1. لزوم هذه الفضيلة من باب الواجب. هي موضوع وصية صريحة ليسوع المسيح: بهذا أوصيكم أن يحبَّ بعضكم بعضاً. لا ريب أن سائر الوصايا هي أيضاً من الرب، بيد أن وصية محبة القريب هي منهُ على وجه خاص. هي وصيتي، يقول يسوع، ويهمُّني بالأكثر أن تكون محفوظة مرعيَّة.

هي العلامة الفارقة لتلاميذ يسوع المسيح الحقيقيين. قال يسوع المسيح: تُعرفون أنكم تلاميذي لا إذا انصرفتم إلى ممارسة التقشف والإماتة أو إلى مزاولة الصلاة العقلية، بل إذا كنتم تحبون بعضكم بعضاً. فينتج من ثمَّ أن الذي ليست له هذه المحبة لن يعرفه أو يعترف به يسوع المسيح.

كما أن الخلاص غير ممكن لمن لا يحب الله، كذلك الخلاص غير ممكن لمن لا يحب قريبه. فالوصيتان وصية واحدة، وفقاً لما قال يسوع المسيح نفسه.

2. ثواب هذه الفضيلة واستحقاقها. قال القديس يوحنا: إن المحبة وصية الرب. فإن أحببتُم بعضكم بعضاً كان ذلك كافياً لخلاصكم. ما أعظم ما تفيضه هذه الأقوال من العزاء.

المحبة تستمدّ لنا غفران خطايانا، وتستر جمّاً من الخطايا، كما قال يعقوب الرسول. إن الله قد وعدنا وعداً صريحاً بأن يفعل في سبيلنا كل ما نفعله في سبيل الآخرين. فإذا أحببنا قريبنا أحبّنا الله، واذا غفرنا لهُ غفر لنا الله أيضاً، فمن ذا الذي لا تؤثّر فيه أمثال هذه الضمانات؟

3. مثل يسوع المسيح. إنه، حبّاً لنا، نزل على الارض، وتألم، ومات. حياة يسوع المسيح كلها ليست سوى سلسلة من أفعال المحبة. لقد جدّ في طلب المسكين والأثيم، وبادره، ودافع عنهُ، واحتمله، وغفر لهُ، وقد كانت إحدى كلماته الأخيرة كلمة الحبّ والغفران.

ممارسات المحبة الاخوية

ليكن لكِ لجميع أخواتك، كثير من التقدير والإجلال. فهنّ نظيراتكِ نفوس ممتازة قد اختارها الله بين أخريات كثيرات. هنّ حبيبات يسوع المسيح، وإن يكن لهنّ عيوب. وهنَّ مدعوَّات على مثالكِ ليرنَ قديسات في السماء. أذكري إذن أن يسوع المسيح يقول لكِ بشأن كل واحدة منهنَّ: سأحبكِ كما تحبينها، وأسلك معكِ كما تسلكين معها، وأدينكِ كما تدينينها.

ادني دوماً من أخواتكِ بوجه صريح، بسيط، مفتوح، عطوف، يتيح لهنَّ أن يأتينَ إليكِ بلا وجل ولا تردّد، ويبيّن لهنَّ أنكِ تقربينهنَّ من غير نية خفيَّة.

اجتنبي أن تعذّبي إحداهنّ في أي شيء كان. وإذا كنتِ، أنتِ وإحدى رفيقاتكِ، تتقاسمان الوظيفة فاتركي لها النصيب الأسهل، والله يعوّضك.

تحمَّلي أخواتكِ جميعاً، إن لم يكن بابتسامة العطف الصعبة الإظهار أحياناً، فعلى الأقل بالصبر عينه الذي يحتملكِ به الله. واذكري بتواتر أنكِ أنتِ أيضاً بحاجة إلى أن تتحملكِ أخواتك، كما يقول بجرأة صاحب الاقتداء بالمسيح.

إن لم يكن لكِ شجاعة وفضيلة كافية لتطلبي اللواتي لا يَملنَ اليكِ، فلا تتكلفي الظهور بمظهر من يتجنبهنَّ. متى وضعتكِ العناية الالهية بقربهنّ، فأظهري ذاتكِ لطيفة، متساهلة، بشوشة. ما أعظم ما تسرّين قلب يسوع إن لم ترفضي نفساً يحبها.

لا ترفضي لأخواتك خدمةً واحدة بوسعك أن تقدّميها. بهذا خصوصاً تبدو المحبة الأخوية: تبادل المساعدة، وتخفيف وطأة الشغل عمّن تكون مُرهقة، والقيام، في صمت وبلا مباهاة، بمهمة لم تستطع رفيقة أن تذهب فيها حتى النهاية... ما أعظم ما تكون مسرة الله في جماعة تمارس بين أعضائها فضيلة الاحتمال والتعاون المتبادَل.

عزّي أخواتكِ في مللهنّ وأحزانهنَّ. ومتى رأيتهنَّ قلقات، إسعي لتزدادي مبادرةً ولطفاً نحوهنّ. وفضيلة الرقة في الشعور تقودك في مثل هذه الأحوال وتعلمكِ أن لا تسعي لتنقذي فجأةً من حالة الكآبة الرفيقة المسكينة التي تفاجئينها وهي تبكي. إن البكاء مع الباكين لمن آمن الوسائل لتخفيف وطأة العذاب.

لا تحقدي أبداً على إحدى رفيقاتك، وخذي لنفسكِ هذه الوصية الإنجيلية بحروفها: لا تغرب الشمس على غضبكم، وهذه الأقوال الصريحة التي فاه بها يسوع المسيح: إذا أتيتَ أمام المذبح تقدم قربانك وذكرتَ هناك أن لأخيك عليكَ شيئاً، فدع قربانك واذهب أولاً وصالح أخاك، ثم عُد إلى المذبح وقدّم قربانك.

كوني الأولى في الإقرار بذنوبكِ والاعتذار عنها، وإن خشيتِ أن تُقبلي ببرودة. فإذا بدا لكِ أنكِ لستِ بملتزمة أن تكلمي الأخت المستاءة منكِ، فابحثي عن ظرف ملائم لتقدّمي لها خدمة من غير أن تلاحظ ذلك هي، وصلّي كثيراً لأجلها، وألزمي ذاتكِ أن تتكلمي عنها بما هو لمنفعتها.

أفرضي على نفسكِ أن تعذري الجميع، وأن تجعلي صفات الغير بارزة للعيان. وأعيدي الوفاق والوئام، بوسائل عديدة يلهمكِ إياها ملاككِ الصالح، بين اللواتي تلاحظين أنهنّ على غير هذا الوفاق والوئام.

لتكن رسالةً عذبةً على قلبكِ أن تبثي في كل مكان فرحاً غير صخّاب، بل بسيطاً، حرّاً صريحاً، لطيفاً محبوباً. اشتركي في النزهات وإن تكن مخالفة لسنكِ وامياللكِ. ضعي في أخواتك النشاط والمرح متى لحظتِ فيهنّ ميلاً إلى الحرَد أو التذمر. ضعي الابتسام على الثغور لتنشرح القلوب. فيكون عظيماً ما تصنعينه من الخير، ويكون الله شاكراً لكِ أنكِ قد فرّجت همّ أولاده.

في كل صباح افرضي على نفسكِ صدقةً صغيرة تتصدّقين بها أثناء النهار: فإما كلمة تعزية، وإما نصيحة، وإما ابتسامة، وإما صلاة، وإما أداء خدمة، وهلمَّ جرّاً...

3

فضيلة التواضع

قال القديس توما: ليست فضيلة التواضع أولى الفضائل من حيث الجودة، لكنَّ لها المقام الأول من حيث هي أساس لسائر الفضائل. فالنفس الوضيعة لا تشعر بأي عناء في الطاعة أو التفاني وبذل الذات. هي تشعر بأنها ليس لها حقّ على أي شيء كان، وأن للجميع فضلاً عليها؛ فقد مُنحت هبةً يوم قُبلت في الجماعة الرهبانية، وتوهب منحةً أُخرى باحتمال الجميع لها. وهي سعيدة بأن تبدي شكرها بشغلها وبسعيها لتسرّ الغير.

هذه النفس الوضيعة مسرورة وراضية عن كل شيء: عن أخشن الثياب، وعن أحطّ الوظائف، وعن أقلّ الأطعمة لذةً، وعن نسيان الغير لها؛ ولا يخطر أبداً ببالها أنها تُنال بضرر أو أن الغير يريد مضرّتها. بمثل هذه الافكار توفّر المبتدئة على ذاتها كثيراً من الأحزان الصغيرة والمتاعب التي تعذّب في الأديرة وتلقي في اليأس وتنتهي في آخر الأمر بجعل الحياة مرّةً لا تُطاق.

التواضع إحدى الفضائل الأصعب إقتناءً. يناله الإنسان بتأملات متواترة في حياة يسوع المسيح الخفيَّة، المنسيَّة، المجهولة، وفي صمت هذا المعلّم الصالح أمام الإهانة، وفي ذكر زلاتنا الشخصية التي لو عُرفت لجلَبت لنا العار والازدراء، وفي هذه الفكرة أننا لسنا سوى مستودَعين ما لنا من المواهب والخبرة العملية، فإذا نسبنا إلى ذواتنا بعض المجد منها سرقناه من عند الله الذي يعرف كيف يسترجعه منَّا... ويُنال التواضع خصوصاً بتكرار الافعال التي نتكلم عليها الآن، لأنها اذا كُرّرت تحت نظر الله جلبت حتماً النعمة إلى نفوسنا.

البواعث على التواضع

1. سموّ هذه الفضيلة. هو حارس سائر الفضائل، يحرسها ويخبأها ويمنع سرقتها. قال القديس غريغوريوس: إن من يجمع الفضائل بدون تواضع يشبه من يَدع مسحوقاً ثميناً عرضةً للهواء. وقال قديس آخر: من لا يتواضع لا يستطيع أن يكون عفيفاً.

إن الكبرياء هي، بحسب تعليم الكتاب المقدس، أصل الخطايا كلها، لأن كل خطيئة تصدر عن تمرّد الخاطئ الذي يروم أن يعمل مشيئته بدل مشيئة الله؛ وبعكس ذلك يكون التواضع مصدر كل الفضائل، لأنه يُخضع النفس لله لتعمل بمشيئته في كل شيء.

2. ثوابها واستحقاقها. التواضع يسكّن غضب الله، كما نرى ذلك في صفحات عديدة من العهدين العتيق والجديد. فداود ومنسَّى وآحاب لم يُعاقبوا لأنهم تواضعوا، والعشَّار تبرر لأنه إتّضع.

التواضع يجتذب عطف الله الذي يجعل مسرّته مع الصغار والمتواضعين، ويقاوم المتكبّرين، ويعطي نعمته للذين يضعون أنفسهم أمامه.

التواضع يجعلنا محبوبين لدى الجميع، لأن هذه الفضيلة تحملنا على أن لا نعاكس أحداً، وأن نذعن للجميع، وأن نخدم الجميع.

3. مثال يسوع المسيح. إنه يوصينا وصية صريحة بهذه الفضيلة التي هي من جملة الفضائل الجاعلة إيانا مشابهين لهُ. فقد قال: تعلَّموا مني، لا صنع العجائب، بل أن تكونوا وضعاء وودعاء القلوب. وكم من الأمثلة أعطانا في التواضع: فقد أخفى، وهو صغير، كل ما يدل على ألوهته، ورضيَ أن يُعدَّ كمجرم، وأن ينحني أمام يهوذا ويغسل له رجليه، ومات بين لصين.

بعض ممارسات التواضع

لا تفكري كثيراً بصفاتك الحسنة، ومواهبك، ومهارتك العملية.

لا تتلَّهي بذكريات ما كنتِ تفعلينه في العالم، وما حُوّطتِ به من التقدير، ما وُجّه إليكِ من الثناء والمديح.

لا تدافعي عن رأيكِ بعناد وتشامخ، ولا تتخلّي عنه بعين الإزدراء والاحتقار، كأنكِ تقولين لمن يعاكسكِ: أترك لكِ الفوز، لأن الجدال لا يكون مع الأغبياء.

لا تسعي لتعرفي كل شيء، أو لتكوني أول من أخبر الجمهور خبراً جديداً.

ليكن كلامكِ عن نفسكِ على أوسع ما يمكن من الاقتضاب؛ ولا تتكلمي البتة عن أسرتكِ وبلادكِ وحالتكِ في العالم، وعمَّا كان بوسعكِ أن تكوني، وعن الأشخاص الذين كنت تعاشرينهم، وعن الذين يأتون لزيارتكِ.

لا تحتفظي، قُبيل الفحص المليّ، بأفكار التذمر التي تنشأ دوماً عن امتعاض الكبرياء، وقولي في نفسكِ: إن الله قد سمح بأن أُنسى وأُجرَح وأُذلَّل، فنِعمَّا فعَل.

ردّدي أحياناً أمام القربان المقدس أقوال كتاب الاقتداء بالمسيح هذه، كما لو كان يسوع المسيح يوّجهها إليكِ: أتريد أن تعرف شيئاً يفيدك حقاً؟ أحبب أن تكون مجهولاً ومعدوداً كلا شيء. إتلي طلبة التواضع التي تجدينها في الفصل التالي "حِكَم الابتداء".

لا تطمعي في أي وظيفة أو عمل. أجيبي ببساطة عن الأسئلة التي يطرحها عليكِ رؤساؤكِ بشأن مؤهلاتكِ والأشغال التي إنصرفتِ إليها في العالم... وكوني بعد ذلك في سلام.

لا تعتذري بكثير من الحدة والحماسة، وإن ظننتِ أنكِ على حق، وابذلي جهدك كله لتنسي الشخص الذي جرحكِ وموضوع امتعاظكِ منه.

أزيلي من هيئتكِ الخارجية كل ما يدلّ على ترفع وإدّعاء، وكل حركة تبدو على شيء من الزهو، وكل مشية تُشتمُّ منها رائحة الأنفة والروح العالمية؛ ومن حديثكِ كل كلمة يظهر منها التأمُّر أو النشوفة أو قلّة العطف؛ ومن نبرة صوتكِ كل عُنف وصلف.

ألزمي ذاتكِ أحياناً بأن لا تتطلبي، مدة بضعة أيام وبروح التواضع، ما ليس هو ضرورياً لكِ وقد أُهمل تقديمه لكِ.

استأذني دوماً بالعبارة والوضع والمطلوبَين من القانون والعوائد المرعيّة. ففي بعض الأديرة تستأذن المبتدئة كل مرة وهي جاثية.

إذا كان ثوبكِ ينق عن سائر الثياب أناقةً ويزيدها خشونة وإذا كان تفصيله غير ناجح ... فلا تشتكي واستعمليه من غير أن يبدو عليكِ أنكِ ملاحظة ذلك. واسلكي على هذا النحو في كل ما هو تحت تصرفكِ: ككتاب عتيق، أو مسبحة متقطعة، أو سرير وفراش غير مريحين... وهلمَّ جرًّا.

أطلبي، لا تكلف، أن تزاولي الوظائف التي تستكرهها الطبيعة عادةً وهي من نصيب الخدم في البيوت. وإقبلي دوماً بطيب الخاطر الخدم التي تُعرض عليكِ، كالكناسة وغسل أواني الطعام وهلمَّ جرًّا.

احسبي ذاتكِ، أمام الله، كخادمة الغير، واسلكي حيناً بعد آخر، من غير أن يُلاحظ أحد، نحو الجميع، كما لو كنتِ في الواقع خادمة الجميع.

إذا حباكِ الله بعض المواهب الخا ة، كالدقة في الأشغال اليدوية، أو وت ليّن ومنسجم، أو حسن الذوق في التزيين، فلا تُفرطي في تبيان ذلك، ولا تحملي الغير على الإلحاح في طلب خدمة، بحجة أنكِ لا تعرفين وليس لكِ المهارة الكافية... بل بادري إلى أداء خدمة أو إرضاء الآخرين.

لا تُكثري الكلام عن أوهانك الروحية وقلّة حبك لله. ولا تتكلفي احتقار نفسكِ في كل شيء، كأن تقولي: أنا أ غر الجميع وأقل الأخوات مقدرة... يمكنكِ أن تفكري في ذلك لا أن تقوليه. ففي إذاعته غالباً ما يكون النصيب للحب الذاتي أوفر ممّا للتواضع.

4

فضيلة الإماتة

من الضروري، عندما تغادرين العالم إلى الدير، أن تحذفي من قلبكِ وعقلكِ وحواسكِ أشياء كثيرة كان ينميها ويغذيها العالم الذي عشتِ فيه. فقد لا تكون هذه الأشياء كلها سيئة في حد ذاتها، لكنها لا تتفق مع العيشة الرهبانية. وقد لخّصتها القديسة حنة دي شنتال كما يلي: "من المهم غاية الأهمية أن لا تُقبل في العيشة الرهبانية فتيات ينتبهن بإرتياح لوجوههنّ، أو يُحببن أجسادهن بإفراط، وكذلك عقولهنّ".

لكل مناخٍ ثماره الخاصة. فمناخ العيشة الرهبانية لا يحتمل منتجات الحياة العالمية. وحذف هذه المنتجات العالمية هو ما نسميه إماتة. فكما أن الأغصان المفصولة عن الجذع الذي ينقل إليها الحياة تموت، كذلك الأفكار والأشواق والعواطف والأعمال المفصولة عن الإرادة تموت أيضاً.

يجب أن تُكتب على عتبة كل دير للابتداء هذه الأقوال السيدية: من أراد أن يتبعني فليكفر بنفسه. وفي غرفة اجتماعات المبتدئات يجب أن تكتب هذه الأقوال من كتاب الاقتداء بالمسيح: بقدر ما تغصب ذاتك تنجح في الفضيلة.

فماذا يجب حذفه إذن؟ إنكِ لا تلبثين أن تعرفيه إذا إنتبهتِ ولو قليلاً لدروس معلمتكِ، ولقراءة قوانينك، وللنظر إلى رفيقاتكِ القديمات العهد، وخصوصاً للطاعة والانقياد لصوت ضميركِ[6].

البواعث على الإماتة

1. ضرورة هذه الفضيلة. لقد قال يسوع المسيح: من أراد أن يتبعني فليكفر بنفسه ويحمل صليبه كل يوم ويتبعني. والخلاص لا يمكن أن يتم إلا بقدر ما نسير في إثر يسوع المسيح. ومن ثم، فالكفر بالذات، أي الإماتة، ضرورية للخلاص.

يعلن المجمع التريدنتيني "إن المعمَّدين لا تزال فيهم بؤرة الأهواء والشهوات التي يجب عليهم أن يجاهدوا لمقاومتها بلا إنقطاع. فهي لهم مصدر نِعَم إذا قاوموها بشجاعة بنعمة يسوع المسيح، إذ لا ينال الإكليل إلا من يجاهد". فإذا أردنا أن نكلَّل يوماً لا بد لنا أن نحارب بؤرة الشهوات هذه، ونجاهد ضد عدوّنا الداخلي ولا نستسلم له أبداً. تلك هذه الإماتة والكفر بالذات اللذان فرضهما يسوع المسيح. قال القديس توما: إن الجسد مصدر العيوب والرذائل، فإذا أردنا تجنب الرذائل وجب علينا أن نقمع الجسد.

[6]لا نريد أن نتكلم عن الإماتات الجسدية، كالأصوام واستعمال المجلدة والمسح وما إليهما... فالراهبة لا تستطيع أن تبيح لنفسها شيئاً من ذلك من غير أن تستأذن معرّفها أولاً ثم رئيستها، ما لم تفرض هذه الأفعال قوانين الرهبانية.

2. ثواب هذه الفضيلة واستحقاقها. هي تساعدنا على الوفاء عن خطايانا وتجعلنا أكثر استئهالاً لنظر الله. وتحدّ من تأثرنا للتجربة وتزيدنا قوةً على مقاومتها. وتزيدنا استعداداً للصلاة العقلية. وتؤهبنا لنقبل بسهولة أعظم تأثيرات النعمة.

3. مثل يسوع المسيح. حسبُنا أن نذكر كلمة القديس بولس هذه: "إن المسيح لم يُرضِ نفسه"؛ ففيها قاعدة عامة لإماتاتنا. حسبُنا أن نلقي نظرة على المصلوب ونقول لذواتنا: هذا مثالي. فبذلك نكبتُ تمرد الحواس بإزاء المحنة أو المعاكسة أو المذلة.

بعض ممارسات الإماتة

يجب أن ينقص تدريجياً فضول عقلكِ عن معرفة كل شيء، واستقصاء كل شيء، وقراءة كل شي، والتحدث عن كل شيء؛ وعن التبجح بكل ما يعرفه، وعن استعمال لواذع الكلام في الأحاديث، وعن التحمُّس في الكلام، وعن الاستسلام للقلق لدى أدنى معاكسة، وعن تقصي الأخبار والحوادث، وعن المبادرة إلى رد الجواب...

لا يجادلنَّ بحماسة، ولا يطلبنّ أن يكون الحق دوماً بجانبه؛ وليتعلّم أن يسلّم لغيره بظرف وكياسة، ولا يدَّعيَنَّ أنه يفوق الآخرين في العلم والمعرفة.

يجب أن لا تميل إرادتكِ إلى التسلّط على الجميع، وأن لا تتمسك برأيها بعناد. فلتخضع لما هو مأمور به، من غير أن تتقصَّى أسباب الأمر، وخصوصاً من غير أن تزدريه من أجل عيوب الآمر به.

لا تختارنّ إرادتكِ اشغالها، ولا وظيفتها، ولا الرفيقة الفلانية التي تجاريها، ولا الحالة الفلانية التي ترضي حبّها الذاتي، ولا المحل الفلاني الذي يولي حواسّها الإرتياح والإنشراح.

ولتتجنب أن تقول أبداً: أُريد ... أو لا أُريد ...

يجب أن لا يميل قلبكِ بسهولة إلى الخلائق، وأن يتعلّق تعلقاً مفرطاً بما يجذب الحواس ويفتنها وبما يميل هو إليه طبعاً؛ وأن يرتب عواطفه وموداته ولا يحتمل منها ما يوليه شيئاً من الرّقة والمتعة؛ وأن يحفظ ولا ريب، ذكراً طيّباً

لأسرته بل ذكراً رقيقاً وودّياً، ولكن بشرط أن لا يلهيه هذا التذكار عن صلواته، وبشرط أن يستخدمه ليوصي الله كل يوم بذويه الذين يحبهم ولا يحمله أبداّ على الحياد عن أحد واجباته.

ليحترس قلبكِ من تلك الصداقات التي تولي، ولا شك، لذة خاصة في الحياة، وتبدو كأنها تزيل كل ما هو مزعج ومتعب في العيشة المشتركة، لكنها لا تلبث أن تُضعف الأعصاب شيئاً فشيئاً فيحيد صاحبها عن الله وعن الواجب وعن الطاعة، وتجعل طبع الإنسان صعباً، غير صحيح، ولا تلبث بعد قليل أن تدنس النفس بخطايا ثقيلة.

يجب أن تتعوّد مخيلتكِ اللبوث تحت نظر الله، وأن تطرد بلا شفقة ذكريات الماضي التي تظهر لها بصورة جذابة؛ وتصاميم الكمال الخارجة عن إرادة الطاعة التي تكرّه النفس بما يجب فعله وتحرمها لذة إتمام الواجب وثوابه؛ وتلك الخيالات الصبيانية الجديرة بالضحك أحياناً التي تقدّم لنا وسائل لإرضاء فضولنا وأميالنا وأهوائنا المتسلطة علينا؛ وتلك العَودات إلى ما قيل لنا أو فُعِل في سبيلنا، مما يثير الاستياء ويحمل أحياناً على الإنتقام وعلى فقدان الروح الرهبانية.

يجب أن يتعلّم جسدكِ أن يتحمل تارةً البرد، وتارةً الحر، وتارة الإنزعاج، وأن لا يعلّي الصراخ، كالأولاد المدلَّلين، تجاه صعوبة أو وجع تقوى الإرادة على إزالتهما بأسرع مما تستطيعه الأدوية. إن العلامة الحقة التي تدل على نفس سخية في جسم مريض، هي أن لا تتشكى النفس أبداً، ولا تتلهّى بالتفكير في وجعها، ولا في ما يلزمها ولا في ما يقدّم لها. فهي تحكي انزعاجاتها من غير أن تبالغ في وصفها، وتقبل الأدوية التي تُعطى لها، وتأخذ الراحة التي تؤمر بها، ثم تتوجع بصبر وتتوقع إتمام مشيئة الله.

يجب أن تكون حواسكِ خاضعة لعقلكِ:

فيمتنع نظركِ عمّا هو فضول بحت، إذا لم يكن للنظر من داعٍ للتعلّم أو داعي لياقة؛ ويتحوّل بأَولى حجة عمّا هو مثير للشهوة أو للخفة وللطيش، أو مخالف للحشمة.

وتمتنع أذناكِ عن سماع الأحاديث التافهة، الطائشة، التي يُخشى منها أن توقظ في قلبكِ ذكريات عالمية، شهوانية، أو قد تعلّمكِ ما لا تُتيح لكِ دعوتكِ بان تعرفيه.

ولا يسعى ذوقكِ أبداً أن يرضي ذاته، بل يقبل بشكر ما يلذُّ له ولا يرفض بمرارة ما لا يسرّه. ويحرم ذاته، بين أكلة وأخرى، ما ليس هو ضرورياً ضرورة مطلقة؛ وفي تناول الطعام لا يتناول دوماً من الأطعمة ما يبدو له أحسن إصلاحاً وإعداداً. ويمتنع عن كل حُكم أو ملاحظة بشأن ما يقدّم في بيت المائدة، ويحترس خصوصاً من الاستسلام للتذمر.

وتمتنع يداكِ عن كل ما بس له من غاية سوى إرضاء الشهوات الحسية... احترمي جسدكِ واحترمي جسد الآخرين: فإن الجسد هيكل الله؛ فاسلكي دوماً بشأنه كما كنتِ تسلكين في هيكل. لا تقولي: هذا شيء طفيف. بل قولي: ألا يجرح هذا العمل نظر ملاكي الحارس؟ اجتنبي كل لعب بالأيدي وكل مداعبة، مهما بدت طفيفة، ولا سيما إذا كانت من غير شهود. واكتفي من هذا القبيل، بما تفرضه قوانينكِ.

ليخضع لسانكِ أيضاً لعقلكِ وإيمانكِ. إعرفي أن تضبطيه عندما يكون لزوم الصمت مفروضاً في القوانين: في بيت المنام، وفي بيت المائدة، وفي المعبد، وفي الروحات والغدوات... فإذا دعت الضرورة أو المحبة إلى خرق هذا الصمت، فليكن التكلم بصوت خافت وبوجيز الكلام.

اضبطي لسانك أثناء النزهات، وكوني على حسب ما يريد الرسول: سريعة إلى الاستماع، بطيئة في الكلام. تكلّمي قليلاً ودعي الكلام للآخرين. تكلّمي بفائدة، قصد البنيان أو التسلية. تكلّمي بالحري بصوت معتدل لا بصوت مليء جهير. اضبطي فمكِ كلمةً لا يُقصد منها إلا المزاح والضحك، ما دام الحديث جارياً بسهولة. وامتنعي خصوصاً عن كل ما هو خطيئة.

بعض ملاحظات مهمة بشأن الإماتة

1. من المبتدئات الكثيرات الحرارة القليلات الخبرة من يحسبنَ أنفسهنَّ ملتزمات بأن يزاولن كل أفعال التقشف التي تبدُر لهنّ. فيعشنَ هكذا منزعجات متضايقات؛ والكفر بالذات، الذي يُنتج عادةً فرح النفس، ويصير

لهنّ عذاباً حقاً ومصدر وساوس؛ لذلك لا يلبثنَ أن يتركن في آخر الأمر كل إماتة. فهذه بعض نصائح عملية مأخوذة عن الأب ماران:

"يجب أن نميز بين ثلاثة أنواع من أفعال الإماتة: الأفعال التي بوسعكِ أن تمارسيها أو لا تمارسيها، كما تشائين، من غير أن ينجم عنها أي ضرر؛ والأفعال التي لا تستطعين أن تهمليها من غير أن تقترفي ذنباً أو تفرطي في إرضاء الطبيعة؛ والأفعال التي ليس بوسعك أن تهمليها من غير أن تخالفي الفضائل الرئيسية الخاصة بحالكِ. والأمثلة على ذلك:

أ. مدة النزهة يخطر ببالكِ أن لا تلفظي كلمة تافهة. في بيت المائدة يخطر ببالكِ أن تحرمي نفسكِ قطعة من حصتكِ بوسعكِ أن تأكليها بطيب الخاطر... إلخ. ففي هذه الأحوال أنتِ حرة كل الحرية أن تتقشفي أو لا تتقشفي؛ ويجب عليكِ أن تقصي عنكِ كل وخز في الضمير لكونكِ لم تتقشفي، لا في ذلك ميلاً إلى الوسواس.

ب. تلاحظين أن الجواب المزمع أن يصدر من فمكِ سوف يرضي حبك الذاتي، من غير أن يفيد أحداً البتة... أو تشعرين بدافع شديد يدفعكِ إلى ملاقاة أختٍ تحبينها... ففي الظرف الأول يجب أن تصمتي، وفي الظرف الثاني يجب أن تسكّني حماستكِ. فمثل هذه الأفعال المكررة تزداد النفس قوة، وبإهمالها تبقى في حالة الفتور.

ج. فُرض عليكِ ما يعاكس إرادتكِ، وأنتِ ترومين أن لا تفعليه أو لا تفعليه على النحو الفلاني... أُعطيتِ رفيقةً راهبةً لا تميلين إليها طبعاً... ففي هاتين الحالتين أطيعي واقمعي ما تشعرين به من المقاومة، برفعكِ قلبكِ إلى الله. فأنتِ ملتزمة بفعلي الإماتة هذين"

قال بودون المكرَّم: "لكي تبقى النفس ضمن حدود معتدلة ولا تجاوز حدود النعمة، من الضروري استشارة مرشد حكيم مستنير. فكثير من الأشخاص آلت صحتهم إلى التلَف من جراء تقشفاتهم غير الرشيدة. فقد أفرطوا في السهر وفي الصوم، فتلفِت معدتهم ودماغهم أيضاً. أرادوا أن يفرطوا في إزعاج ذواتهم وإجهاد نفوسهم، فتلفِفت قواهم وما عتموا أن صاروا عاجزين عن أي عمل كان. أرادوا أن يقتدوا بتقشفات القديسين ولم يأبهوا أن سبل النعمة تختلف

وتتنوع، وأن على كل واحد أن يجري على مقدار ما وهبه الله من النعم، وحسبوا إلهاماً سماوياً ما لم يكن سوى تجربة من إبليس".

2. هنالك عيب يقع فيه غالباً ذوو الحرارة الحديثة العهد، وهو أنهم يسترسلون في تقشفاتٍ تجاوز قواهم. تخرج النفس من العالم، فترى ذاتها مثخنة بالجراح التي أصابتها هناك، فتستفظع حالتها، ثم تطالع بتعجب يمازجه الرعب تلك التقشفات المدمية التي مارستها ضحايا التوبة في القفار الفلسطينية. وهذه فتاة حديثة السن ضعيفة رقيقة الشعور تريد أن تنسج على منوالهم. تستنعم فراشها فتروم أن تنام على الحضيض، وتريد أن تحذف من طعامها مع أنه زهدي زهيد، تشتهي أن تستخدم المسح وزنانير الأسلاك الشائكة، وتكرر الطلب في ذلك، وكثيراً ما تستخدمها من غير أن تستأذن البتة، يدفعها إلى ذلك يقينها أن هذه الإماتات ضرورية لها. فما هي نتيجة هذه الطريقة؟ إنها لمزدوجة: فالأولى أن الله لا يبارك ما تفعله لأن إرادتها الذاتية هي التي تدفعها إلى العمل، لا فضيلة الطاعة؛ والثانية أنها تذيب صحتها عاجلاً، وتنهك قواها؛ فإذا لم تبلغ إلى عجز مطلق عن كل خير، تصير عاجزة عن الخدم الكبيرة التي كانت قادرة أن تؤديها.

فلكي لا تُعرَّضي للخطأ والضلال، أدّي حساباً إلى معلمتكِ، ببساطة كاملة، عن كفركِ اليومي بذاتكِ، وعن رغبات الحرمان الناشئة فيكِ، وعن الأسباب التي قد تدفعكِ إلى عدم الاكتنفاء بالإماتات المرعية في الابتداء.

5

فضيلة البساطة

البساطة، كالتواضع، فضيلة صعبة الإحراز. ومن النادر أن تُحرَز هذه الفضيلة بكمالها، ما لم يكن في النفس استعدادات طبيعية خاصة وتعضدها نعمة خاصة. فقد كادت هذه الفضيلة تغيب عن أرضنا، وما عادت تُلاقى إلاّ في الجماعات الرهبانية، ولا سيما في الأديرة الابتداء، بكل ما يرافقها من سحر وجاذبية فتانة. وهنالك ما أجملها وأجلبها للقلوب! فهي تجعل المبتدئة محبوبة كالأطفال وتضفي عليها جمال الطفولة وسذاجة قلب يحب قط إلا الله وأمه ولا يعرف الخطيئة، حتى ولا اسمها.

قال القديس فرنسيس السالسي: "البساطة تجعل صاحبها شبيهاً بالأطفال الذين يفكرون ويتكلمون ويعملون بصراحة ومن غير غش؛ ويصدّقون كل ما يقال لهم؛ ولا يهتمون لأنفسهم ولا يعتنون بذواتهم، لأنهم في كنف أهلهم وحمايتهم؛ ويحبّون ببساطة من غير أن يسعوا لمسرّتهم؛ ويقبلون كل شيء بسلامة نية، ويسرّون ويفرحون بسذاجة، من غير أن ينشأ فيهم شوق أو فضول لمعرفة الأسباب والنتائج".

البساطة فضيلة تسري عدواها لما فيها من سحر وفتنة جذّابة. ويكفي أن تكون في جماعة دير الابتداء نفس واحدة بسيطة حقاً حتى تسعى سائر المبتدئات، على البداهة، ليتشبَّهنَ بها. بل أن الرغبة في البساطة تدل وحدها على نفس جميلة وقلب طيب... وبقدر ما تنقص جودة الإنسان وصلاحه لا يعود يروم البساطة ويزدريها. فابذلي جهدكِ لتمارسي أفعال البساطة التي ندلُّك عليها، والله يبارك جهودك.

البواعث على البساطة

1. سمو هذه الفضيلة. فهي علامة أبناء الله وتلاميذ يسوع المسيح، الذين يشبّههم الكتاب المقدس بالنعاج والحمائم من أجل سذاجتهم ونقاوتهم. وعلاوةً على ذلك هي أيضاً علامة الدين الحقيقي، إذ ليس ما يناقص الحق الأزلي أكثر من الكذب والكتمان والتستر.

2. ثواب هذه الفضيلة واستحقاقها. إنها تجعلنا محبوبين لديه تعالى الذي يكره الكتمان والتستر، ويلعن ذوي القلبين والنفسين، ويجب أن تكون نجواه مع السذّج والبسطاء. وتجعلنا أيضاً أحباء يسوع المسيح، الذي كان يداعب الأطفال، ويؤثر القديس يوحنا على سائر الرسل من أجل نقاوته وسذاجته، وهما فضيلتان لا تحلَّان في نفس تخلو من البساطة. وتجعلنا أيضاً محبوبين عند الناس، لأن النفس البسيطة ليست ثقلاً على أحد، ولا تزعج ولا تقلق أحداً، وتخدم وتريد الخير للجميع، ولا تعرف أن تفكر الشر في أحد.

3. علامات هذه الفضيلة. النفس البسيطة هي دوماً للجميع وفي عيون الجميع؛ وتمارس المحبة نحو الجميع وتبادرهم كلهم من غير محاباة وجوه؛ وعلى وجهها دوماً اشراقُ سرور ناشئ عن شهادة الضمير الصالح؛ وإذا اقترفت زلةً أقرّت بها ببساطة واحتلمت بسكينة ما تسببه لها زلّتها من عقاب أو مذلة؛ وفي كل شيء وفي كل مكان تبدو عدوّةً للخبث، ولا نية لها سوى إرضاء الله.

بعض ممارسات البساطة

بساطة العقل. صاحبتها لا إدّعاء لها، لا تسعى ليكون سلوكها أحسن من سلوك الغير، ولا تطلب أن يلاحظ الجميع؛ لكنها تتمّ بأحسن ما يمكنها الواجب المفروض عليها. ولا تقابل بينها وبين غيرها، ولا تفضل ذاتها على غيرها من حيث المواهب الطبيعية ولا من حيث النعم الروحية التي منحها الله.

بساطة القلب. نحو الله، تغذّي النفس البسيطة خشيةً بنوية من غير اضطراب أو قلق، وثقة وديّة من غير طمع، وأمانةً دقيقة من غير وسواس، ورغبة دائمة في إرضاء الله وإتمام مشيئته في كل شيء، كطفل يحب أمه حباً رقيقاً ويُدرك كل ما في قلبها من المودة له.

نحو القريب، تغذي النفس مودة خالصة، قلبية، وحرية لا يمازجها نقص في الرصانة والفطنة، ومحبة وديعة صبورة مبادرة غير مرتبكة ولا باطلة في مظاهرها.

نحو ذاتها، تكون النفس البسيطة محُبة لروح النظام والسلام، وصبورةً على نقائصها وعيوبها وأخطائها وعدم نجاحها.

بساطة الخُلق والطبع. النفس البسيطة لا تحتدّ ولا تركب هواها؛ تلزم الاعتدال بين الحرارة وعدم الاكتراث، ولا تستسلم للإفراط في الغضب وتلزم خُلقاً واحداً في كل الأحوال؛ تسلّم لغيرها من غير أن يُلاحظ عليها ذلك؛ تضحي بإرادتها ورأيها من غير أن تُظهر جُهداً أو تضحية؛ تجاري الأحوال كلها من غير أن تسعى للتبجح بذلك ولا أن تحسب لذاتها فضلاً كبيراً.

البساطة في العمل. النفس البسيطة تعمل بلا عجلة ولا اضطراب؛ ولا ترتبك بأمور كثيرة معاً؛ وتهتم فقط بما تعمل كما لو لم يكن لها همّ آخر: فتكون بكاملها لله في الصلاة، وبكاملها للقريب في علاقات المحبة، وبكاملها للشغل عندما يفرض الواجب ذلك؛ لكنها دائماً تعمل من أجل الله، ووفقاً لمشيئة الله، وتحت نظر الله.

البساطة في الظاهر. في ثيابها المحتشمة الخالية من كل تكلّف أو تهاون؛ وفي حركاتها الطبيعية غير المصنّعة؛ وفي مشيتها إذ لا تفكر إلا في غاية السير؛ وفي هيئتها الرصينة من غير صلابة، والأليفة من غير ابتذال؛ وفي حديثها

الخالي من الخبث والدهاء والنبرة الخاصة والكلمات المصنّعة؛ وفي كل شيء، إذ لا تطلب أن ترضي الغير، ولا تخشى أن لا ترضيه.

البساطة في التقوى. النفس البسيطة تتجنب على السواء التميُزات التي تشوّه التقوى، والعيوب التي تحطّ من كرامتها، والصغارات التي تجعلها جديرة بالسخرية، والأوهام التي تقتلها، والوساوس التي تعذبها وتجعلها في آخر الأمر مكروهة. النفس البسيطة تهرب من يأس الصغيري النفوس، ومن اندفاع المدّعين المتهورين؛ ولا تريد تعليماً آخر غير تعليم مرشديها ورؤسائها، ولا تقرأ إلاّ الكتب التي أُشير إليها بأن تقرأها، وتطلب إلى الله بتواتر أن لا يجعلها تحيد عن نطاق العيشة المشتركة.

طوبى للنفس التي تجهد كل يوم في ممارسة بعض هذه النصائح.

***

والآن، نروم أن نلخص في لوحة حيّة التعليم الخطير الذي يتضمنه هذا الفصل السابق في روح الابتداء. فنورد كتابة مينة لا تمكن قراءتها من غير فائدة.

طريقة السلوك في إكليريكية القديس سلبيوس في بدء عهدها

كانت طريقة السلوك في النزهات جزيلة الفائدة وكثيرة البنيان للنفوس. كنّا دوماً مجتمعين معاً ما كنّا ننفصل أبداً لنتسارّ إثنين معاً. وكانت الأحاديث موسومة بطابع الفرح والصراحة. وكانت الملاحظات الصغيرة تدور حول موضوعات التأمل، والقراءات الروحية، والقراءات على المائدة وما يُلاحظ فيها من الأمثال الصالحة: ذلك كله كان مادة أحاديث النزه الاعتيادية. وكنّا على الهذا النحو نتجاذب أطراف الحديث بعضنا مع بعض بوداعة كبيرة واستقامة واحترام متبادل واتحاد أخوي وودّ وبساطة.

وكان سرورنا أن نقمع ذواتنا في ما نشعر به أحياناً من الكراهية لبعض الأشخاص؛ فكانت نتيجة ذلك أننا كنّا نبدي صداقة أعظم للأشخاص الأقل موافقةً لنا، ولكي نجعل هذه الصداقة أكمل كنّا نبذل الجهد لنبادر هؤلاء الأشخاص بمظاهر المودة القلبية التامة.

لم يكن لنا شيء لا يخصّ إخوتنا أيضاً. بل لزم في آخر الأمر أن توضع حدود لهذه الرغبة العظيمة في خدمة القريب. كان لكل واحد غيرة تحثّه وتحثّ الآخرين أيضاً على محبة الله.

وكنّا نبذل الجهد لنطبع في الجميع حبّاً خالصاً جداّ لعيشةً فقرية، وضيعة، خفيّة. وكثيراً ما كنّا نتحدث عن منافع هذه الطريقة، بل كان ذلك الموضوع الغالب في أحاديثنا.

كانت أحاديثنا تتناول مرات عديدة ممارسة الاتحاد بسيدنا يسوع المسيح.وكان حب الفقر عظيماً، حتى أن كل واحد كان ينمجد ويفتخر بما هو أقرب إلى الفقر في كل شيء؛ وكان يستفاد من كل السوانح لتبيان الهزء الذي بتجلبب به أولئك الراغبون في موافقة عيشة العالم. فهكذا تناولت السخرية يوماً أحد الاكليريكيين الذي كان يتكلّف النظافة المفرطة في حذائه وزنّاره وقبّعته.

كان الجميع يبادرون بسرعة مقدسة إلى كل الوظائف الوضيعة والمذلّلة، أو تلك التي تورث مزاولها تعباً. ولم يكن الجمهور يتقدم إليها فقط بل كان يطلبها بحرارة وإلحاح.

وكان معظم الأعضاء، بل كلهم، يُبدون إهتمامهم بترتيب الدير ونظامه وخيره الروحي كما لو كان بيتهم الخاص. وكان القسم الأكبر على جانب عظيم من الشكر لأنهم قُبلوا فيه.

كان كل واحد يُجلّ إخوته إجلالاً بليغاً، ويذعن لهم في كل شيء، حاسباً نفسه آخر الجميع وأصغرهم؛ ويحسب شرفاً عظيماً له أن يخدم في أصغر الحفلات.

كان حب العالم منفياً من الجماعة، حتى أن الضمير كان يشعر بتعب وتوبيخ شديد لدى أول كلمة يُشتمُّ منها أدنى تقدير للعالم، فكان مثل هذا الحديث يسوء الآخرين ويكدِّرهم. وإذا دار الحديث على العالم جرت منافسة في تحقيره وذمّه. وكان الجمهور يتجرّد من كل ما يصلهُ بالعالم: ببلدته وأهله وسائر ما في العالم، فيذهب إلى الله بكل قلبه منطرحاً بين ذراعي عنايته تعالى وعند مشيئة الرئيس والمرشد، فكان كل واحد مستعداً أن يذهب إلى طرف المعمور لدى إشارة بسيطة منهما.

كانت الرسائل تمرّ تحت نظر الرئيس أو المرشد، وكان الجميع يحبون حباً جماً سامياً كشف أسرار القلب في الأمور الكبيرة والصغيرة، العادية والخارقة العادة.

كانت المودة القلبية وإتحاد القلوب الكامل تُعدُّ بين الاكليريكيين ميزة خاصة للمدرسة. وكانت العبادة للعذراء القديسة رقيقة، تظهر في جميع الظروف السانحة، وخصوصاً بعدم الشروع في شيء إلا من بعد استئذانها. فيحيي الجميع صورتها عند دخول غرفتهم الخاصة والخروج منها، وكذلك عند دخول غرفة المرشد الخاص والخروج منها. وكان الكلام يدور كثيراً حول هذه العبادة وممارستها، كالصوم أو التقشف أو الصدقة في تقدمة أعيادها، أو زيارة إحدى معابدها أو كنائسها.

ما من أحد كان يوافق على أصغر الهفوات والنقائص واللذات الحسية ومخالفات الحشمة والاستسلام للنعيش، بل كان الجميع يحترسون من الاسترسال فيها.

ولم يكن يتحدّث أحدُ بما يمارس من التقشفات، وإذا جرى حديث من هذا النوع لُفت نظر المتحدث إلى أن ذلك غير حسن.

وكان يواظَبُ على تقديم بواكير كل شيء لله، وعلى حرمان النفس منه حباً له تعالى قدر المستطاع.

وكان من العوائد المرعية أن يحمل كل واحد على جسمه صليباً أو إيقونة للعذراء الجزيلة القداسة.

ولم يكن الحديث يدور على الطعام، بل كان يُسعى لتناول ما هو أقل إرضاءً للذوق مثل فضلات الخبز وغيرها.

وكان الأعضاء يحثون بعضهم بعضاً على الاقتداء بالقوباوي يوحنا بركمنس، ولا سيما بممارسته هذه: سأدع الغير يقودني كما لو كنتُ طفلاً ابن يوم واحد. وسأجتنب كشرّ حقيقي أن أطلب إعفاءً من القانون من غير صعوبة عظيمة وحقيقية. سأحسب نفسي مقبولاً في الدير عن امتياز ونعمة خاصة، وأَقبَل كل ما يقدّم لي فيه كأني لا أستأهله. سأكون دوماً لي فرصة للتجرد وإنكار الذات سوف أقبلها بطيب الخاطر. أما إماتتي الأجل قدراً في نظري فهي "العيشة المشتركة".

وكان بيننا من بلغت بهم الطاعة إلى حدّ أنهم كانوا يتوقعون أدنى إشارة أو حركة أو علامة من رئيسهم، فكان لا بدّ للرئيس أن ينتبه إنتباهاً خاصاً لئلاّ يلفظ كلمة من شأنها أن تؤول كأمر من لدنه لتنفيذ شيء يضاد صحتهم ويزعجها.

أمّا الاستعفاء من أي تمرين كان فقد كان أمراً مجهولاً؛ وعند دقّ الجرس الأول كانت تفتح جميع الأبواب.

وكان يُلزم صمت شديد. ولم يكن الأعضاء يلتفتون بعضهم إلى بعض في الأروقة ولا على درجات السلّم. وإذا ما التقى إثنان حيّا أحدهما الآخر غالباً من غير أن يعرفه.

وكان لكل واحد منبّه أو إثنان يلفتان إنتباهه إلى زلاّته وهفواته. فكان المذنب يتلو السلام الملائكي لأجل من أتته منه التضحية.

وكان كل واحد يؤول تأويلاً حسناً كل ما يقوله الآخرون، فيُجتنَب كجُرم كل أنواع الظنون السيئة ويُحتمل بمحبة الأشخاص الذين تبدو على ملامحهم سماتُ الجدّ أو الحزن. ومتى رأى أحدٌ رفيقاً له حزيناً أو غائصاً في التفكير كان يبذل جهده ليحثه بلطف على الفرح، وكان يُشفق على حزنه. أما ما يشعر به كل واحد من الحزن الطفيف فكان يكشفه لمرشده أو لرئيسه. وكانت تُكره الصداقات الخاصة وتُستفظع كأنها طاعون الحياة المشتركة.

بعض ممارسات تقوية

التوقف برهة قبل الشروع في أي عمل كان لتويجه النية.

قمع حركات الطبيعة الأولى. مثال ذلك إذا كان أحدنا عائداً من النزهة تعباً معيباً خطر له أن يستريح حالاً، فكان يقمع هذه الحركة الأولى بالإنتظار قليلاً قبل أن يجلس للإستراحة.

العمل في كل شيء عن محبة، لأجل مبدأ فائق الطبيعة، بحسب تعاليم الإيمان ومبادئ الإنجيل.

التعلق بالتقدم الروحي وبتقدم الأخوة وخير الجمهور الروحي أيضاً.

الأمانة في أدنى ممارسات الفضيلة، كالدقة والحشمة والديانة والإماتة والتواضع.

فتح القلب كطفل للمرشد، حتى في أصغر الشؤون. التحدث مراراً عن هذه الممارسة وتلقينها للآخرين.

ممارسة الطاعة في كل شيء، واجتناب كل عمل يكون من الاختيار الشخصي.

قبول ما هو أكثر إرعاجاً للنفس واراحة الغير منه.

محب ما هو أقرب إلى الفقر في الطعام وفي اللباس.

عدم التفوّه بشيء بروح التهكم أو الإزدراء.

إنها لعلامة ودليل على الحرارة أن يستنبط الإنسان وسائل لإماتة ذاته في كل شيء: مثلاً في هيئة الجسم وجلوسه، وفي تناول الطعام، وفي الألعاب، وفي الأحاديث، وفي النزهات، وفي نزوات الفضول، وفي الأحوال التي تسنحُ لإرضاء الحواس".

الفصل السادس

في حِكَم الابتداء

تنبيه: إن الحِكَم المتضمنة في هذا الفصل والأبحاث التي نضعها في الفصل التالي يمكن أن تستخدمها المعلمات أو الرئيسات كمواضيع لمحاضرات الابتداء. يمكن التوسع في تفسير هذه الموادّ أن يساعد على التحدث إلى المبتدئات في أيام الآحاد من سنة الابتداء. ويمكن أيضاً في بعض الأحيان أن يُطلب من المبتدئات أنفسهنّ أن يتوسعن خطّاً في تفسير بعض هذه الحِكم. وقد يكفي لذلك أن يُجبنَ عن أحد هذين السؤالين: لماذا؟ كيف... فتكون غاية هذا الشغل تهذيب وتقوية حُكم المبتدئة وتعويدها على التفكير. لأن التفكير الأكمل لا يكون إلا عندما يهمّ الإنسان للكتابة.

تعني هذه الكلمة "حِكَم الابتداء" الافكار التي يجب أن يتغذّى بها العقل والروح بطريقة متوا□لة في هذا الوقت الثمين المخصَّ □ للتدرُّب على الحياة الرهبانية.

هذه الحِكَم هي ملخَّ □ روح الابتداء وفضائله. وهي موسوعة في عبارة مقتضبة لتتغلغل في النفس حتى الصميم، وتبرز للذاكرة بسرعة أعظم، فتستخدم كمذكِّرات ومفكِّرات في ساعات الريب أو القَلق أو التجربة أو المذلة. هي كبذار يجب أن يُلقى في النفس كل يوم تقريباً. فإذا زُرعَت بكثرة مدة الابتداء، لا بدّ أن تنمو عاجلاً أو آجلاً. ولعل فعل الفضيلة الفلاني، أو الفكرة التقوية الفلانية، أو الاندفاع الفلاني إلى الخير يكون نتيجة إحدى هذه الحكَم التي أثّرت فينا.

هي عديدة، لأنها لا تصلح كلها تماماً لكل الطباع، فكان لا بدَّ من تكثير عددها.

وهي متنوعة لأننا أردنا أن توافق الحالات النفسية كلها تقريباً، وأن تجد فيها الراهبة نُصحاً ومشورة لكل عمل من أعمال نهارها.

إن الحِكَم التي يجب أن تغذّي النفس الرهبانية خصو□اً هي حقائق الإيمان الكبرى، التي إنما هي بمنزلة الأساس للبناء المسيحي والرهباني كله. هي واردة في عبارات واضحة ودقيقة في الإنجيل. وحسبنا أن نذكر منها هنا:

1 التطويبات الثمان وعظة المسيح على الجبل بكاملها (متى ف 5 و6 و7). فإن فيها ملخَّص تعاليم الإنجيل، وفي عبارة وجيزة قاعدةً أمينة لكل حال من الأحوال، ووسيلة قداسة سهلة الإدراك، ودستوراً كاملاً يولي السلام والسعادة.

2 بعض أقوال مؤثرة ليسوع المسيح، إذا تأملنا فيها، وجدَت فيها نفسنا غذاء جديداً ودليلاً أميناً وعمليّاً لسلوكنا:

ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه.

مرتا، مرتا إنك مهتمة ومضطربة، والحاجة إلى شيء واحد ضروري.

تعلَّموا مني فإني وديع ومتواضع القلب.

من وضع يده على المحراث ونظر إلى الوراء لا يكون أهلاً لملكوت الله.

من أحب أباه وأمه و إخوته أكثر مني لا يستحقني.

من ترك لأجلي أباه أو أمه أو إخواته يأخذ مئة ضعف في هذه الحياة، وفي الآخرى الحياة الابدية.

ثم إننا قد اقتبسنا من بعض المؤلفات الروحية الحِكَم التالية:

تطويبات الراهبة الثمان:

أن تكون مذلَّلة، ومعاكسة، ومرفوضة، وموَّبخة، ومعاقبة، ومنسيَّة، والأخيرة في كل مكان، مهمَلة.

الراهبة السعيدة:

- هي التي وجدت سلام القلب ولا تدعه يضطرب.
- هي التي ترى يسوع في كل شيء: في رؤسائها، ورفيقاتها، ووظيفتها.
- هي التي تستشير كثيراً ملاكها الحارس.
- هي التي لا تجادل، وتجري بحسب ما يريد الغير.

- هي التي لا ترى أمراً مستحيلاً في الطاعة أو في المحبة.
- هي التي لا تهتمّ أبداً بما لا يعنيها.
- هي التي تستطيع أن تحتمل: احتقاراً من غير أن تتذمر، وإصلاحاً من غير أن تعتذر، ومديحاً من غير أن تلتذّ به، وألماً من غير أن تتشكّى، وكلمة محجلة من غير أن تضطرب، وأمراً من غير أن تعترض.
- هي التي لا تحكم على أحد، وتبتسم للجميع.
- هي التي تقبل بتجرد كل وظيفة وكل رفيقة وكل شغل.
- هي التي تحتمل بصبر نقائصها ونقائص الغير أيضاً.

طلبة التواضع

يا يسوع الوديع المتواضع القلب استجب لي، يا يسوع

من الرغبة في أن أكون معتَبَرة نجني يا يسوع

من الرغبة في أن أكون محبوبة نجني يا يسوع

من الرغبة في أن أكون مطلوبة نجني يا يسوع

من الرغبة في أن أكون مكرّمة نجني يا يسوع

من الرغبة في أن أكون ممدوحة نجني يا يسوع

من الرغبة في أن أكون مفضَّلة نجني يا يسوع

من الرغبة في أن أكون مستشارة نجني يا يسوع

من الرغبة في أن أكون مستحسنة ومستصوبة نجني يا يسوع

من الخوف من أن أكون مذلَّلة نجني يا يسوع

من الخوف من أن أكون محتقرة نجني يا يسوع

من الخوف من أن أكون مرفوضة نجني يا يسوع

من الخوف من أن يُفترى عليَّ نجني يا يسوع

من الخوف من أن أكون منسيَّة نجني يا يسوع

من الخوف من أن أكون مزدراةً نجني يا يسوع

من الخوف من أن يُظنّ فيَّ السوء نجني يا يسوع

أن يكون الغير محبوباً أكثر مني، هب لي أن أريد ذلك يا يسوع

أن يكون الغير معتبراً أكثر مني، هب لي أان أريد ذلك يا يسوع

أن يكبر غيري وأنقص أنا في إعتبار الغير، هب لي أن أريد ذلك يا يسوع

أن يكون غيري مستخدماً وأنا مهملة جانباً، هب لي أن أريد ذلك يا يسوع

أن يكون غيري ممدوحاً وأنا منسيَّة، هب لي ان اريد ذلك يا يسوع

ان يكون غيري مفضَّلاً في كل شيء، هب لي أن أريد ذلك يا يسوع

أن يكون الغير أقدس مني بشرط أن أكون أنا على ما استيعه من القداسة، هب لي أن أريد ذلك يا يسوع

وسائل للبلوغ إلى حياة جديدة

1) احرمي ذاتك

1. من أدنى الهفوات والخطايا:

- لأنها تلزم الله أن يحرمنا نعماً كثيرة.
- ولأنها تحذف قسماً من الانوار الضرورية لمعرفة مشيئة الله.
- ولأنها تضعف قوة النفس وتحرمها تذوّق الفضيلة وسهولتها.

2. من أقل الاشياء التي لا ترضي الله:

لأن عدم إرضاء الله عمداً يعود إلى إحزانه، ويدل على محبة قليلة وشكر ضئيل، ويحمله على بعض الندم لكونه دعانا إلى الحياة الرهبانية.

3. من ملذات الحواس:

- لان اللذات المسموح، إذا أُتخذت من غير اعتدال ولا قياس، ومن غير إنتباه إلى توجيهها إلى الله، تبيد نشاط الخُلق شيئاً فشيئاً، وتميل بالقلب إلى أفكار متنوعة، وتُضعف الإرادة.
- ولأن النفس التي تسمح لذاتها بكل اللذات الجائزة معرّضة لخطر السماح لذاتها باللذات المحرمة.

4. من مطالب الطبيعة:

- لأن النعمة تنقص بقدر ما تُرضي الطبيعة.
- ولأنا تلاميذ يسوع المسيح فيجب أن نقتفي آثاره. والحال أن يسوع المسيح لم يُرضِ نفسه بتمتعات الحياة، كما قال القديس بولس.

5. من الأحاديث العالمي:

- لأنه فيها يُفقد دَوماً شيء من الروح الداخلية.
- ولأن هذه الأحاديث تكرّه النفس الصلاة العقلية، وتملأ الذهن ذكريات ومآرب وتصميمات خيالية.

6. من مسرات العقل:

- لأنها إذا طُلبت بنهم أنشأت الكبرياء واحتقار الغير بل التمرد على السلطة.
- ولأنه ما من شيء يمنع فعل الروح القدس في النفس والحياة الداخلية مثل الدروس الخارجة عن دائرة الواجب، بل الدروس التي هي ضمن دائرة الواجب – لكنها تُزاول بنشاط مفرط.
- لذلك يصعب على العقل المكبّ على العلم بإفراط أن يزاول الصلاة العقلية، والعقل الساعي لمعرفة الاخبار لن يحرز أبداً جمع الفكر اللازم للصلاة.

7. من التعزيات الحسية في التمارين الروحية:

- لأن هذه التعزيات ليست العبادة، ولانه يمكن أن تُستر بهذه الشعورات الحسية نقائص باهظة وزلات مذلّلة

- ولأن الوهم في التعزيات أسهل مما في اليبوسات وفي الطرق العادية.
- ولأن القديسين الذين أحرزوا منها الشيء الكثير كانوا يرهبونها دوماً.
- ولأنها غالباً ما تكون نتيجة الطبع والمزاج، لا ثمرة نعمة الله

2) تجردي

1. من إرادتك الخاصة:

- لأن يسوع المسيح تجرّد من إرادته فقال: لم آتِ لأعمل مشيئتي بل مشيئة أبي؛ فخضع لمريم وليوسف، بل لجلاّديه.
- ولأن الإرادة االذاتية أصل كل الخطايا. فإذا حذفناها أزلنا جهنم من الوجود.

2. من حكمكِ الخاص:

- لأنه، منذ الخطيئة الأولى، قلّما يكون مستقيماً صائباً ولا سيما في ما هو من شؤوننا.
- ولأن الله برحمته قد شاء أن نتعلّق بعضنا ببعض، ومن ثمَّ أن نُخضع حُكمنا لحُكم الذين هم فوقنا مرتبةً.

3) كوني أمينة

1. لقوانينكِ وفرائضكِ:

- لأنها أقوى وسائل التقديس في جماعة رهبانية، ومنها تقتبس سائر الوسائل قدرها وقيمتها، وهي أقدر الوسائل على حفظ السلام في نفسنا.
- ولأن النعم التي تُنال في جماعة رهبانية تكون على قدر أمانة الجماعة وإخلاصها لفرائضها.

2. لأصغر الممارسات الجمهورية:

- لأنها من وضع رئيس يحقّ لهُ إدخالها، ومن ثمَّ فهي تدخل في حيّز الطاعة.
- ولأن الأنجيل يعلمنا أن من يزدري الصغائر يسقط شيئاً فشيئاً، وأن الأمين في الصغائر يكون ثوابه واسعاً وجزيلاً.

3. لإلهامات النعمة:

- لأنها أنوار خاصة يعطيناها الله لينيرنا في حالة خاصة.
- ولأن من يرفضها يعرّض نفسه لفقدانها، ويقاوم الروح القدس، ويهين الله.

4) أكِبّي على

1. استحضار الله:

لأن استحضاره تعالى يحمل على إجتناب الخطيئة، ويسند في التجارب، وينعش في أوقات الكراهية، ويشجع بعد السقوط، ويحث الهمة إبّان العمل.

2. النيات المستوحاة من الإيمان:

- لأنها الوسيلة لإيلاء أصغر أعمالنا، حتى غير الناجحة منها، قيمةً حقة للسماء.
- ولأن أعظم الأعمال وأبهاها تُحسب شيئاً أمام منبر الله، من دون روح الإيمان هذا.

3. إتقان التأمل:

- ففيه تستقي النفس القوى لتعمل لمجد الله.
- وفيه ترى النفس بوضوح ما هي مشيئة الله بشأنها.
- وهو رياضة الملائكة، والنفوس التي تمارسها تسلك في آخر أمرها سلوكاً شبيهاً بسلوك الملائكة.

5) أهربي

1. من التذمرات:

- لأنها تبيد تدريجياً روح الخضوع، وتعوّد النفس العيشة ا ستقلالية في إستياء دائم.
- ولأنها تمنع من التمتع بأفراح العيشة الجمهورية المشتركة.

2. من التهكم والإزدراء:

- لأنهما يناقضان روح المحبة – ويجرحان أحياناً جراحاً سبيل إلى شفائها – وقد سببا خسارة دعوات كثيرة.
- ولأنهما يغذيان الزهو الباطل المتهكم، ويحملانه من غير أن يشعر على ا عتقاد بأنه فوق الآخرين، ويحرمانه نعماً كثيرة داخلية.

3. من الصداقات الخاصة:

- لأنها تبيد الروح العيلية الواجب أن تسود في جماعة رهبانية – وتُرخي القلب – وتيبّس النفس – وتضعف العبادة – وتحمل على الهرب من أنظار الرؤساء – وتقود شيئاً فشيئاً إلى الملذات المهيجة الحواس والشهوات.

6) يريد الله

- طاعةً بلا إعتراض – وشغلاً بمواظبة – ولزوم الصمت بلا حرَد – وحشمةً وإبتساماً عادياً – وسعياً لنفع الآخرين وإرضائهم – وطرد كل فكر يلقي في الاضطراب أو يضيّع الوقت – والإلتجاء إليه حالاً بعد الزلَل.

7) إفرحي

- إذا كنتِ منسيّة أو مجهولةً – وإذا لم يكن لكِ ما يكفي من كمالات العقل والجسم الطبيعية – وإذا لم يُؤبه لكِ – وإذا عُهد إليكِ في الوظائف الدنيئة – وإذا لم تُستخدَمي لشيء – وغذا لم يُطلب رأيكِ – وإذا لم يوثَق بكِ – وإذا تُرك لكِ المكان الأدنى – وإذا لم يوجَه إليكِ قطُّ ثناء أو مديح – وإذا فُضِّلَت سائر أخواتكِ عليكِ.

8) تصبحين عمّا قليل قديسة كبيرة

- إذا كنتِ غير متمسكة بشيء، وإذا كنتِ تحبّين أن تكوني مهملة – وإذا تعذبتِ وأنتِ صامتة – وإذا قبلتِ كل ما يبعث به إليكِ الله أو يسمح بأن يُفعل لكِ – وإذا كنتِ لا تشتهين شيئاً آخر سوى مشيئة الله.

9) لن تحرز الكمال ابداً الراهبة

- التي تعتذر – وتتذمّر وتتشكّى من كل شيء – وتتشكى من الطعام – وتتهكّم وتزدري غيرها – وتهرب من أنظار رؤسائها – وقلّما تكترث للأمور الصغيرة.
- شيئان يجب أن لا تقوم بشأنهما شكاية: اللباس والطعام.
- شخصان يجب أن لا يتناولهما الفحص أبداً: الرئيسة والمعرّف.
- صلاتان يجب أن توجَّها إلى الله كثيراً: إلهي هب لي أن لا أكون فضولية ولا ثرثارة.
- فضيلتان تجب ممارستهما في كل حين: الطاعة، والمحبة.

- فعلان يجب أن تكون الراهبة دوماً مستعدة لهما: التناول والموت.

10) خطايا الراهبة الرئيسية السبع

- العصيان – خرق القانون – خرق الصمت – الانتقادات والتذمرات – الصداقات الخاصة – الحسد – النفور والعنف

11) وسائل الكمال

1. في السلوك:

- الطبع الرضيّ السويّ – الاستقامة – الحشمة – الفطنة – الوداعة – الحزم.

2. في الأحاديث:

- مَرح بلا تبذُّد – تحفظ في الأقوال – نسيان الذات – إحترام الغير.

3. في استعمال الأسرار:

- نقاوة القلب – نقاوة النية – التجرد من التعزيات الحسية – إيمان حيّ – حرارة عملية.

4. في الأخطاء والزلات:

- إقرار وضيع صادق – حزن بليغ بلا هبوط عزم – إلتجاء سريع إلى الله – إستلام لرحمته – وفاء وتفكير.

5. مع الله:

- ثقة بنوية – درس مشيئته ببساطة ومودّة – إنتظار نعمته بسلام – طاعة سريعة لإلهاماته بلا تحفُّظ

6. مع الرؤساء:

- إحترام بليغ لأجل الله الذي يقومون مقامه – طاعة بسيطة – مستقيمة –كاملة – ثقة لا حدّ لها.

7. مع القريب:

- مودّة قلبية – مبادرة – احتمال – إرضاء بلا تذلُّل – إحترام بلا تمليق – تنازل بلا حياء بشري.

8. مع الذات:

- حشمة قاسية صارمة – تواضع صادق – إماتة متواصلة – صبر لا حدّ لهُ.

9. لأجل العقل:

- تحذر حكيم من الأنوار الخاصة – جهل سعيد للإستحقاق الشخصي – استعمال مقدَّس للمواهب العقلية.

10. لأجل القلب:

- مواظبة على إقصاء كل اضطراب – سهر على جميع حركاته – التضحية بأمياله – التغلب على كراهياته.

11. لأجل المخيّلة:

- هدوّ ثابت عند جموحها – احتقار مختلَقاتها الغريبة – التلهّي عنها عندما تزعج.

12. لأجل الجسد:

- عناية معتدلة – شدّةٌ فطِنة حكيمة – قناعة عامة.

13. لأجل العواطف:

- موافقتها لعواطف يسوع المسيح – خضوع دائم ومطلَق لمسرّة يسوع المسيح، للحياة والموت، للصحة والمرض، للنجاح والاحتقار.

إن النفس الأمينة في استخدام وسائل الكمال هذه:

- تكون نعيماً لقلب الله – وتتمتع هي نفسها به تعالى – وتجد سلاماً ثابتاً في الله – وتضمن لذاتها الحصول عليه تعالى مدى الأبد.

12) الراهبة الصالحة الفاضلة تطلب إلى الله

- التواضع أكثر من التذليلات – والصبر أكثر من العذابات – والإرادة أكثر من المشاريع – والحبّ أكثر من العمل – والاستسلام لله في كل شيء أكثر من التجرد من كل شيء – والطاعة أكثر من الأوامر – والأعمال أكثر من الأقوال – ومواظبة على القداسة أكثر ممَّا على الصحة.

13) على الراهبة الصالحة أن تكون متجردة

- من كل أنواع الأماكن والوظائف – ومن كل أنواع الصلبان والعذابات ومن كل أنواع المعاملة من الخلائق – من ذكر الآخرين لها ومن نسيانهم – من تقديرهم لها ومن احتقارهم من مودّتهم ومن نفورهم – ومن كل أنواع المعاملة من قبل الله – من الأنوار ومن الظلمات – من التعزيات ومن اليبوسات – من الراحة ومن الشغل – من الصحة ومن المرض – من الحياة ومن الموت.

14) إثنتا عشرة حكمة خطيرة مهمة

1- تكن لنا غاية سوى الله، والله وحده، لأن الله وحده هو الذي يديننا.
2- النظر إلى كل مذلة وكل محنة وكل عذاب وقبولها كما لو كانت نثرة من نثرات صليب يسوع المسيح، ونقلة من كأسه. فالله يبعث بها إلينا ليشركنا في استحقاقاته.
3- عدم التحدث عن ذاتنا، والاهتمام بذاتنا. ألا يكفي أن الله يهتمّ بنا؟
4- احتمال كل شيء من الغير، وعدم تحميلهم شيئاً عمداً وباختيارنا.
5- بذل كل شيء للآخرين وعدم تلقّب شيء لأجلنا. قبول ما يُبذَل ويُفعل لنا بشكر.
6- إغماض العينين دوماً عن عيوب الغير وفتحها على فضائلهم، وعَذرُ كل ما يبدو لنا شرّاً.
7- عدم الإعتذار على وجه الإطلاق، حتى إذا كان ما يقال لنا ظلماً. ماذا يهمّنا ذلك أمام الله؟
8- لا نلقب شيئاً. لا نرفض شيئاً. الإتكال على الله في كل شيء.
9- لا نسمح أبداً لذواتنا باصدار الأحكام على سلوك رؤسائنا ولا مرشدنا، ولا بأن نفحصه.
10- الاهتمام بوظيفتنا، لا بوظيفة الغير على الإطلاق. فكل واحد يعمل لنفسه أمام الله ويؤدّي الحساب عمَّا يجب عليه فعلُه.
11- النظر إلى كل الخلائق، أيّاً كانت، كإلى رُسُل الله لدينا: بعضها ليزيد أجرنا، وبعضها للوفاء عنَّا.
12- الاعتقاد بأنّا العضو الأخير في الجمهور، والسعي، بلا تكلّف، وراء المحلّ الذي لا يريده أحد.

15) الراهبة الحارّة

1- تسمع بانقياد: القراءات، والتنبيهات، والتونيبات.
2- تمارس بأمانة: الاحترام، الطاعة، الدقة في حفظ القانون.

3- تعيش بمحبة: مع رفيقاتها، ومرؤوساتها، واللواتي لا يُحببنها، واللواتي يعذّبنها.

4- تذعن بتواضع: لرفيقاتها المساويات لها، لمرؤوساتها.

5- تحتمل بوداعة: الأحزان التي يبعث بها الله، والتي تسبّبها لها أسرتها، ووظيفتها، وصمتها، وقلة نجاحها.

6- تشتغل وتواظب على شغلها: وإن كان الشغل لا يلذّ لها، أو يبدو لها غير نافع، أو لا يجلب لها أدنى مسرة.

16) صورة المبتدئة الصالحة

تشكر الله على كونها تجرأت على تركِ كل شيء لتدخل في الرهبانية.

تعتقد أنها سوف تكون مدة حياتها الرهبانية كلها ما كانت مدة ابتدائها.

تفكر، ولا شك في أسرتها، ولكن لكي تستودعها الله تعالى.

تبذل عنايتها كلها لإتمام فرائضها بأمانة في جميع حذافيرها؛ وتعلم أن في ذلك فقط كمالها.

هي تقية في صلواتها، مُحبة لأخواتها، خاشعة في داخلها، محتشمة في ظاهرها.

تعدُّ خرق الصمت زلةً قد تكون لها عواقب وخيمة.

إذا بدت لها الفرائض مزعجة، فكرت في خطاياها السالفة، وفي مشيئة الله القدوسة، فتحتملها وتحبها وتعتني بأن لا تهمل شيئاً من واجباتها.

عندما تؤنَّب على زلاتها وترى ذاتها مذلَّلة، لا تعتذر بل تصمت وتشكر وتجتهد أن تتحسن.

تظهر واثقة كل الثقة بمعلماتها وبمرشد ذمتها، وتحسبهما قائمين مقام الله تجاهها.

تحترس من التهاون في الصغائر، لإعتقادها إن ممارستها دليل على محبّة الله يستدرّ عليها نعماً جزيلة وعظيمة.

التواضع سندها، والصلاة عزاؤها، والطاعة دليلها، والدعوة موضوع درسها، والشغل واجبها، والصليب معلمها، وفحص الضمير كتابها، والتأمل طعامها، والتناول فرحها وقوّتها، ومريم أمُّها، والقديس يوسف وملاكها الحارس يحاميان عنها.

***

الفصل السابع

شغل الابتداء

بما أن غاية الابتداء إعداد النفس وتدريبها على الحياة الرهبانية، يمكن أن يُعدّ الابتداء:

1. **كقالب** تتحول فيه النفوس وتتجرد من العمصر العالمي وتأخذ العنصر الإلهي. هذا التحول يقتضي أحياناً شغلاً عنيفاً، إذ لا تُنال الفضائل التي دللنا عليها بدون عناء وكفر بالذات متواتر. وبدون هذه لا تنزع النفس عنها عيوبها الطبيعية لتصير طائعة، وضيعة، مُحبة، بسيطة، متقشفة. هذا الشغل يتم شيئاً فشيئاً بواسطة الصلاة، والتأمل، والاسترشاد، والامتحانات التي سوف يجيء الكلام عليها فيما بعد.

2. ويمكن أيضاً أن يُعدّ الابتداء **كمدرسة**، فيها تتعلّم المبتدئة نظرياً وعملياً مبادئ المعارف الضرورية لها، فيما بعد، لتجارس مطالب دعوتها. ففي كل ابتداء تكون الدروس على نوعين:

النوع الأول دروس تتفق مع غاية الرهبانية أو الجماعة التي تنضم إليها المبتدئة. فمن المعقول، مثلاً، أن تلقَّن المبتدئات المعدَّات للإعتناء بالمرضى درساً وتعاليم تختلف عن تلك التي تُلقَّنها المبتدئات المعدَّات لحياة التأمل أو لتربية الأحداث.

ليس لنا أن نهتم هنا بهذه الدروس، فالإرشادات المتعلقة بكل دير تعطي في هذا الشأن المعلومات الضرورية.

والنوع الآخر دروس مشتركة بين جميع أديرة الابتداء، وقوامه معرفة واجبات الحالة الرهبانية المنويّ انتحالها، ومعرفة مبادئ الحياة الداخلية التي يجب أن تكون حياة الأشخاص المكرّسين لله.

فلكي نسهل هذا الدرس الثاني، سنبسط بإيجاز ما تجب معرفته عن الحالة الرهبانية والحياة الداخلية، ولكن بحيث نقدّم للمبتدئة معرفةً كافية وافية بالمراد.

وهنالك أيضاً درس آخر يحسن أن يُبحث ويُمعَن فيه في أديرة الابتداء، ألا وهو درس التعليم المسيحي. فكم من الفتيات يأتين الدير ليبذلنَ ذواتهنَّ لله بنفس سخية وقلب متفانٍ، ولا تكون معارفهن الدينية إلا سطحية؛ وقد يكنّ في بعض الأحيان من اللواتي أحرزن في العالم دروساً لامعة.

قال المنسنيور دوبّنلو: "يحزنني أحياناً حتى الصميم ويثير هواجسي بشأن خلاص النفوس الأبدي أن أرى النزر اليسير من المعارف الدينية والمساعي الضئيلة لتعلّم الديانة ... إن فينا اليوم، بشأن الديانة، جهلاً جديراً بالرثاء. فكم من الأموات لقيت جهلاً حقيقياً مُطبقاً حتى عند رجال ذوي ثقافة عالمية عالية، بل عند نفوس مسيحية تمارس واجباتها. فكثيراً ما يُجهَل كل شيء من الدين، ولا يُعلّم شيء أو لا يكاد يُعرف شيء من تعاليمه الجوهرية، ومن نُظمه الأساسية، ومن طقوسه ومن البراهين التي تدعم عقائده، ومن حقوقه، ومن فاعليّته في العالم، ولا يكاد يُعرف شيء من أصله وتاريخه وتاريخ يسوع المسيح نفسه, وإذ لا تُدرك مصالحه الأكثر وضوحاً، يكون جاهلها عاجزاً عن خدمتها والدفاع عنها".

تشعر النفس ببعض الميل لتذوّق التقوى، وتمارس بعض ممارسات العبادة، وتعرف من الذين ماجرياته العادية، فتعيش في سلام وتسترسل في مطالعات تتكلّم على طريق الكمال، من غير أن تفطن لحاجتها إلى توطيد إيمانها والسعي لدعمه بالبراهين.

فلا تحسبنّ المبتدئة ذاتها قد تذلّلت لأنها تسمع قراءة كتب تعليم مسيحي بتوسع في تفسير الكتاب الصغير الذي تعرفه غيباً وقلّما فكرت في التعمق فيه. فقد قال المنسنيور دوبّنلو: "بوجه عام لا يُعرف جيدا التعليم المسيحي، ولا الإنجيل، ومن ثم لا يُعرف الدين إلا معرفة سيئة جداً".

على الراهبات المعدّات للتعليم أن يهيّئنَ كما ينبغي دروسهنّ الدينية. ولا بد أن يقرأ عليهنّ علناً كتاب يفسر الشؤون الدينية تفسيراً واسعاً وراهناً.

1

ملخص مقالة في الحالة الرهبانية

تنبيه: لا نزعم تقديم مقالة كاملة في الحياة الرهبانية في هذه الصفحات القلائل. وإنما نروم أن نعلّم المبتدئة مها يهمها بالأكثر أن تعرفه عن الحالة التي تريد انتحالها.

(1) في ما هي الحالة الرهبانية

1- الحالة الرهبانية هي طريقة للحياة ثابتة في إحدى الجمعيات التي أثبتتها الكنيسة، فيها تخصّص ذاتها نفوس تطلب الكمال لعبادة الله بواسطة نذر الفقر ونذر العفة ونذر الطاعة، وممارسة قانون أو فرائض واحدة مشتركة.

2- يستطيع أسقف في أبرشيته، وفقاً لعادة معروفة يسمح بها الكرسي الرسولي المقدس، أن يثبت، ولو إلى حين، جماعة رهبانية ويسمح بممارسة النذور الثلاثة فيها؛ بيد أن هذه الجماعة لا تسمى حينئذٍ منظمة رهبانية بحصر المعنى.

3- وإن أثبت الكرسي الرسولي فرائض جماعة رهبانية، لا تكون مع ذلك هذه الجماعة منظمة رهبانية؛ بل يجب علاوة على ذلك أن تكون النذور فيها دائمة، واحتفالية ومعترف بأنها على هذا النحو لدى الكرسي الرسولي أو الحبر الأعظم. فإن إعتراف الحبر الأعظم باحتفالية النذور هو الذي يجعل الجماعة "منظمة رهبانية". بيد أن الحبر الأعظم يستطيع أن يمنح لقب "منظمة رهبانية" وامتيازاتها لجماعة رهبانية ليست نذورها إلا بسيطة.

4- غاية الحالة الرهبانية السعي إلى الكمال بممارسة دقيقة لا لوصايا الله أو الكنيسة فحسب، بل للمنشورات الإنجيلية أيضاً. هذا السعي إلى الكمال هو غاية كل جسم رهباني وسبب كل الواجبات التي يفرضها على أعضائه. فالكمال والقداسة هما نصيب أهل السماء؛ والرغبة في الخلاص وعمل كل ما هو ضروري مطلقاً لذلك هو المسيحي البسيط؛ أما الشوق والسعي إلى الكمال فهو خاص بالراهب.

5- الوسيلة لبلوغ الكمال هي ممارسة المشورات الإنجيلية الثلاث، أي الفقر والعفة والطاعة. فالفقر الاختياري هو الاستعداد الأول الذي يطلبه يسوع المسيح من الذين يريدون أن يصيروا كاملين: بِع كل ما لك وأعطهِ للمساكين وتعال اتبعني. والعفة تنقذ الإنسان من هموم الأسرة فتسهل عليه ممارسة الفقر، ثم إنها ترفع النفس فوق الشؤون الحسية وتسمح للقلب أن يتعلق بالله وحده. والطاعة تُخضع الإرادة لرئيس وتُتيح له أن يأمر بكل ما يراه

ضرورياً للكمال. لذلك بعض الرهبان، كالبندكتيين مثلاً، لا يصرّحون إلا بنذر الطاعة الذي يحتوي ضمناً النذرين الآخريَن.

6- إن ممارسة المشورات الإنجيلية هذه يجب أن تكون ملزمة بقوة النذر في جماعة رهبانية ليستحق مزاولوها أن يُدعَوا حقاً رهباناً. وبدون هذا القيد يبقى الإنسان حراً أن يعى للكمال أو لا يسعى إليه، وهذه الحرية لا تتفق مع ما يسمى "حالة" ويدل على وضع راهن ثابت.

هذه النذور دائمة في المنظمات الرهبانية بحصر المعنى. ويمكن أن تكون في بدء الأمر وقتية في الجماعات الرهبانية، لكنه من الضروري أن تكون دائمة ليصير حقاً إنتحال حالة رهبانية بحصر المعنى[7].

7- هذه النذور يجب إبرازها وفقاً لقوانينأو فرائض تحدّد مادتها وطريقة ممارستها. فالقوانين، أو الفرائض، بموجب الحق القانوني، تدلّ كيف يجب أن تُفهم وتُمارس نذور الفقر والعفة والطاعة. لقد وضع القديسان اوغسطينوس وبندكتس في الغرب قوانين ثبتتها الكنيسة دون سواها؛ فكل جماعة رهبانية تروم أن تنال تثبيت الكرسي الرسولي يجب أن تتخذ دليلاً لها إحدى هاتين الطريقتين الاوغسطينية أو البندكتية. وإلى هذه القوانين تُضاف الفرائض التي تبيّن برطيقة خا□ة، بحس غاية كل رهبانية، كيف يستطيع أعضاء هذه الرهبانية أن يبلغوا بواسطة هذه القوانين إلى الكمال. أما في المصطلحات العادية التي ليست دقيقة كمصطلحات الحق القانوني، فتستعمل كلمتا قوانين وفرائض الواحد بدل الأخرى على حدّ سواء من دون أيّما فرق أو تمييز.

---

[7]نعني بتسمية "جماعات رهبانية" كل جسم تصير فيه عهود للسعي إلى الكمال بممارسة النذور البسيطة المعترف بها كبسيطة من قبل الرئيس الكنسي فيحفظ هكذا لنفسه سلطان الحلّ منها.

إن ميزة هذه الجماعات الرهبانية الخا□ة، وما يميزها جوهرياً عن المنظمات الرهبانية، هي طبيعة النذور فيها. فالنذور فيها بسيطة غير احتفالية. لا ريب أن الشخص الذي ينذر هذه النذور بشتهي ويرغب أن تمتدّ عهوده بها إلى أقصى حد ممكن، ويمكن أن يكون إلزام هذه النذور للخص المذكور مطلقاً لا رجوع عنه بحيث لا يستطيع الرجوع عنها بلا خطيئة، ما لم يكن هنالك أسباب عادلة وشرعية، ولا أن يستعيد حريته التي تخلّى عنها باختياره. بيد أن الجسم أو رئيسه الأعلى يحتفظ لنفسه بسلطان كسر تلك القيود إذا ما أمست وخيمة مضرة بالجسم الكامل أو بالعضو الفرد، فيمكنه، لأسباب خطيرة، أن يحلّ أو يعفى من النذور.

نتيجة ذلك 1. إن كل إلزام مرتب□ بالنذور الاحتفالية من حيث هي احتفالية لا يتعلق بنذور الجماعات الرهبانية البسيطة. وكذلك القول عن المفاعيل المتعلقة بإبراز النذور profession، ما لم يكن هنالك انعام من الحبر الأعظم.

2. إذا كانت الجماعات الرهبانية ذوات النذور البسيطة لا تدعى منظمات رهبانية، فهذا لا يعني أن أعضاءها لا يحق لهم أن يسموا رهباناً أو راهبات بمعنى هذه الكلمة الاعتيادي. لأن جوهر الحياة الرهبانية هو إبراز النذور الثلاثة.

3. إنما بعض الكتب القانونية لا تسمي رهباناً وراهبات بحصر المعنى إلا أعضاء المنظمات الرهبانية ذوات النذور الاحتفالية.

كذلك في الحديث الاعتيادي تعني الراهبة بكلمة قانون لا القوانين الأساسية التي تجعلها من أعضاء الرهبانية الفلانية بل النُظُم البسيطة الخاصة التي تفيد حريتها في سلوكها ويمكن أن تعدّل وتبدّل وتتغير بحسب أحوال الزمان والمكان.

إن تثبيت الأسقف المحلي يكفي لقوانين وفرائض الجماعات الرهبانية. فيكون الأسقف حينئذٍ الرئيس الأعلى للرهبانية وبه يُناط كل سلطان فيها. أما التثبيت الذي تطلبه الجماعة الرهبانية وتناله من الحبر الأعظم، فلا يولي هذه الجماعات من تلقاء ذاته ميزة المنظمة الرهبانية. بل لهذا التثبيت المفاعيل الآتية:

1. يولي القوانين والفرائض سلطة أعظم – 2. يولي الجماعة الرهبانية حق إنشاء أديرة في جميع أنحاء الكنيسة برضى الرئيس الكنسي المألوف – 3. يمنع أن تُدخل سلطة أدنى من سلطة الحبر الأعظم أيّما تغيير أو تعديل في غاية الرهبانية ووسائلها وفرائضها المثبتة – 4. تلزم الرهبانية بالإلتجاء إلى الكرسي الرسولي لكل ما يمكن أن يحدث من مُهمّ في سياستها وإدارتها.

عندما تلتمس جماعة رهبانية التثبيت من الكرسي الرسولي، يتحقق الحبر الأعظم لدى أسقف الأبرشية أن القوانين قد مارستها الرهبانية مدة سنوات عديدة ونتج عن ذلك بنيان للنفوس، فيمنح الحبر الأعظم أولاً مرسوم الثناء. وبعد ذلك يجري فحصاً دقيقاً فيثبت الرهبانية في بعض مبادئها الأساسية ويوطدها بسلطانه الرسولي، أو يفح وثبت مواد القوانين بالتفصيل.

(2) في الشروط الضرورية لإنتحال الحالة الرهبانية

8- لا بد من شرطين لإنتحال العيشة الرهبانية: الدعوة، والأمانة في إتباعها[8].

9- الدعوة، أي نداء الله، تُعرف بوجه عام من الأمور التالية:

[8]إذا كان بين الحالات ما يقتضي دعوة خاصة، فالكهنوت والعيشة الرهبانية هما منها. لأن الواجبات الخطيرة المترتبة على من ينتحلهما لا يمكن القيام بها بدون نعمة خاصة، وهذه النعمة لا يمنحها الله للذين يدخلون من تقاء ذواتهم في حالة لم يدعُهم إليها – هذه الدعوات التي ليست من الله تُنتج في الأديرة أوخم العواقب. فأصحابها لا يرون إلا الصليب ولا يشعرون بالعذوبة القادرة وحدها أن تخفف وطأته. وبما أنه لا نصيب للحب عند هؤلاء في ممارسة القوانين، فالخوف البشري هو الباعث الوحيد عندهم على ممارسة القوانين. فإذا أمكنهم أن يتعدّوها بلا عقاب وجدوا في ذلك سرورهم، وكان هذا السرور أعظم إذا لقوا من يشاركهم في هذه التعدّيات.

1. من المؤهلات، أي من استعدادات في النفس والجسد تسمح بإدراك واجبات هذه الحالة وبتحمل أشغالها واتعابها.
2. من الميل، أي من شعور غريزي بديهي أو مدعوم بالبرهان يحمل الإرادة على إختيار العيشة الرهبانية وإيثارها على الحياة العالمية.

10- هذا الشعور يمكن أن يكون سببه فائق الطبيعة أو باعثاً طبيعياً محضاً. فهذا الشعور الطبيعي إذا باح به صاحبه لمرشده فطِن. وإذا حمل النفس على النمو في التقوى، وإزدياد نفورها من العالم وتعلّقعها بواجبها، وإذا ظلّ ثابتاً في النفس، يمكن أن يُعدّ دعوة مباشرة من الله.

11- أما الأسباب أو البواعث الفائقة فهي: كراهية العالم مع أن النفس لم تُصب بأي خيبة أملٍ فيه؛ والرغبة في التوبة والوفاء عن الخطايا المرتكبة قبلاً؛ ورجاء الحصول على السماء بسهولة أعظم؛ وسعادة العيشة المشتركة في مأمن من أخطار العالم وأسباب الخطيئة؛ وضمانة إتمام مشيئة الله في كل شيء بواسطة الطاعة؛ والرغبة في إرضاء الله وبذل الذات له شكراً على ما منحنا من الخيرات وأظهر لنا من الحب؛ والغيرة على خلاص النفوس.

12- أما الأسباب الطبيعية، فمنها: الهرب من مذلة كبيرة؛ الستياء الشديد من عدم النجاح في مشروع... فإن الله كثيراً ما يستخدم هذه الأسباب ليجذب النفوس إليه.

قال القديس فرنسيس السالسي: حاجة إلى القلق بشأن مصدر الحركة الأولى في الميل إلى الحياة الرهبانية. فإن للرب طرقاً عديدة يدعو بها خدّامه. فأحياناً يستخدم الوعظ، وأحياناً مطالعة الكتب الصالحة. والبعض يُدعَون بسماعهم أقوال الإنجيل؛ وآخرون فيما بين الأحزان وخيبات الأمل وهموم العالم، فيجدون في ذلك كله باعثاً يدفعهم إلى هجره. هؤلاء الآخرون، وإن جاءوا إلى الله بواسطة كره العالم واستيائهم منه، يبذلون مع ذلك ذواتهم للرب بإرادة كاملة تامة، وكثيراً ما يصيرون أوفر كمالاً وقداسة من الذين كانت دعوتهم ظاهرة. مثال ذلك قصة ذلك النبيل الذي ركب يوماً حصانه الجميل وفي قصده أن يباهي بهيئته الجميلة، فانقلب عن ظهر الحصان ووقع في الحمأة. فنهض وقد إتسخ وعلاه الوحل. فخجل لهذا الحادث خجلاً شديداً حتى أنه قصد في الحال أن يدخل الدير وينتحل العيشة الرهبانية. فقضى فيها حياة القداسة، ومع أن دعوته كانت نتيجة إستياء شديد.

13- وهنالك أسباب طبيعية أخرى: مثل الطمع في الحصول على اعتبار أعظم بعد لبس الثوب الرهباني، والأمل بالحصول على وظيفة مكرّمة في الجماعة الرهبانية، أو التمتع بإرتياح أوفر؛ فهذه الأسباب، السيئة الشريرة في حد ذاتها، لا يمكن أن تصير أبداً صالحة. فإذا إنتحلت نفس الحالة الرهبانية بتأثير هذه الأسباب، فيمكنها أن تتوقع وخز الضمير ومتاعب لا تنتهي إلا بعد توبة طويلة وأحياناً قاسية جداً.

14- لا ريب أن الخلاص ممكن لنفس دخلت الدير بدون دعوة؛ لكنه عسِر جداً ويقتضي خضوعاً صارماً للمرشد الذي تبوح له النفس بزلّتها.

15- العلامات التي تدل على أن الميل إلى العيشة الرهبانية هو من الله هي: الثبات بالرغم من كل الموانع – السلام الذي تتركه في النفس المعاكسات الخارجية وكراهيات الطبيعة – العيشة الأقرب إلى الطهر والخضوع والدقة في إتمام الواجبات.

16- أيّاً كانت الأسباب والبواعث الدافعة إلى العيشة الرهبانية، من الضروري:

1. عرضها ببساطة على مرشد فطِن مستنير، حرّ من كل تأثير ومن كل اعتبار بشري في أحكامه، مملوء إجلالاً للحياة الرهبانية وحائز بعض الخبرة فيها. فإذا كان للمعرّف هذه الصفات، فهو الذي تساعده النعمة على إكتشاف الدعوة وتمييزها.
2. الصلاة، لأن دخول الرهبانية ليس أمراً زمنياً تكفي فيه الفطنة البشرية وحدها لتقودنا بحكمة، بل هو أمر روحي فائق الطبيعة، أبدي، له من الأهمية ما يلزم باستخدام كل الوسائل الفائقة الطبيعة التي تتنازل العناية الإلهية وتضعها تحت تصرفنا لئلا نُخدع ونغلَط في تقريرنا بشأنها.

(3) في الأدلة العادية على دعوة إلهية إلى الحالة الرهبانية

17- الدليل الأول: الرغبة في هجر العالم وإنتحال العيشة الرهبانية بدافع الشوق الصادق إلى خلاص النفس بأمان أعظم. هذا الدليل يزداد قوةً إذا أُضيف إليه الشوق إلى الشغل لمجد الله، بالاشتراك الفعال المباشر في خلاص النفوس.

الدليل الثاني: الرغبة في السعي إلى الكمال بإنتحال المشورات الإنجيلية التي يقدّمها يسوع المسيح كوسائل للبلوغ إلى الكمال، والرغبة في التعلّق بيسوع المسيح تعلّقاً أوثق.

الدليل الثالث: الرغبة في التضحية ليسوع المسيح، لإرضائه وشكراً على نعمه، بالحياة والأعضاء والقوى والقلب والإرادة كلها.

الدليل الرابع: التأثر، بسكينة وبدون حماسة، من الفوائد الروحية المنوطة بالسيرة الرهبانية، حيث، كما يقول القديس برنردس، "الحياة أطهر، والسقوط أندَر، والنهوض أسرع، والنعمة أغزر، والميتة أقدس، والمكافأة أوسع".

الدليل الخامس: الشعقر بنفور واضح من الزواج، وإن لم يدرك □احب الشعور الباعث على هذا النفور، وتصميم النية على عيشة العزوبة.

الدليل السادس: الإندفاع البديهي الغريزي إلى العيشة الرهبانية، لا عن تحمس أو عاطفة، ولا عن لياقة، ولا عن مودة لشخص نلتقي به الدير؛ على أن يكون هذا الإندفاع ثابتاً من مدة غير يسيرة ولم تزلزله أو تزعزه معرفة الأحزان والمحن الملازمة خصو□اً لهذه الحياة، ولا البراهين التي قُدّمت للتحويل عن العزم، ولا المعاكسات التي □ودفت في تحقيقه.

الدليل السابع: الرجوع دوماً إلى فكرة الحياة الرهبانية من المحَن والازمات الصعبة التي يسمح الله بأن تمرّ بها النفس، وقد بدا في أثنائها أن النفس تريد أن تعدِل عن عزمها.

إن في حياة النفوس المدعوَّة جدياً إلى العيشة الرهبانية، أوقاتاً هي في بعض الأحيان أزمات هائلة. قالت القديسة تريزيا: "إن نفسي قد شعرت بنزاع سرّي عندما غادرتُ والدي". ففي هذه الأوقات يبدو لنا أن الله لا يريدنا، وأن الافتراق الذي طالما فكّرنا فيه مستحيل، وأن كل شيء يستيقظ فينا وحولنا ... إلخ. علينا أن ندع هذه الساعات الممزقة تمر، وأن ننتظر رجوع السكينة والعدوّ والصواب لنقرّر مصيرنا.

الدليل الثامن: يقين داخلي أن الله يريدنا في الحياة الرهبانية، وأنه يطلب منّا هذه التضحية، وأن خلاصنا أهلنا منوطان بهذه التضحية.

الدليل التاسع: الضمانة الأكيدة أن صحتنا كافية لتحمل ما ينتظرنا من المتاعب، وأن أميالنا وذوقنا لن تجد في الدير ما يعاكسها كثيراً، بل أننا سنجد هنالك عملاً موافقاً لمؤهلاتنا واستعداداتنا وطبعنا.

الدليل العاشر:رضى مرشد فطِن كشفنا له حالة نفسنا، وأجبناه ببساطة كل مرة أراد أن يسألنا، وخضعنا له في كل امتحان رأى موافقاً أن يمتحننا به، ولم نسع قط أن نؤثر فيه بوجه من الوجوه.

ملاحظتان: 1. ليس ضرورياً أن تتحقق في الشخص الواحد كل الأدلة التي بسطناها. ومع ذلك بقدر ما تكثر الأدلة يزداد التأكد أن النفس مدعوة للحياة الرهبانية.

2. الدعوة الرهبانية أمر شخ□ي يجب أن يُنظر فيه في التأمل بين النفس والله. والمعرِّف والمرشد لا يتدخلان فيه إلا لتعليم النفس كيف يجب أن تسلك، وأن تفحص الأسباب الدافعة إليها، وكيف يجب أن تتبع مجرى النعمة...

فمتى ساعد المعرِّف أو المرشد النفس بن□ائحه وأنارها بأنواره، عليه أن يدَع النفس حرة كل الحرية في عملها.

(4) واجب إتباع الدعوة

18- ليس، بوجه عام، إلزام بحـ□ر المعنى تحت طائلة الخطأ القيل، يقضي بإنتحال العيشة الرهبانية، لأن هذه الحالة هي من باب المشورة. بيد أن مقاومة دعوة الله التي أثبتها مرشد الذمة، تهيئ للنفس حياة يملأها وخز الضمير والمتاعب والقلق، وفيها ما يعرّض النفس لخطر الهلاك.

يضيف القديس الفونس دي ليغوري إلى ما ذكرناه ما يلي: "إذا كان شخص مقتنعاً أنه سوف يهلك في العالم، إما لضعفه فيما بين الظروف الخطير، أو لفقدانه المساعدات القوية التي دبّرتها لع السماء في العيشة الرهبانية، فهذا الشخص لا يُعذر من الخطأ المميت إذا عرَّض نفسه، بملء اختياره، لخطر الهلاك برفضه تلبية دعوته".

ويقول لسِّيوس: وإن لم يكن خطيئة في عدم تلبية الدعوة، فهذه المقاومة للنعمة هي في الغالب مبدأ حياد كثير عن النظام وخطوة أولى في طريق الهلاك.

19- إن الوالدين الذين يقاومون صريحاً دعوة أولادهم الأكيدة ويمنعون دخولهم في الرهبانية يخطأون خطأً مميتاً، وإذا كانت الطالبة فتاةً فالمجمع التريدنتيني يهدّدهم بالحرم أيضاً.

20- يستطيع الأهل مع ذلك أن يفحـ□وا ويمتحنوا بفطنة دعوة أولادهم، بيد أن هذا الامتحان لا يمكن أن يدوم أكثر مما تطلبه الفائدة الـ□وابية.

21- إن قلة إيمان الوالدين، ومقاومتهم القليلة الـ□واب، وتعلّقهم البشري المفرط، تُتيح للولد الراشد البالغ أن يغادر أسرته بالرغم منها وأن يدخل في جماعة رهبانية.

22- يُرشق بالحرم كل شخص يغـ□ب فتاة على دخول دير ولبس الثوب في منظمة رهبانية وإبراز النذور فيها. ويُرشق بالحرم نفسه كل شخص يمنع فتاة عن تلبية دعوتها، بغير التوسلات. ولا يقع الغاصب تحت الحرم إذا كانت الجماعة الرهبانية ذات نذور بسيطة. بيد أن الخطيئة تكون في هذه الحالة أيضاً ثقيلة.

(5) لبس الثوب

23- لا بدّ للفتاة أن تقضي في الجماعة الرهبانية مدة طويلة أو قـ□يرة قبل أن تلبس الثوب الرهباني، على حسب ما تحدّده الفرائض استعداداً للابتداء. وتُدعى حينيذٍ طالبة.

24- لا تستطيع الطالبة أن تُلبس الثوب الرهباني في دير، ما لم تكن:

1. معمَّدة ومثبتة، بيد أن التثبيت ضروري لإبراز النذور فقط لا للدخول في الابتداء.
2. ما لم يكن لها العمر الذي حدّده المجمع الترِيدنتيني، أي 15 سنة كاملة للبس الثوب، و16 سنة كاملة لإبراز النذور.
3. ما لم يفحصها قانونياً الاسقف أو مندوب من قبله يلقي عليها الأسئلة المفروضة.
4. إذا كان أهلها بحاجة مطلقة إليها لعيالتهم، إو إذا كانوا بدون عونها ملتزمين أن يلتجئوا إلى الجمعيات الخيرية أو إلى مستشفى ليُعتنى بها هناك؛ أو إذا كانت ضرورية لعيالة إخوتها وأخواتها الصغار في سن دون سن البلوغ.

تلك هي المبادئ العامة المعوّل عليها في المنظمات الرهبانية والمتبعة في سائر الجماعات الرهبانية. وهنالك شروط أخرى تفرضها فرائض بعض الرهبانيات، فيجب أن تخضع لها الطالبة الدخول في تلك الرهبانيات.

(6) في الابتداء

25- الابتداء هو الوقت الذي تتأهب فيه النفس للحياة الرهبانية، بدرسها وممارستها القوانين المثبتة، لترى هل الرهبانية توافقها، ولترى الرهبانية هل المبتدئة توافقها.

26- يجب أن يدوم الابتداء سنة كاملة. ويجب أن تفهم هذه العبارة "سنة كاملة" بحصر المعنى الشديد، بحيث إذا نقصت السنة بضع ساعات فقط كانت النذور غير صحيحة. ويستطيع الرؤساء أن يُطيلوا هذه المدة، ولكن لا إلى أكثر من ستة أشهر.

27- في حالة خطر الموت يمكن قبول المبتدئة لإبراز نذورها، أيّاً كان الوقت الذي قضته في الابتداء، بشرط أن يكون لها من العمر ست عشرة سنة كاملة. بيد أن هذه النذور التقوية لا تربط الرهبانية بالمبتدئة كالنذور القانونية المبرَزة في وقتها. فإذا زال عن المبتدئة خطر الموت وجب عليها أن تتمّ ابتداءها ثم تنذر من جديد نذورها القانونية.

28- ينقطع الابتداء فيجب أن يباشر به مجدّداً وأن يُتمّ إذا أطلقت الرئيسة سبيل المبتدئة وخرجت هذه من الدير؛ أو إذا هجرت المبتدئة الدير دون إذن الرئيسة وفي نيتها ألاّ تعود إليه؛ أو إذا لبثت لأي سبب كان ولو بإذن

الرؤساءء، أثناء سنة الابتداء الأولى خارج الدير أكثر من ثلاثين يوماً متواصلة كانت أم غير متواصلة، ولو كانت لها نية العودة إليه.

وإذا لبثت المبتدئة أثناء سنة الابتداء الأولى خارج سياج الدير، تحت طاعة الرئيسة، أكثر من خمسة عشر يوماً ولكن لا أكثر من ثلاثين يوماً، ولو غير متواصلة، بإذن الرؤساء أو مُكرهةً بالقوة، فلكي يصحّ الابتداء يُقتضى ويكفي أن تعوّض الأيام التي مرّت على هذا الوجه. وإن لم تلبث أكثر من خمسة عشر يوماً فيستطيع الرؤساء أن يفرضوا التعويض، إلا أنه غير ضروري لصحة الابتداء.

29- ليكن مكان الابتداء قدر المستطاع منعزلاً عن القسم الذي تقطن فيه الناذرات، فلا يكون للمبتدئات دون سبب خاص وإذن الرئيسة أو المعلّمة أي إتصال كان بهنَّ، ولا لهؤلاء بالمبتدئات.

30- لا يمكن أن يُقتضى شيء بدل نفقات الطلب أو الابتداء ما لم تُستدرك في الرسوم أو في إتفاق صريح تأدية شيء بداعي القوت والثوب الرهباني حين الدخول في الطلب أو في الابتداء.

(7) واجبات المبتدئات

31- في ما يتعلق بالعفة، ليس على المبتدئة واجبات غير التي كانت مفروضةً عليها قبل دخولها في الابتداء. فقد تزداد خطيئتها ثقلاً، بالنظر إلى وفرة النعم التي تنالها وإلى معرفتها واجبتها معرفة أكمل؛ بيد أن جنس الخطيئة ونوعها لا يتغيّر.

32- في ما يتعلق بالفقر، للمبتدئة في أملاكها الخاصة الحرية التي كانت لها قبل الابتداء. ولا يقيّد هذه الحرية إلى القانون. فإذا تصرفت بشيء بدون إذن تخالف القانون لكنها لا تخالف فضيلة الفقر.

أمّا أملاك الرهبانية وأموالها، فلا تستطيع أن تمتلك منها شيئاً ولا يحق لها أن تتصرف إلا بما هو تحت تصرفها وفي استعمالها. فإذا أخلّت بشيء من هذا القبيل كانت مذنبة بزلة ضد العدل، وقد تأثم إثم إنتهاك القدسيات إذا حوّلت لمنفعتها خيرات وأموالاً متخصصة لله. إنما يجب الانتباه إلى أن خطيئة إنتهاك القدسيات هذه يمكن أن لا تكون مميتة، سواء كان ينقصها التروّي الكافي أم كانت مادتها خفيفة.

33- في ما يتعلق بالطاعة، ليست المبتدئة ملتزمة بحصر المعنى وتحت طائلة الخطأ أن تطيع أمر الرئيسة أو تطيع القانون، لأن هذا الواجب أو الإلزام ينشأ للراهبة من نذر الطاعة ومن الوعد المتضمن في هذا النذر، والمبتدئة لم تنذر بعد.

34- بيد أن العصيان يمكن أن يصير خطأً ثقيلاً ضد المحبة إذا كان سبب عثرة للأخوات، أو إذا أدخل في الجمهور التراخي في حفظ القوانين والإنحطاط في حبّ النظام. ويمكن أن يكون العصيان خطيئة ثقيلة أو خفيفة لأنه إنكار للعهد الضمني الذي أخذته المبتدئة على نفسها، عند دخولها الدير، بأن تحفظ القوانين وتطيع الرئيسة وتحفظ النظام.

35- أيّاً كانت واقعية أو خطورة الخطيئة التي يمكنها أن تقترفها المبتدئة، فهي ملتزمة بأن تقبل العقاب المفروض عليها لكونها تعدّت القوانين.

36- كل مبتدئة تستطيع أن تغادر الابتداء في أثنائه من غير أن تخطئ البتة، بشرط أن تسلك بفطنة. وبوجه عام يجب أن لا تفعل ذلك من غير أن تستشير رؤساءَها وتنال رضاهم.

37- تلتزم المبتدئات، من باب المحبة والأمانة، وقد يقرب من باب العدل أيضاً، بأن يصلّين الصلوات المعينة في الجمهور لأجل المؤسسين والمحسنين. أما الصلوات المأمور بها لأجل الراقدات من الرهبانية، فالعدلُ يقضي عليهن بأن يصلّينها، بما أن الجمهور ملتزم بها نحوهنَّ إذا توفَّاهنَّ الله.

(8) امتيازات المبتدئات

38- إن المبتدئات يتمتعن، بوجه عام، بكل الامتيازات الممنوحة للجماعة الرهبانية التي إنتمينَ إليها بشرط أن لا تكون هذه الامتيازات محفوظة للناذرات.

39- ويشتركن في الغفرانات والإنعامات الروحية الممنوحة للرهبانية. ولسنَ بملتزمات مدة الابتداء بوفاء النذور الشخصية التي نذرنها قبل دخولهن في الابتداء إذا كانت هذه النذور تأتلف وقانون الدير، فتكون هذه النذور حينئذٍ معلقة.

(9) إبراز النذور

40- إبراز النذور عقد به تقدم المبتدئة ذاتها لله في جماعة رهبانية أثبتتها الكنيسة، وتنذر صريحاً النذور الثلاثة، الفقر والعفة والطاعة، وفقاً للقانون والفرائض.

41- لكي تنذر المبتدئة، يجب: 1. أن تكون حرة وتعمل بملء إرادتها، تحت سلطة الرؤساء الذين يقبلون تكريسها باسمه تعالى ويولونها هكذا الحق بأن تكون عضواً في الرهبانية وأن تشترك في الفوائد التي تتمع بها. 2. أن يكون لها من العمر ست عشرة سنة كاملة. 3. أن تسبق نذورها سنة ابتداء كاملة. 4. أن تكون مرتبطة بتعهد آخر سابق يزال كائناً، سواء بالزواج أم بالنذر في رهبانية أخرى قانونها أكمل من الرهبانية الحاضرة. 5. أن يمنعها مانع يخالف نُظُم المنظمة أو الجماعة الرهبانية التي تنخرط فيها.

42- إبراز النذور يجعل الناذرة عاجزة عن قبول سرّ الزواج. فإذا قبلته كان غير صحيح إذا كانت نذورها احتفالية؛ وكان صحيحاً ولكن إنتهاك قدسيات إذا كانت نذورها بسيطة. ثم أن إبراز النذور يجرّد الراهبة من كل الحقوق الشخصية التي تأتلف مع نذرَي الفقر والطاعة كما يُنذران في الرهبانية. ويضع الناذرة تحت إمرة القانون والرؤساء. ويفرض عليها واجب ممارسة قوانين الرهبانية، بحسب ما تحدّده هذه القوانين عينها. ويولي الرهبانية حقّ إرشاد وقيادة أعمال الراهبة بواسطة سلطة الأشخاص المكلّفين بإدارة الرهبانية.

43- إن إبراز النذور في منظمة رهبانية أو في جماعة رهبانية ذات نذور بسيطة ولكن دائمة علّق بها الحبر الأعظم الإنعامات الخاصة بالنذور الاحتفالية، يغفر العقوبات الزمنية التي تستوجبها الخطايا. ويُتيح للرئيسة أن تبدّل النذور التي عاهدت بها الراهبة الله قبل نذورها الرهبانية[9] ويجعل الراهبة الناذرة شخصاً يجوز التعدي عليه (فيقع في

[9]إن النذور الرهبانية، البسيطة والاحتفالية، تفوق بقوتها وامتدادها النذور الخاصة التي يتعهد بها الإنسان في العالم. ورأى القديس توما أن السبب في ذلك هو أن النذور الرهبانية تتضمن النذور الخاصة.

الحرم كل شخص يضرب الراهبة ضرباً ظالماً ومؤلماً جداً). ويعتقد أرباب القانون عموماً أن ذلك يتم أيضاً حتى إذا كانت الراهبة تنتمي إلى رهبانية بسيطة لم يثبتها سوى الأسقف المحلي. ثم أن إبراز النذور هذا يلزم الراهبة الناذرة بأن لا تغادر رهبانيتها من غير إذن يمنحه البابا وحده لذوات النذور الاحتفالية وذوات النذور الدائمة البسيطة في الرهبانيات الحبرية، ما لم يُعطَ أسقف الأبرشية سلطة واسعة بهذا الشأن. ويستطيع الأسقف المحلي أن يأذن في الرجوع إلى العالم إذا كانت الرهبانية لم يثبتها الكرسي الرسولي. (ويجب الإلتجاء دوماً إلى الحبر الأعظم للإعفاء من نذر العفة الدائمة).

(10) في النذور

44- النذر وعد اختياري به تعاهد النفس الله على شيء يكون إتمامه خيراً من عدم إتمامه. وهو على نوعين: النذر الفردي الخاص، ويكون بين الله والنفس وحدهما ولا يُلزم إلا بحسب إرادة الناذر؛ والنذر الرهباني الذي تبرزه النفس في جماعة رهبانية لتصير عضواً في هذه الرهبانية، وهو يلزم بحسب ما تحدّده قوانين تلك الرهبانية وفرائضها. فإذا أبرزت الراهبة نذورها واستثنت شيئاً في داخلها أو في الخارج، فهي تخطئ وتظل مع ذلك ملتزمة بإتمام كل الواجبات التي تفرضها قوانين الرهبانية.

45- تكون النذور الرهبانية إمّا وقتية أي لوقت معيّن، أو دائمة أي تدوم حتى الموت. وتكون بسيطة أو إحتفالية بحسب ما تكون الرهبانية قد نالت من الحبر الأعظم تثبيتها بناءً على أن النذور تكون فيها بسيطة أو إحتفالية. ومن هنا يبدو أن بساطة النذور وإحتفالها يتعلّق بطريقة تثبيت الرهبانية وبما يعلنه الحبر الأعظم بشأنها.

إن صبغة النذور الاحتفالية تجعل الإعفاء منها على جانب كبير من الصعوبة، فضلاً عن بعض تفاصيل أخرى تتعلق بالفقر والعفة سوف يأتي الكلام عليها. فالحبر الأعظم وحده يستطيع، في بعض الأحوال النادرة جداً، أن يعلن باسم الكنيسة أن النذور الاحتفالية ما عادت مُلزمة.

46 و47- (لا داعي لذكرها لأنه يتعلق بالرهبانيات الفرنسية)

النذور الرهبانية تضع حداً لكل الممارسات المفروضة من شركات أو جمعيات أو أخويات خاصة قد إنتمى إليها الناذر وهو في العالم، ولكل ممارسة تخرج عن نطاق الرهبانية. وتنزع كل قوة من النذور الخاصة التي تنذرها الراهبة بدون إذن من بعد نذورها الرهبانية.

48- إن النذور الدائمة في رهبانية ذات نذور بسيطة يمكن أن يُعفي منها الأسقف المحلي إذا كانت القوانين غير مثبتة من قبل الكرسي الروماني. وأما إذا كانت الرهبانية مثبتة في روما أي رهبانية حبرية، فيجب نيل الإعفاء من الكرسي الرسولي، وما لم يُعطَ الأسقف المحلي سلطةً خاصةً لذلك.

49- إن الإعفاء من نذر العفة الدائمة يقتضي الإلتجاء إلى الحبر الأعظم وإن لم تكن القوانين مثبتة من الكرسي الرسولي (هذا في الشرع الغربي القديم. أما عندنا نحن الشرقيين فلا ذكر لشيء من هذا في الحق القانوني الجديد).

50- إن النذور الوقتية لا تقيّد الراهبة إلا لمدة معينة في النذر نفسه. فإذا أريد قطع هذه النذور قبل إنتهاء مدتها وجب التقيد بالقواعد المتعلقة بالنذور المتعلقة.

51- تعدّي النذر أمر ثقيل من طبيعته. ولا يكون خطأً خفيفاً إلا إذا كانت المادة خفيفة أو الرضى غير تام.

52- إن إتمام فعلٍ بقوة النذر يولي هذا الفعل استحقاقاً مضاعفاً. فعلى هذا النحو يكون لفعل الطاعة الصادر من راهبة استحقاق الطاعة بحد ذاتها واستحقاق فضيلة الديانة التي يتعلّق بها النذر. وللسبب عينه يكون في تعدّي النذر خطيئتان: خطيئة ضد الوصية المتجاوَزة، وخطيئة حنث ضد النذر أي ضد فضيلة الديانة.

(11) في نذر وفضيلة الفقر

53- إن نذر الفقر ينهى عن حق الامتلاك والتمليك؛ وإذا ظلّ هذا الحقّ، فالنذر يمنع كل فعل امتلاك أو تمليك.

لا سبيل إلى تحديد دقيق في تعيين ما يتجرد منه الراهب الفلاني بنذر الفقر، لأن هذا النذر يختلف في شدته بين رهبانية وأخرى بحسب قوانينها. فلا بدَّ إذن من النظر إلى كل قانون في كل دير لتحديد مدى النذر الذي يُنذر فيه.

54- إن نذر الفقر الاحتفالي يجعل الناذر عاجزاً، حتى إذا أذن لهُ الرئيس، عن أي امتلاك شخصي لأي خير زمني كان يمكن أن يُثمَّن بالمال، وعن التصرّف كسيّد مالك، بالخيرات التي في استعمال الناذر. أما النذر البسيط فيمنع فقط الاستعمال والتصرف الجائز بالخيرات الشخصية من غير إذن صريح أو ضمني من الرئيس.

أما الشرف والصيت والمؤلَّفات الشخصية، فلا تُعَدّ بين الخيرات الزمنية.

55- تتناول مادة نذر الفقر، في جماعة رهبانية ذات نذور بسيطة، ما يلي:

كل الاموال المنقولة أو غير المنقولة التي لا تخصّ الراهب البتة؛

كل ما وهبه الراهب للرهبانية، كجهازه وغير ذلك من الهبات المجانية. (فالمبتدئة التي تخرج أو تُصرَف من الرهبانية قبل نذورها، بوسعها أن تسترجع كل ما أتت به عند دخولها الدير، ما خلا نفقات عيالتها أي طعامها)؛

كل ما يصل إليها من هدايا، سواء من باب الصدقة أم من باب المودّة وعرفان الجميل؛

كل ثمرة شغلها ومهارتها وأرزاقها الموروثة عن أهلها؛

كل فعل امتلاك بشأن خيراتها العيلية، التي لا تستطيع التصرّف بها من غير إذن رؤسائها.

56- ومن ثمَّ:

1. لا تستطيع الراهبة أن تحتفظ بأي كمية كانت من الدراهم، مهما كانت ضئيلة وغير مهمة.

2. لا تستطيع أن تقبل أي أمانة وتعاهد غيرها على أن تؤدي حساباً عمَّا هو مستودَع عندها، في حال زواله، لأن فعلاً كهذا يُعدُّ عقداً حقيقيّاً.

3. لا تستطيع أن تقبل شيئاً باسمها الخاص، لا من أهلها ولا من أصدقائها، ولا من أي شخص آخر، لأي علَّة كانت، لا كأجرٍ لخدمة تؤديها ولا كهدية محضة. فما تناله على هذا النحو يجب أن يوضع بين يدي الرئيسة التي تتصرف به كما ترى موافقاً.

4. لا تستطيع أن تُعطي الفقراء ما حرمت نفسها منهُ من طعامها الخاص، لأن ما لم تتناوله يخصّ الرهبانية ولا يخصها، ما لم تُعطَ كمية معلومة من الأطعمة مع إذن صريح في أن تتصرف بما يفضل عن حاجتها للمشاريع الخيرية، ومن غير أن تؤدي عنه حساباً.

5. لا تستطيع أن تخفي الثياب والكتب والأدوات الخ. التي في استعمالها خشية أن يطلبها منها الرؤساء.

6. لا تستطيع من تلقاء ذاتها أن تبدّل مع أخواتها ما أُعطيَته من الأشياء لاستعمالها.

7. لا تستطيع أن تتصرف بما كلِّفت أن توزعه خلافاً لمشيئة رئيستها وترتيباتها. فإذا أعطت أكثر أو أقل مما عُيّن لها، أو أحسن أو أردأ، بحسب ميلها وهواها، فهي تسلك سلوك السيدة. وقد يتمّ ذلك من قبل وكيلة، أو موزعة غسيل، أو ممرِضة... تقودهنّ العاطفة والمودّة أو النفور والكراهية.

8. لا تستطيع أن تعطل أو تتلف أو تحوّل ما هو لاستعمالها أو للاستعمال الفلاني.

9. لا تستطيع أن تعير غيرها ما قبلته لاستعمالها، ما لم يكن من الأشياء الثانوية التي يحتاج إليها الجميع وهي تحت تصرف الجمهور كله. في هذه المبادلات أو الإعارات يجب أن يُتجنَّب معاً التراخي الاهمال، والشدة والقساوة. فمتى طلبت أخت شيئاً من أختها، فالمحبة تقضي عموماً بأن تقدِّر المطلوب منها أن الطالبة حاصلة على السماح الضروري.

10. لا تستطيع، بلا إذن، أن تتخلَّى عن التركات والمواريث العائدة إليها، لأن هذا التخلي يكون فعل امتلاك.

يقول المنسنيور بوفييه إن هذه القرارات موجهَّة إلى الراهبات المقيدات بنذر الفقر البسيط كما إلى المقيدات بالنذر الاحتفالي؛ مع هذا الفرق الذي أشرنا إليه أن مخالفتها تكون عملاً غير جائز عند الفريق الأول، وعملاً غير جائز وغير صحيح عند الفريق الثاني.

57- كل إذن صحيح، أي يمنحه من لهُ هذا الحقّ، وجائز أي ممنوح لأسباب حسنة، يمنع الخطيئة ضد النذر.

58- يكون الإذن: صريحاً إذا مُنح بوضوح، شفهيّاً كان أم خطيّاً.

وضمنيّاً إذا كان متضمناً في إذن آخر ممنوح سابقاً. فالإذن الممنوح لشراء شيء ما يتضمن الإذن في إنفاق ما لم يلزم لذلك؛ ويكون الإذن ضمنيّاً أيضاً إذا مُنح بواسطة صمت الرئيس الذي يترك المرؤوس يجري كما يريد، مع أنه قادر أن يمنعه بسهولة.

ويكون الإذن خاصّاً إذا مُنح لظرف واحد؛ وعامّاً إذا مُنح لكثيرين في ظرف واحد أو لشخص واحد لظروف كثيرة متشابهة.

ويكون الإذن مقدَّراً إذا قُدّر أنه كائن في إرادة الرئيس، إذ يُحكم بصواب أن الرئيس لا يرفضه لو طُلب منه. هذا الإذن المقدّر لا يكون جائزاً وصحيحاً إلا في حالة الضرورة وعندما يتعذّر الإلتجاء إلى الرؤساء. فقد يَحدث أن يقع الراهب في ظرف لم يكن بوسعه أن يعرفه سلفاً، وأن يكون العمل في هذا الظرف عاجلاً لا يمكن تأجيله. ففي هذه الحال إن لم يكن قادراً أن ينتظر جواب الرئيس، وإذا بدا لهُ أن رئيسه كان أذن في العمل لو كان حاضراً، فما على الراهب إلا أن يعمل ثم يخبر رئيسه بما جرى.

59- لا تستطيع رئيسة أن تأذن إذناً لا سبيل إلى الرجوع عنهُ.

60- تعدّي نذر الفقر خطيئة يختلف ثقلها باختلاف مادّتها. ما يكفي لتكوين خطيئة ثقيلة في باب السرقة يكفي لتكوين الخطيئة الثقيلة عينها في باب نذر الفقر.

61- فضيلة الفقر أوسع نطاقاً من النذر، لأنها تنظم حتى الاشواق والرغبات، وتحمل القلب على التجرد من كل تعلق بالخيرات الزمنية. لذلك بوسع الراهبة أن تخطأ ضد فضيلة الفقر من غير أن تتعدَّى نذرها. فالنذر يُفرغ اليد، أما الفضيلة فتفرغ القلب.

62- يمكن أن تخطئ الراهبة ضد فضيلة الفقر، من غير أن تتعدَّى النذر، بحسرات أو بأشواق مضادّة لهذه الفضيلة؛ بتعلق غير مرتب بما هو لاستعمالها، سواء كان كتاباً أم مسبحة أم سواها، لأن العاطفة (التعلق) هي التي تكوّن الخطيئة؛ أو باستعمال الكماليات النافلة، أي أشياء لا فائدة منها أو ثمينة وأنيقة بإفراط[10] الخ...

63- يجب أن تمارس فضيلة الفقر في المسكن، بحيث لا تطلب الراهبة دوماً ما هو أجلب للراحة أو ما لهُ ظاهر جذَّاب؛ وفي أثاث القلالي، بحيث لا يكون للراهبة إلا الاثاث الكافي، البسيط، الخالي من الفنّ؛ وفي اللباس، الذي يجب حفظه بسيطاً ونظيفاً ومشابهاً لما يلبسه الآخرون؛ وفي الأطعمة، بحيث لا تطلب الراهبة الاَّ ما هو نافع للصحة؛ وفي الاسفار، بحيث لا تنجز منها إلا ما كان ضروريّاً أو مفيداً، ولا تسافر بدون داعٍ في المحلات (والدرجات) الأولى؛ وفي استعمال الوقت، بعدم ضياعه وباستعماله على حسب ما يطلب القانون؛ وفي الهدايا التي يُسمح لها بتقديمها بتجنبها التبذير والإفراط في ثمنها وباختيار ما قد يكون منها مفيداً للنفس.

هذا، وإن راهبةً تجتهد في إتباع العيشة المشتركة بدقّة لا تخالف فضيلة الفقر إلا نادراً.

إن علَّة معظم المخالفات لفضيلة الفقر هي استعمال المال الشخصي والهبات التي يقدّمها للراهبة أهلها أو ذووها. فهذا التعدّي يجب على الرئيسات ويحق لهنَّ أن يعملن على إبادته من الرهبانية.

(12) في نذر وفضيلة العفة

64- إن نذر العفة يفرض على □احبه واجبين: الأول، واجب التخلي عن الزواج؛ والثاني واجب تجنب كل فعل ظاهر أو باطن تنهى عنه الو□يتان السادسة والتاسعة.

65- هذا البند ليس لهُ ما يقابله في الحق القانوني الشرقي حيث يستطيع الرئيس المكاني أن يحلّ من نذر العفة الدائم من غير الإلتجاء إلى الكرسي الرسولي.

[10] لكي يستدرك خطر هذه التعلقات المفرطة بتوافه تربّك القلب، أراد القديس فرنسيس السالسي أن تجمع راهبات الزيارة كل سنة ما لديهنّ من كتب ومسابح و□لبان وأيقونات و□ور، ثم توزع الرئيسة هذه الادوات على الجميع من غير ما تمييز.

66- إن الخطيئة الثقيلة التي تقترفها الراهبة ضد العفة هي أولاً خطيئة مميتة ضد الوصية السادسة والتاسعة، ثم خطيئة إنتهاك قدسيات بسبب نذرها. وإذا كانت الخطيئة علنية يُضاف إلى الخطيئتين السابقتين خطيئة أخرى ضد المحبة هي خطيئة تعثير أو تشكيك المؤمنين: وخطيئة رابعة ضد الرهبانية التي تنحطّ كرامتها وشرفها.

67- يمكن أن تكون الخطايا المخالفة للعفة أفعالاً داخلية ثمرة أشواق وأفكار وذكريات وتصوّرات ومودات عاطفية رقيقة وصداقات حسية مثيرة للأهواء؛ أو أفعالاً ظاهرة خارجية ثمرة الحرية: في النظر لرؤية أو مطالعة أو طلب ما هو خطر أو مثير للشهوة، أو في السمع، لسماع ما لا يليق أو التمليقات أو المديح المشكوك فيه أو العبارات الحاوية رقة عالمية أو الاغاني الحاملة على الإرتخاء الحسيّ؛ أو في اللسان، للتلفظ بأقوال ذات معنيين، أو غير لائقة، أو بأغاني عالمية الخ...، أو في اليدَين فيُتاح لهما لعِب أليف غير لائق وبعض مظاهر المودّة المهيّجة أو بعض أفعال غير لائقة...

68- إن الفعل الذي قد يبدو غير أثيم في شخصٍ عالمي يمكن أن يكون خطيئة ثقيلة في النفس الرهبانية بسبب ما يتبعه من المعثرة والشك في المؤمنين.

69- الوسائل للمحافظة على نذر وفضيلة الطاعة هي الصلاة، والعبادة للإفخارستية وللعذراء القديسة، ثم الوسائل التالية: صيانة الحواس ولا سيما النظر؛ والهرب من البطالة، والهرب من أسباب الخطيئة حالما ينبهنا ضميرنا أن فيها خطراً علينا؛ والسرعة في صدّ التجربة مهما كانت خفيفة؛ وتجنب الصداقات الحسية، حتى تلك التي تبدو لنا على جانب عظيم من القداسة، حالما يرتخي لها قلبنا؛ والتحفظ في المناجيات الروحية، والتلوّن في العبارات التي يوحي بها إلينا قلبنا للتعبير عن شكرنا؛ والقناعة؛ وأخيراً فتح القلب وكشف الضمير لمن هو مسؤول عن إرشاد نفسنا.

70- إن فضيلة العفة، التي هي حارسة نذر العفة، تحمل الراهبة على استعمال اللذات الجائزة باعتدال، وأحياناً على حرمان النفس منها، إذا أمكنها ذلك من غير أن يُلاحظها غيرها.

والآن هذه بعض علامات وأدلَّة يستدلّ منها على أن المودة أو العاطفة طبيعية بإفراط وقد صارت خطرة:

1. اللذة المادية التي يُشعر بها عند ملازمة الشخص المحبوب، والحزن الذي يُشعر به عند مغادرته.

2. النظرات الودية التي تُلقى عليه، وإن لم يستطع هو أن يلاحظَها.

3. ما يُشعر به من القلق والجبانة في العمل وهبوط العزم عند غيابه.

4. ما يُشعر به من الحسد عند رؤية الغير يحوّطونه بالمحبة.

5. العمى الذي يجعلنا نجد فيه كل شيء كاملاً.

وهوذا الآن التدابير والتحوطات الواجب إتخاذها، حالما نبدأ نشعر بمثل هذه العواطف الخطِرة:

1. لا نسعَ أبداً لنكلّم الأخت المحبوبة بلا ضرورة.

2. في النُزهات، ترك سائر الأخوات يخترنَ محلهنَّ قبلنا، حينئذٍ قلّما نكون بقرب الأخت المحبوبة.

3. عدم الاهتمام بها باختيارنا، وإبعاد ذكرها عنَّا كفكر مزعج مقلق.

4. تأدية الخدَم لها كما لغيرها، ولكن باعتدال وتأنّ خارجي وداخلي خصو□اً.

5. كبت كل تأثير فرح ينشأ فينا عند رؤيتها بعد غياب طويل أو قصير.

6. إعلام المعرّف بما بذلنا من الجهود في هذا السبيل.

(13) في نذر وفضيلة الطاعة

71- نذر الطاعة هو النذر الذي به يُلزم الراهب نفسه، تجاه الله، بأن يطيع رؤساءه الشرعيين في كل ما يأمرونه به وفقاً للقانون والفرائض.

72- إن القانون هو ركن سلطة الرؤساء. فلا يسعهم أن يأمروا بشيء ضد القانون أو بمعزل عنه. إنما يستطيعون أن يأمروا بكل ما هو ضروري لممارسة القانون بدقة، وبما هو متضمن في القانون، كالعقوبات ضد متجاوزي القوانين، وطريقة القيام بالوظائف، وهلمَّ جرّاً.

فإذا خامر المرؤوس ريب هل الأمر مضادّ للقانون، فيجب عليه أن يطيع، ثم يرفع القضية الى سلطة أعلى.

73- إن نذر الطاعة هو أسمى النذور الرهبانية. هو أشدها ضرورة لخير الجمهور. هو أشرفها، لأنه يسود الحياة كلها ويسيطر على أعظم خيرات النفس الصميمة.

74- إن نذر الطاعة البسيط يجعل غير جائز، أو أثيماً، كل إلزام تبتُّه الراهبة وتضعه على عاتقها من غير رضى رئيستها، لكنه لا يجعل الإلزام ملغيّاً لا قوّة لهُ. أمَّا نذر الطاعة الاحتفالي فيلغي كل إلزام تتخذه الراهبة بدون إذن رئيستها.

75- تخطئ الراهبة خطأً ثقيلاً مميتاً ضد نذر الطاعة كل مرة تعصى عصياناً □ريحاً وفي مادة ثقيلة أمراً أُمرت به بقوة الطاعة المقدسة؛ وعندما تقاوم بتشبثٍ وعناد الرئيسةَ التي تأمرها؛ ومتى نتج من العصيان ضرر جسيم للجمهور، أو للمذنبة نفسها، أو لشخص ثالث.

76- إن القوانين والفرائض لا تُلزم بحد ذاتها تحت طائلة الخطيئة، ولا سيما في الأمور النظامية التي لا تعبر عن الواجبات التابعة للنذور، بيد أن القديس توما يقول إنه لمن النادر أن تُتعدّى القوانين والفرائض بلا خطيئة، من أجل الباعث الذي يحمل على هذا التعدي. وفي الواقع أن مخالفة الطاعة تكون عن كبرياء أو رخاوة حسية أو كسل أو حياء بشري، أو لباعث آخر أثيم. وقد تصير الخطيئة مميتة إذا رافق التعدّي إحتقار للفريضة يؤوَّل باحتقارٍ للسلطة الآمرة به.

77- إن تجاوز القوانين الاعتيادي يكون ذنباً أكبر، لما يتبعه من المعثرة والشكوك وما يجرّه من التراخي على الجماعة الرهبانية.

78- الطاعة واجبة لا للرئيس وحده المتكلم بنفسه، بل لكل الذين نالوا منه سلطةً إذا كان ما يأمرون به من نطاق وظيفتهم.

79- فضيلة الطاعة تقتضي أن يكون الداخل موافقاً للفعل الخارجي؛ أما النذر فلا يقتضي بالحصر إلا إنجاز الفعل الخارجي.

80- لكي تكون فضيلة الطاعة كاملة، يجب أن تكون: سريعة، بلا تأجيل، فتترك الراهبة حالاً ما تفعله وتدَعه غير منهيّ؛ وتامة، فتنجز الراهبة ما أُمرت به حتى التفا□يل الدقيقة؛ وفائقة الطبيعة، فتطيع الراهبة لترضي الله

وتسره كما لو كان الله يأمرها؛ وعمياء، أي بدون تعليل أو إعتراض، (إنما يسوغ للراهبة أن تقدم لرؤسائها الملاحظات التي تراها صوابية، ولكن باحترام وصدق وخضوع)؛ وفرِحة، فتكون سعيدة في طاعتها كمن يفكر أنه يطيع الله ويربح السماء؛ وسخية، غير مكترثة ولا قلقة للصعوبات التي سوف تعترضها وللتضحيات التي يجب فعلها.

81- علاوةً على الخطايا المضادة رأساً للطاعة، هنالك عيوب ونقائص تجرحها وتُعِدُّ النفس للتعديات الصريحة. فمن ذلك الظنون السالفة ضد الرؤساء، والنفور منهم، والتذمرات، والحجج الواهية، والتباطؤ في تنفيذ أوامرهم.

وهنالك أيضاً نقائص أخرى تنْزع من الطاعة ثوابها كله بل تجعل النفس أثيمة. مثال ذلك الطاعة من غير خضوع الإرادة، طاعة خارجية لرفع العتب؛ والطاعة عن خوف كالعبيد لأن الرئيس يراقب؛ والطاعة عن سياسة وحب ذاتي، لتستجلب المرؤوسة المطيعة عطف الرئيسة ورضاها. والقديس برنردس يقول: ليس في هذا كله تمرين على الفضيلة بل ستار نستُر به خبثنا.

2

ملخص مقالة في الحياة الداخلية

(1) في طبيعة الحياة الداخلية

إن الحياة الداخلية هي العيشة العاديّة في حضرة الله والاتحاد به. من عوائد أَصحابها أن ينظروا إلى قلبهم كإِلى هيكل يسكن فيه الله، تارةً ممجداً كما في السماء، وتارةً مختفياً كما في الإفخارستيا؛ وفي حضرة الله يفكرون ويتكلمون ويعملون ويتمّون كل الواجبات المفروضة عليهم.

غاية الحياة الداخلية الهرب من الخطيئة، والتجرد من الخيرات المادية بروح الفقر، ومن اللذات الحسية بالعفة والإماتة، ومن الكبرياء بالتواضع، ومن الفوائد الطبيعية بنقاوة النية، ومن التشتت والتبدد بواسطة جمع الفكر.

إن الحياة الداخلية لها، بوجه عام، أعداؤها المتحفظون تجاهها. فالبعض يخشونها ويحسبونها كحياة إستعباد وتضحيات وقهرٍ، وغيرهم يزدرونها كمجموعة ممارسات دقيقة من شأنها أن تضيّق نطاق العبقرية وتجعل صاحبها بلا فائدة في العالم، فلا تصلح إلا لذوي العقول الصغيرة الضيّقة.

لذلك يتحرز منها الكثيرون ويتجنبون مطالعة الكتب التي تتكلَّم عنها. كثيرون يرومون أن يخدموا الله، لكنهم لا يريدون أن يخضعوا في كل شيء لحركات روح الله. بحيث يكون مرور نفس من حال الخطيئة المميتة إلى حال النعمة وممارسة الفضائل المسيحية الظاهرة، أسهل من مرورها من هذه الحياة المسيحية العادية إلى الحياة الداخلية.

ولكي ندرك ما هي الحياة الداخلية إدراكاً دقيقاً، يجب أن نميّز في المسيحي:

1. حياة الحواس، وهي التي يستسلم لها، من غير إهتمام بإهانة الله، أولئك الذين يُبيحون لذواتهم كل ما يلذّ لهم، وأولئك الذين وإن لم يريدوا أن يهينوا الله إهانة ثقيلة لا يرفضون لحواسهم ما تطلب من المتعات الصغيرة، قصدَ أن يتلذذوا بها.

2. حياة العقل الذي يقود الحياة بقطع النظر عن أنوار الإيمان. هذه الحياة تسمى في الكتب المقدسة الحكمة البشرية. عنها قال بولس الرسول إن الإنسان الحيواني لا يدرك شيئاً من شؤون الله، فهي جهالة عنده ولا يستطيع أن يدرك منها شيئاً. بهذه الحكمة البشرية كان يسوع المسيح يفكر لما قال: أشكرك أيها الآب لأنك أخفيت هذه عن الحكماء والعقلاء وكشفتها للأطفال. هذه الحياة البشرية بقيادة العقل تكوّن الإنسان المستقيم بحسب العالم، والفلاسفة والحكماء الذين لا يُدركون شيئاً في مذود بيت لحم وفي حانوت الناصرة وفي تذليلات الجلجلة، وفي التطويبات التي أعلنها يسوع المسيح؛ الذين يستهزئون بأفعال التواضع والتجرد ولا يستطيعون إحتمال مطالعة سير القديسين، ولا هدَف لهم سوى المجد والغنى والتنعم.

3. الحياة الفائقة الطبيعة التي تفوق العقل والحواس، وتنيرها أنوار الإيمان، وتغذَّى بقراءة الإنجيل، ويمارسها الذين نسميهم قديسين. هي الحياة التي يدور عليها كلامنا، وقد دعوناها داخلية لأن مبدأها في داخلنا ومن هناك يصدر أوامره للحواس والعقل. إن الفصل 54 من السفر الثالث من كتاب الاقتداء بالمسيح يَصِف بنوع عجيب حركات الطبيعة وحركات النعمة، أي الحياة الطبيعية والحياة الفائقة الطبيعة.

(2) في سمو الحياة الداخلية

هي ملكوت الله في النفوس؛ هي حياة العذراء القديسة على الأرض، وحياة يسوع المسيح نفسه الذي كان يحيا تحت إمرة أبيه؛ هي الحياة التي يتكلم عنها القديس بولس عندما يقول: أنا حيّ، لا أنا بل إنما المسيح حيّ فيَّ.

كل القديسين يحيون هذه الحياة، ودرجة قداستهم تكون بمنْزلة كمال اتحادهم بالله. فكما أن نفسهم تنعش جسدهم وتحييه، كذلك يسوع المسيح ينعش نفسهم ويحييها. يسوع المسيح هو معلمهم ومشيرهم ومرشدهم ولا يفعلون شيئاً ما لم يسألوه ويخضعوه لحكمة ويطلبون تثبيته. يسوع المسيح سندهم وملجأهم والمحامي عنهم؛ يعيشون تحت إمرته كما تحت سطوة أَبٍ ومحامٍ وملك قدير، ويتمسكون به كما يتمسك الولد عن حبّ والفقير عن احتياج؛ ويدَعونه يقودهم كما يقبل الأعمى قيادة الطفل الذي وثق به؛ ويتحملون منه كل شيء كالمريض الراغب في الشفاء يتحمل كل شيء من الطبيب؛ ويستريحون فيه كطفل في حضن أمه. لذلك يترفعون تدريجياً فوق مصاعب الحياة وشقائها: سواء حلّت بالكون بلايا، أم جُرّدوا هم أنفسهم من خيراتهم ظُلماً أو قضاءً وقدراً، أم حُرموا أسرتهم من جراء الموت أو النفي، أم أصدقاءَهم بالخيانة أو النسيان، أم صيتهم وشرفهم بالإفتراء، أم صحتهم بأقسى الامراض، أم فرحهم باليبوسات والتجارب... لا شك أنهم يشعرون بهذه المحن، وتسكب عيونهم الدموع، لكنهم يظلون هادئين، في سلام، ينظرون في قلبهم إلى الله الذي سمح بكل ذلك وقاد كل شيء بيده الإلهية، فيقولون لهُ في نشوة الاندفاع: إذا كنتَ باقياً لنا فحسبنا!

(3) أفعال الحياة الداخلية

1- النظر إلى الله، أي استحضاره عادةً، والعيشة بقربه كصديق لا إنفصال عنه في الشغل، والصلاة، والنُزهة، والراحة. إن الله ليس بمزعج فلا يضايق أحداً، بل هو صالح. هو يقود كل شيء، وهو يقيس المحنة التي يرسلها إليَّ على حسب قواي لأنه يعرفها ضرورية لي.

2- سماع صوت الله، أي الإنتباه إلى نواهيه ومشوراته. فإنه يتكلم بأقوال الإنجيل التي تعيدها الذاكرة إلى الذهن؛ وبالأفكار الصالحة التي تنير العقل فجأةً؛ وبالأقوال التقوية التي نلاقيها في كتاب أو في نشرة، أو تقع عفواً من فم واعظ أو صديق، وأحياناً من فم شخ مجهول.

3- التحدث إلى الله، أي مناجاته بالقلب أكثر ممَّا بالفم، بواسطة تأمل الصباح، والنوافذ الروحية السهمية، والصلوات الشفهية. وبواسطة راحة قلبية مقدسة، ولا سيما في الزيارات للقربان الأقدس.

4- محبة الله، أي التعلق به، وبه وحده، وعدم محبة الآخرين إلا فيه، والاعراض عن كل مودّة من شأنها أن تضعف محبتنا لهُ؛ وبذل الذات للجميع لأجله، ولكن بحيث لا نعطي ذاتنا مطلقاً إلا لهُ.

5- التفكير بالله، أي رذل كل فكر ينفي فكرة الله. لا شك أنه يجب الاهتمام بالواجب، وإتمامه بكل ما يمكن من الكمال، ولكن يجب إنجازه تحت نظر الله، ونحن نفكر أن الله يأمرنا به، وأننا إذا إعتنينا به واتقناه نكون مرضين لهُ.

(4) وسائل البلوغ الى الحياة الداخلية

1- نقاوة كاملة في الضمير، نحرزها بقبولنا سر التوبة بتواتر وإنتظام وجدٍّ كبير؛ وبكراهيتنا لكل خطيئة ولكل نقصٍ ولكل عدم أمانة؛ وبالهرب الهادئ النشيط من كل سبب خطيئة.

2- نقاوة قلب كبيرة، أي التجرد من كل ما هو مخلوق: الخيرات والاملاك وإرتياحات الحياة، والصيت والحياة نفسها... وهذا لا يعني أنه لا يسوغ أن تحب النفس أسرتها وأ□دقاءَها وتتفانى في سبيلهم وتبدي لهم مودتها... وإنما يعني أن ذكرهم يجب أن لا يبقى في القلب إلا متحداً بذكر الله وحبه.

3- نقاوة كبيرة في العقل، أي جهد متوا□ل لإبعاد كل فكر فارغ في الماضي والحاضر والمستقبل، وكل هم وقلق بشأن نجاح مشرو□، وكل رغبة في أن يكون الإنسان معروفاً وممدوحاً.

4- نقاوة كبيرة في العمل: فلا تهتم النفس إلا بما يدخل في نطاق واجباتها، وتقمع التسر□ والنشاط الطبيعي، وتعمل دوماً تحت حركة الله وهي تفكر أن الله يمجَّد في ما تعمله، وتتوقف هنيهةً □غيرة بين شغل وآخر لتوجه نيتها، ويكون لديها دوماً عمل نافع تعمله.

5- جمع فكر كبير وإماتة الحواس: فتبعد عنها، قدر المستط□ وضمن نطاق حالتها وواجباتها، الزيارات والولائم والنُزهات الصاخبة؛ ولا تسمح لذاتها عمداً بنظرة ولا بكلمة ولا بمتعة لا فائدة منها، بل ترتب ذلك كله وفقاً لمطالب العقل السليم واللياقات وبنيان القريب المحبة؛ وتضع شيئاً من التؤدة والتأني في □لواتها وتلفظ الكلمات جيداً وتجتهد أحياناً في تذوّق معناها.

6- دقة كبيرة في كل شيء، في أفعال الحياة وخصوصاً في التمارين الرهبانية؛ فلا تترك النفس شيئاً لحُكم الاتفاق والصدفة ولا لحكم الهوى؛ وترى في فرائضها مشيئة الله، فتقول لذاتها حيناً بعد آخر عندما تدق ساعة الواجب الفلاني: هلمَّ، فالله يدعوني.

7- ألفة كبيرة مع الله: فتحدثه النفس ببساطة، وتحبّه بمودة رقيقة، وتستشيره في كل شيء، وتؤدي له الحساب عن كل شيء، وتشكره بتواتر، وتزوره خصوصاً في سر الإفخارستيا وهي سعيدة. هذه الألفة مع الله لا يمكن أن تكون بلا ممارسة جدية ثابتة دائمة للصلاة العقلية.

8- محبة عظيمة، للقريب، لأنه ابن حبيب الله، فتصلي النفس لأجله، وتعزيه وتشجعه، وتعلمه، وتقويه، وتساعده في كل شيء.

(5) الموانع التي تحول دون الحياة الداخلية

1. النشاط الطبيعي الذي يدفعنا دوماً إلى الأمام ويجعلنا نتسرَّع في كل عمل. ويظهر هذا النشاط الطبيعي:

في تصاميمنا، فيكثرها ويكوّمها ويقلبها ويُعيدها. ولا يأخذ راحة، ولا يُريح، ما لم يحقق ما نواه.

في أعمالنا. فالطبيعة تطلب الحركة. فتهتمّ بألف شغل خارج عن نطاق الواجب، وقد تكون أحياناً معاكسة للواجب، وتسترسل في العمل باندفاع، وتعدو، وتُسرع، وتضطرب، ولا تزال قلِقة حتى ترى العاقبة.

في تناول الطعام. الطبيعة تدفع إلى الإقبال على الطعام بعنف ولا تترك للعقل والإيمان مجالاً لقمع الشهوة الطبيعية.

في الاحاديث. النشاط الطبيعي يحمل على الكلام بدون تروٍّ وتفكير، وعلى قطع كلام الغير بدون أدب، وعلى إصلاح الغير بلا محبة، وعلى الحكم على الغير بدون تقدير وتمييز. ويحمل على رفع الصوت في الكلام، وعلى الجدال والتذمر.

في الصلوات. النشاط الطبيعي يحمّل صاحبه صلوات كثيرة يتلوها بسرعة وبلا إنتباه، وبلا تذوّق، وقد عيل صبره في إنتظار آخرها. ولا يستطيع صاحبه أن يظلّ ساكناً في التأمل، بل يقع في اليبوسة ويتعذّب ويضنيه وجع الرأس وتيبس نفسه ويمتنع فيها عمل الروح القدس.

2. الفضول: الفضول يفتح النفس على كل ما هو خارجي، ويملأها أفكاراً كثيرة غريبة، لذيذة أو مزعجة تلهيها أياماً برمّتها. ومن ثم فلا سبيل أن ترجع إلى ذاتها وتظل في جمع الفكر هذا؛ ومن هنا أيضاً تنشأ الكراهية والجبانة والسأم من كل ما هو صمت وجمع فكر وصلاة عقلية.

يظهر الفضول في الدروس التي تزاولها النفس بزهوٍ وبحب الإطلاع والظهور بمظهر الحاذق، بدل أن تدرس لتتعلم وتفيد الغير؛ وفي المطالعات، فيخصَّص وقت طويل للقصص والأخبار والجرائد؛ وفي النُزهات، فينتقل صاحب الفضول مع الجمع ليرى ويعرف ويستطيع أن يحدث غيره فيما بعد؛ وفي أعمال أخرى عديدة، منها: الإسراع بشيء من الحُمى لفتح رسالة موجهة إلينا، أو للنظر إلى مشهد يحدث أمامنا، أو لمسابقة الغير إلى إيراد أحد الأخبار...

فالله، الذي نسيته هذه النفس الفضولية ينصرف من قلبها ويتركه فارغاً؛ ومن هذا الفراغ تنشأ الحاجة الملحة إلى أن يمتلئ القلب من كل ما يعرض للفضولي.

3. الجبانة. إن الله لا يمنع الشكوى بخضوع وتسليم، لكنه ينهى عن التذمر والجبانة، ويبتعد عن النفس التي لا تعرف أن تستند عليه.

تظهر الجبانة في محن الحياة عندما تجمح النفس وتتمرد على مشيئة الله التي أرسلت هذا المرض أو هذه الشكاية أو هذا الإهمال أو هذا الحرمان؛ وفي اليبوسات، عندما تترك النفس الصلاة والتأمل والتناول بحجة أنها لا تتذوقها البتة وأنها تشعر فيها باندفاع حسيّ وأدبيّ يُقلقها ويحملها على الظن أن الله قد أهملها وتركها؛ فالنفس التي تترك الله تطلب تسليتها في العالم، والله لا يكون في وسط العالم؛ وفي التجارب، إذ تتعب النفس وتتعذب وتُذعر فتبتعد عن الله بدل أن ترتمي بين ذراعيه، وتصرخ أن الله قد أهملها، مع أن الله لا يسمح بالتجربة إلا لتظل النفس مترددة بين حالتي الأمل والخوف ويمنعها عن الكبرياء ويُتيح لها أن تبدي له محبة أعظم.

***

والآن نلخص ما ذكرناها آنفاً في صفحة يمكن أن تُسمى "نهار المبتدئة التقية".

لستُ أنا حية بعد، بل إنما المسيح حيٌّ فيَّ. لستُ أن أعمل بعد، بل إنما المسيح يعمل بي من بعض الوجوه. لستُ أنا أُحبُّ بعد، بل إنما المسيح يحبّ بي وفيّ – فيجب عليّ إذن أن أفعل كلاً من أفعالي كما كان فعلها يسوع؛ وأن أحيد برهةً عن حضرة يسوع. فيسوع مهيني وله نصيب النصف في كل ما أفعله. هو مثالي ويُسرّ إليّ كيف كان عمل هذا العمل الذي أُمرتُ به. هو سندي فيشجعني ويجعلني أتحمل التعب والضجر. هو جزائي، يعدّ كل دقائق الوقت الذي أقضيه في إتمام الواجب ليحسبها لي ويجازيني عنها. هو المحامي عني، يُقصي عني الشيطان فيما أنا أصلي أو أشتغل، ويُقصي عني الأشرار أو يقويني ضد أقاويلهم، و يسمح بأن أُرهق.

لذلك كله أحبّ يسوع.

ففي نزهاتي أفكر في وداعته ولطفه وإبتسامته العادية. فهو لم يكن يرفض أحداً و يحتقر أحداً. وكان دائما هو هو، مفعماً لطفاً، غير تعبٍ من أداء خدمة، سعيداً خصوصاً عندما يزعج نفسه ويتعبها في سبيل الآخرين.

في أحاديثي أتكلم عنه أحياناً، وعلى الأقل أتكلم دوماً في حضرته، بحيث يبدر مني شيء غليظ أو غير ائق أو مخالف للفطنة. فأنا سعيدة عندما أستطيع أن أحمل أحداً على محبته.

في دروسي أفكر في جودة يسوع وهو يعلّم تلاميذه ويفسِّر لهم هو نفسه ما لم يفهموه؛ وأتصور أنه هو الذي يكلمني بفم معلماتي فأسمع لهنّ باحترام وشكر. وأدعوه عندما أشعر ببعض الصعوبة. وأخضع عندما أُذلَّل أو أُقي مانعاً. وأشكره إذا أحرزتُ بعض النجاح لأنه هو الذي يفتح ذهني ...

عند تناولي الطعام أُفكر في قناعته وتقشفه وإماتاته. فبأي جودة وعطف كان يخدم هو نفسه رسله، وبأي محبة كان يصنع المعجزات ليغذي الفقراء. فلو كنتُ حرة طليقة في التصرف بما لديّ لجعلتُ نصيب الفقراء وافراً، لأن يسوع كان جعله هو أيضاً وافراً، فأريد أنا أن أعطي كل ما أستطيع: عقلي وقواي ومهارتي وكل شيء.

في صلواتي أتصور أني بقرب يسوع وأسمعه يقول لي: "كل ما تسألين الآب باسمي تنالينه". فأجمع فكري كما كان يجمع فكره، وأحب أن أكرر بعض ما كان يكرره من الأقوال: أيها الآب، لتكن مشيئتك مشيئتي. أيها الآب أعطنا خبزنا كفاف يومنا. يا أبتاه ليعرفك الجميع ويحبوك!

في أشغالي اليدوية أفكر في الأعمال التي كان يسوع يزاولها وهي شبيهة بأعمالي. كان يصنع كل ما يؤمر به ويتقنه بكمال. كان يترك شغله حالما يُدعى إلى غيره ثم يعود إليه ويتركه من جديد. وما كان يتشكى من طول الشغل ولا من رتابته ولا من صعوبته. ولم يكن يخشى، هو العليم بكل شيء، أن يِسأل القديس يوسف والعذراء القديسة: "كيف يُصنع كذا أو كذا؟" ويتبع بدقة ما يُعطى من مشورات.

في أحزاني وأكداري أدعوه... وأنتظر... وأعرف أنه حاضر، وإن لم يقل لي شيئاً فلا أخاف، فهو يمنع أن يفرط الشر في تعذيبي، وأن يطول بي السأم حتى يرهقني، وأن تخثني التجربة حتى أسقط فيها. أدعوه... وأعلم أنه يأتي في الأوان المناسب؛ ومع أني أبكي أحياناً وأتنهد أواصل شغلي وصلاتي وحياتي العادية.

في المحن التي تسمح بها العناية الإلهية أزدادُ تقرباً إليه، فإن لم أجده إلى جانبي سعيتُ في طلبه... فأجده بين ذراعي العذراء القديسة التي تعطينيه دوماً بعد تلاوة بيت من المسبحة بتقوى. وأجده في وسط أخواتي، ولا سيما مدة الصلاة، لأنه قال: حيثما اجتمع إثنان أو ثلاثة باسمي فأنا أكون هناك فيما بينهم. وأجده في بيت الناصرة يعمل بيديه، فيأتي إليّ إن كنت أنا أيضاً أشتغل على مثاله. وأجده على الصليب، ودرب الصليب الذي أمارسه يعيده إليّ مع السكون والسلام والاستسلام. أجده أخيراً في التناول المقدس، فأقول له حينئذٍ: لا تتركني، لا تتركني!

في نومي أفكر في يسوع مستسلماً للراحة، فأراه نائماً في سلام ونقاوة، تارةً في السفينة التي تكدّها الرياح، وطوراً في مذود بيت لحم. فأقول له: يا يسوع، أريد أنا أيضاً أن أستريح في سلام مثلك، وأن يظل قلبي دوماً ساهراً. أريد أن يكون في أثناء نومي كل تنفسٍ تنهد حبّ. وأريد أن تكون كلمتي الأولى عند يقظتي: يا يسوع، أحبك! لله ما أعذبَ يومي متى كان على هذا النحو متحداً بيسوع!

الفصل الثامن

في امتحانات الابتداء

الامتحانات تجربة يُرى منها هل الشخص الفلاني أو الشيء الفلاني هما في الواقع كما هما في الظاهر، أو هل هما قادران أن يُستخدما للخدمة التي يُظنُّ أنهما يصلحان لها.

مثال ذلك أن جسراً فوق نهر يُمتحن إذا حُمِّل ثقلاً أرفع من الثقل الذي سوف يحمله فيما بعد. فإذا قوي على تحمّل هذا الثقل الباهظ الخارق العادة، كان في ذلك ضمانة أكيدة على أنه سوف يحمل الثقل الاعتيادي.

كذلك إذا أُريدَ أن يدفع عمل دقيق إلى يد عامل، يُلتمسُ منه أن يُري شغلاً آخر من يده لا يقلّ دقة وصعوبة عن ذاك المطلوب صنعه. فعلى هذا النحو يُمتحن هذا العامل.

فأنتِ، أيتها المبتدئة، مدعوّة لخدمة الله ولمنْزلة أرفع من تلك بكثير هي منْزلة عروس يسوع المسيح؛ وبما أنكِ مزمعة أن تعقدي قريباً هذا العهد الإلهي، أليس من مطالب العدل الأولية أن لا تقبلي إلا من بعد ضمانة أكيدة أنكِ محرزة الصفات التي تتطلبها تلك المنْزلة؟

إن الابتداء هو لكِ زمان تعلّم المهنة. فقد صار لكِ من يدلّكِ على النقائص الواجب حذفها، وعلى الفضائل الواجب إحرازها لتصيري عروسة يسوع المسيح. أليس عدلاً أن يرى الأشخاص الذين وكل إليهم الله الإعتناء بتربيتكِ هل يستطيعون أن يدفعوكِ إلى عريسك بطريقة لائقة، وهل فيكِ الشجاعة والصبر والقوة والخضوع التي يتطلبها؟ من أجل هذا بدّ من امتحانكِ.

إن الامتحانات هي الأفعال الداخلية والخارجية المختلفة، الصعبة عادةً على الطبيعة، المطلوبة عادةً في الابتداء ليتأكد للمربّين ما وصلت إليه المبتدئة من القوة والصبر، ولتواصل إبادة ما بقي فيها من النقائص.

1) مصادر امتحانات الابتداء

يمكن أن تأتي امتحانات الابتداء من الله، أو من معلمة الابتداء، أو من الرفيقات.

1. الامتحانات الآتية من الله. إن الله لا يحتاج البتة إلى امتحاننا، فهو يعلم جيداً ما نحن وما هو قدرُنا. وإنما نحن بحاجة إلى امتحان لنعرف ما بوسعنا أن نفعله بنعمة الله وكم نحن ضعفاء من تلقاء أنفسنا. فما هو امتحان في نظرنا ليس امتحاناً بالنسبة إلى الله. بيد أننا، في كلامنا عن هذا الجلال السامي، نلتزم باستعمال العبارات نفسها كما لو كنا نتكلم عن البشر.

يمكن القول، بوجه عام، إن الله يمتحن المبتدئات أقل مما يمتحن الراهبات الناذرات. وسوف نأتي في الكتاب المعدّ للناذرات على ذكر الامتحانات المختلفة التي يسمح الله بأن تمرّ بها النفوس المعدة لكمال سامٍ، وهي في بعض الأحيان هائلة، التي قد لا تستطيع المبتدئة الخالية من الخبرة أن تحتملها...

من عادة الله أن يقيد النفوس به بواسطة المحبة والمودة. فمتى ذاقت مرةً سعادة محبته، حينئذٍ فقط يشرع في تطهيرها شيئاً فشيئاً من نقائصها، وأن يُحدث فيها التحويلات التي يراها ضرورية لمجده وخلاصها.

لذلك يكون للابتداء عادةً صبغة من العذوبة والسلام والنقاء، وتمارس فيه الطاعة جيداً، ويصير الاسترشاد ببساطة، ويظهر فيه الله عطوفاً جداً لهذا اللقب الفتي المفعم نيةً مستقيمة، حتى ليمكن القول بلا غلوّ إن وقت الابتداء أجمل أوقات الحياة الرهبانية.

فالله يسكب فيه بركات خاصة كما يسكب ندىً خاصاً على الغرسة الصغيرة المحتاجة أن تتأصل جذورها في الأرض.

لا ريب أن في الابتداء ساعات ضجر وملل، فيها تفقد الصلاة من جاذبيتها، ولا يولي التناول تعزيةً بعد، ويكون المعرف أو المعلمة على جانب من الشدة والقساوة، وتنتاب المبتدئة تذليلات لا تقوى على احتمالها، وتتأخر عن الوصول رسالة تنتظرها المبتدئة... وهنالك ساعات خوف، تخشى فيها المبتدئة أن لا تبلغ أبداً إلى ما يُتوقع منها من الحكمة والرصانة، وأن لا تصير أبداً نافعة لشيء ... وهنالك ساعات إنحباط، تظنّ فيها المبتدئة إنها ما عادت قادرة على شيء، وأنها غير مفهومة، وغير معتبرة ومقدرة حق قدرها، وأنها عاجزة عن النجاح، وأن الجميع يهملونها... بيد أن هذه كلها محض سحاب أو ضباب، وكثيراً ما تكفي كلمة من المعلمة التي تكشف لها المبتدئة همّها لتبدّد ذلك الضباب وتعيد إلى النفس صفاءَها.

2. الامتحانات الآتية من المعلمة. من واجب معلمة المبتدئات أن تمتحن بتواتر النفوس الموكولة إليها. قال القديس فرنسيس السالسي: "فلتؤسس جيداً بناتها على الفضائل الراهنة، ولتجعلهنَّ سِلسات مطواعات كالقُفَّاز في اليد، ولتجردهن من كل شيء، فتكسر في كل حين أميالهن وحكمهن وإرادتهن؛ ولتجعل قلبهن كبيراً بنَزعها منه، قدر المستطاع، ما هو تافه صبياني، والعواطف الرقيقة، وبلادة المزاج، التي من عادتها أن تجمد عقول البنات خصوصاً وتضعفها... فتلك هي الإماتات الحسنة التي يجب أن تحملهن على ممارستها دوماً، مدة الابتداء. وليكن ذلك كله بروح محبة الله".

وقال أيضاً هذا القديس اللطيف المحبوب: "إعلّمن، يا بناتي العزيزات، أن حبة الحنطة الواقعة في الأرض إن لم تمت بقيت وحدها، وإن ماتت وفسدت أثمرت مئة ضعف. إن كلمة سيدنا يسوع المسيح هذه واضحة جديدة، وقد صدرت من فمه الأقدس، ومن ثم، فأنتُنَّ الطالبات لبس الثوب الرهباني، وأنتنّ الطالبات إبراز النذور، أعِدنَ النظر مراراً لترين هل فيكنَّ القصد الكافي بأن تُمتنَ أنفسكنَّ ولا تحيَين إلا لله. فكّرِنَّ مليّاً في الأمر، فأمامكنَّ وقت طويل للتفكير قبل أن يُصبغ قناعكنَّ الأبيض بالسواد. فإني أُعلن لكنّ، يا بناتي العزيزات، ولا أريد أن أخدعكنّ: من شاء أن يعيش بحسب الطبيعة فليبقَ في العالم، والذين صمموا النية على أن يحيوا بحسب النعمة فليأتوا إلى الدير الذي ليس هو سوى مدرسة إنكار الذات وإماتة الذات. لذلك ترين فيه وسائل عديدة للإماتة الداخلية والخارجية".

ليس بوسعنا أن نفصّل الامتحانات الممكن فرضها على المبتدئات. إنما يجب أن تعلم المبتدئة جيداً أن معلمتها لا تعمل أبداً بتأثير الهوى أو الخبث والرداءة، بل غايتها – وهذا هو واجبها – أن تتحقق وتثبت هل المبتدئة قد تقدمت بعض الشيء. في روح الابتداء وفضائله التي سبق الكلام عليها، وهدفها خصوصاً أن تكسر إرادتها.

فتارةً تنصب مقامها إحدى المبتدئات الأقل جدارة لتراقب الجمهور وتعطيه السماحات الصغيرة، لترى كيف تسلك نحوها المبتدئات الأوفر علماً.

وأُخرى تضع في تعليم الشغل اليدوي طالبة دخلت الدير أخيراً، وتوصيها بأن لا تخشى أن تلزم المبتدئات بمراجعة شغلهنّ إذا كان فيه بعض الخلل.

وإذا لحظت أن إحدى المبتدئات تُفرط في حب الدرس ولا تُقبل على الشغل اليدوي إلا بكراهية، فتنهاها مدة عن مزاولة أي مطالعة كانت وتصرفها إلى ترقيع الثياب.

وإذا رأت أن أُخرى تتمسك بإفراط بصلواتها، فتنتهز وقت التمرين التقوي الأعز على قلبها لترسلها كناسة إحدى الغرف أو الشغل في البستان أو إلى أي عمل آخر كهذا.

وكثيراً ما تطلب من الأخت الأقل بساطة أن تؤدي حساباً عن تأملها أو عن عدد أفعال الكفر بذاتها اليومية.

تلاحظ أن أختاً لا تميل طبعاً إلى أُخرى، فتضعها بجانبها وتلزمها أن تشتغل معها، وأن تصلي بقربها، وأن تتنَزه معها.

تُلزم بإعادة شغل قد تُمِّم بكراهية مرتين وثلاثاً، لأن صاحبته قد تراه أدنى مما بوسعها أن تعمل.

وتلزم مبتدئة ذات طبع متكبر بأن تطلب الإذن في الشؤون الصغيرة من أُختٍ لها يبدو أنها تحتقرها.

وتتكلف أحياناً عدم النظر إلى شغل يُعرض أمامها استجلاباً لثنائها، لكي لا تُثني عليه.

وتقضي أياماً عديدة من غير أن تكلّم مبتدئة تسعى دوماً في طلبها وتروم أن تكون دوماً بقربها، لتقتل فيها المودة الطبيعية.

وتلزم بالكلام عن الله أمام الرفيقات جميعاً أختاً تدّعي أنها فوق الجميع في حياتها الداخلية، ثم تبيّن لها ضآلة علمها الروحي.

تنبّه أُختاً أنها قد وصلت رسالة باسمها، لكنها لن تسلمها إليها إلا بعد ثمانية أيام.

والأخت التي تعودت أن تثرثر في تلاوة صلواتها وتُسرع فيها تحكم عليها بأن تصلي الصلوات العلنية باسم الجميع أكثر من سائر الأخوات.

والمبتدئة التي تتكلف التأنق في مشيتها تلزمها بأن تلبس حذاءً ثقيلاً وغير أنيق.

وتؤثر أن تستخدم في المطبخ وفي تنظيف الدير وسائر الأشغال البيتية الأخوات اللواتي يملن إلى الاعتداد بذواتهن فوق سائر الأخوات.

هذا، وأننا لا نسمي امتحاناتٍ العقوبات التي تفرض على المبتدئات وفاء عن زلة. فإن الامتحانات التي تفرضها المعلمة لا تكون مستوجبة؛ أما العقوبات والقصا□ات فهي عادة مستوجبة، والمعلمة تعتقد ذلك على الأقل. فلا تصير هذه العقوبات امتحانات للمبتدئة إلا متى رأت هذه بوضوح أنها لم تستوجبها أو أنها على جانب من الغلوّ. ففي هذه الحال يجب قبولها كالامتحانات التي تستحق هذا الاسم بحصر المعنى.

3. الامتحانات الآتية من قبل الرفيقات ومن القانون. لا شك أن روح المحبة سائد في الجماعات الرهبانية، ولا سيما في أديرة الابتداء. ومع ذلك فاختلاف الطباع، وسرعة التأثر، والاحكام والاوهام والحسد الملازمة لبعض الطباع والامزجة في غالب الاحيان سبب عذابات □غيرة.

ولا ريب أيضاً في أن القانون لا يفرض واجبات تفوق قوى الطبيعة العادية. وهذه الواجبات قد عرفتها المبتدئة ودرستها واقتنعت أنها ليست مزعجة بإفراط؛ ومع ذلك ففي بعض الأيام يكون القانون ثقيلاً جداً فتلا□ق المبتدئة فكرة نفض نيره عن عاتقيها.

كتبت فتاة تستعد من مدة طويلة للدخول في دير للترابستين: "إني لستُ في وهم وخيال بشأن طريقة المعيشة التي أنا مزمعة ان أنتحلها، بل أتوقع غير □عوبة، وغير تجربة، ولم يخطر ببالي قط فكر فردوس أتمتع به على هذه الأرض. بل أقول: لو كان في الأرض مثل هذا الفردوس لما أردتُه البتة".

"ليس في الدير مزعجات كما في كل مكان. وتكون خصو□اً في علاقاتي مع أخواتي، ذلك ما أُقدّره سلفاً. لكني آمل أن الرب سوف يعضد ضعفي فيساعدني على احتمال الغير الملتزم أيضاً بأن يحتملني. وسوف يكون هذا الاحتمال وفاءً عادلاً عن حريتي السالفة".

كتب القديس فرنسيس السالسي: "هل تعلمين ما هو الدير؟ هو مدرسة الإ□لاح الدقيق، حيث كل نفس ملتزمة بأن تتعلم فتدع غيرها يُعالجها وينجّرها ويهذّبها. فمتى □ارت ناعمة □ار يمكن أن تُضم وتتحد وتلتصق بإرادة الله".

ذلك كله يتم في الابتداء. فطوبى للمبتدئات الطائعات البسيطات الصبورات اللواتي يدعن الغير يعالجهن ويُنجرهنّ ويهذبهنّ. فإنهنّ يهيئن لأنفسهن حياة مقدسة كلها إتحاد بالله.

2) طريقة احتمال الامتحانات والقصاصات

يجب أن نحتمل الامتحانات التي يتلطف الرؤساء والرفيقات ويفرضونها علينا:

1. بسخاء. فنتجنب أن نستسلم، بعد إ□لاح نظنه في غير محله أو بعد امتحان لا نرى مراميه، إلى الضجر والحزن والاضطراب واليأس والحرد، وكل ما توحي به مخيّلة مهيّجة فتجعلنا نسكب العبرات ولا نرى في ذكل كله سوى توافه دقيقة تثير الضحك[11] ...

إن البلوغ إلى القداسة لا يكون بلا عناء!

اسمعي ما كان يفعل الأب لاكوردير، الرئيس الإقليمي للآباء الدومنيكان في فرنسا، ليُصلح ذاته من عيوبه ونقائصه. في أحد الأيام أبطأ الأخ الخادم على المائدة في خدمته. وكان الأب لا يطيق أن يكون هو سبباً لإنتظار الآخرين ويقتضي مثل هذه الدقة في الغير. وأبطأ الأخ عن القدوم فلم يتمكن الأب لاكوردير من قمع حركة عدم □بر بدت على وجهه. وعند المساء حالما سنحت له الفر□ة ذهب إلى الأخ الخادم وأقر له بزلّته جاثياً واستغفره وطلب منه أن يصفعه كما كان يستحق وأن يطرده من غرفته وهو يكيل له الإهانات. ويقول كاتب ترجمة حياته أن هذا الحادث واحد من ألف في سيرة الراهب القديس.

ويقول المؤلف عينه. كان باب غرفة الرئيس في دير باريس يحا□ره الزوار، ولم تكن تلك الزيارات كلها على جانب واحد من اللذة. قال يوماً لمرشده إنه لم يتمكن بعدُ من اعتياد إيقافه عن شغله، وأردف: كل مرة يُطرق باب غرفتي لا أتمالك ولا أقمع حركة أولى تدلّ على أن هذا الطرق يزعجني. فأودّ لو أُ□لح ذاتي من هذا العيب. فإذا رأيتَ ذلك مناسباً فأدخل غرفتي في كل حين ومن غير أن تطرق الباب. فإذا لحظت على وجهي أدنى علامة إستياء فما

[11]ذهبت مبتدئة خائرة القوى إلى معلمتها، وبعد أن سردت لها أحزانها أردفت: "أنا لم آتِ لأعلن إني لا أريد... بل إني أتعذب" وكانت المعلمة تعرف سخاء تلك النفس، فأجابتها جواباً ناشفاً: حقاً يا أختي إذا كنت ما أتيتِ هنا لتتعذبي فالأفضل أن ترجعي... وبعد مدة □ارت المبتدئة راهبة وكانت تقول: بمثل هذه الكلمة تقول المعلمة كل شيء، وبعد ذلكا تمضي المبتدئة في سبيلها! طوبى للأديرة التي يمكن الكلام فيها على هذا النحو ويُفهم الكلام بمعناه الحقيقي!.

لك إلا أن تجلدني بالمجلدة. – أجل، أبتِ، أنا فاعل – وفي اليوم عينه أراد أن يمتحن تلميذه الروحي فدخل فجأة في قلايته. فجثا الأب لاكوردير وقال: إضرب يا أبتِ – ولكني لم ألاحظ شيئاً – فكشف الأب لاكوردير عن كتفيه وقال: أنت لم تلاحظ عدم صبري، أما أنا فقد شعرت به. فما قولكِ، يا أختي، في هذه الشجاعة؟

هذه الآن صفحة تولي النفس عزاء وشجاعة أعظم. كانت إحدى معلمات الابتداء تقول لإحدى بناتها العزيزات: بما أنكِ، يا بنية، ترومين أن تُصلحي ذاتكِ من حبك الذاتي، يجب أن نعمل معاً متفقّتين، وأن تتبعي بدقة ما أقوله لكِ: سوف أُونبكِ علناً، حيناً بعد آخر، على أشياء لا تكون في حدّ ذاتها زلات وهفوات. وسوف أَسبق فأنبهك إلى ذلك سلفاً فتعلمين أني لا أفعله إلا لأعوّدكِ التغلب على طبعكِ وهكذا تخفّ عليك وطأة التونيب. بل سوف أفرض عليكِ بعض قصاصات وسترين أنكِ لا تلبثين تدريجياً أن تتحملي التونيب بتواضع. فهل توافقينني على ما أعرضه؟ – نعم يا أُمَّاه – إذن نبتدئ منذ هذا المساء... لا ترتعبي فسوف أداري رقة شعوركِ. متى صرنا في هذا المساء في المحاضرة، وفيما أنا أُكلم الجمهور، حدَّقي فيَّ قليلاً؟ فأؤاخذك على ذلك وألومك على قلة حشمتك وأقول لكِ أنكِ مبدَّدة مشتتة، وآمركِ أن تقبلي الأرض... وبعد ذلك تعلمينني بما خامركِ من العواطف.

وجرت الأمور على حسب ما رتبتها المعلمة. وفي الغد، ذهبت المبتدئة إلى معلمتها، ففتحت خذه لها ذراعيها وسألتها: ماذا جرى، با بنية؟ – آه يا أُماه، او كُشفت لكِ نفسي لرأيتها على جانب عظيم من الكبرياء! فقد كنت أرتجف وأنا ذاهبة إلى المحاضرة. ولما شرعتِ في الكلام أخذ قلبي يدق. كنت أخاطب ذاتي: بعد قليل يجب عليّ أن أحدق في معلمتي وستخجلني أمام الجميع. فجعلت أتردد، ثم نبذتُ عني الخوف فجأةً واستنجدت بالعذراء القديسة وعقدتُ العزم على ما دبرنا. ومنذ ذلك الحين ما عدتُ شعرتُ بشيء ولا كلفني تونيبك شيئاً. ولو كنتِ بالغتِ في توبيخي وفرضتِ عليّ قصاصاً أكثر تذليلاً لي لكنتُ نفذته. ولما إنصرفنا من المحاضرة شعرتُ بفرج لم أشعر به قط من قبل.

– حسنٌ، يا ابنتي. سنعيدُ الامتحان بعض المرات أيضاً. ثم تجتهدين أن تسيري وحدكِ، فلا أعود أنبهكِ. لكن الله يكون معكِ. وعمّا قليل تعرفين أن تضبطي نفسكِ في كل شيء.

تشرَّبي جيداً الأقوال التالية التي كتبها القديس فرنسيس السالسي: "كل دير هو مستشفى أمراض روحية. والمرضى يريدون الشفاء ويعرّضون من أجل ذلك أنفسهم لإحتمال البضع والشطب والكيّ ومرارة كل أنواع الأدوية...

ذلك ما لا بدّ أن تريديهِ عند دخولكِ الرهبانية، ولا تأبهي لكل ما يوحي به إليكِ الحب الذاتي. يجب أن تقصدي برفق وشجاعة المقصد التالي: إمّا الشفاء وإمّا الموت. وبما أني لا أريد أن أموت موتاً روحياً فأريد الشفاء؛ ولكي أُشفى أريد أن أحتمل الإصلاح وأتضرع إلى الطبيب أن لا يوفِّر عليّ ما يمكنه أن يعذبني، لكي أستطيع أن أُشفى شفاءً أكيداً".

2. بثبات. لا تملّي ولا تتعبي. إن إحراز التواضع والصبر والبساطة والطاعة لا يكون في يوم واحد. في عملنا النفسي لا نشتغل في قطعة من رخام يحفظ الهيئة التي تطبعها فيه الازاميل، بل نعمل في كائن حي نقطع منه قطعةً من ذاته وبوسعه الخاص أن يجدد القطعة التي نحذفها منه إلى ما لا آخر لهُ ...

فدَعي إذن معلمتكِ تعمل فيكِ شغلها ما دامت محبتها لكِ تحملها على الاهتمام بكِ. ولا تظني أن العذاب والانزعاج هما لكِ وحدكِ. ففي بعض الساعات يكون الإصلاح صعباً على المصلح نفسه. أتظنين أن إنساناً يقبل لنفسه أن يعمل بحيث يُحكم عليه بأنه قاسٍ ظالم متحيز يتبع الهوى، مع أنه لا يعمل إلا للخير؟ وأن يعمل ما يدفع الآخرين إلى الهرب منه، وهو قادر أن يجتذب إليه بسهولة أميال الجميع؟ وأن يحمل الآخرين على كرهه (أجل، إلى هذا الحدّ) في حين يعذُب عليه أن يجعل نفسه محبوباً؟ فلو كنتِ تدرين مصلحتكِ، لذهبتِ وجثوتِ أمام معلمتكِ وقلتِ لها: أستحلفك باسم يسوع المسيح أن ترحميني وتصلحيني وتؤنبيني وتعاقبيني!

إسمعي الحديث الوالديّ الذي كانت الأم ماري أفرام معلمة المبتدئات تحدث به بناتها الروحيات: "إني لا أخفي عليكنّ البتة أشواك الطريق. لا، يا بناتي، فإني أريد أن أريكنَّها كلها. إنما في البدء سأبذل جهدي لتخفيف شوكتها بكل ما فيّ من حنان والدي، ذلك ما يفرضه عليّ ضعفكنّ. وفيما بعد سأدعهنّ تعززنَ فيكنَّ. وسيحدث أيضاً أن حجارة الطريق سوف تجرح أرجلكنّ وتمزقها. ولكن، ألا ينبغي أن تتعلمنّ أن تتعذبنّ بعض الشيء لأجل يسوع؟ إن التعب يقوي. تعقب الجهاد النشيط مدة وجيزة من الانحطاط والهبوط، ثم تنتعش الشجاعة قويةً في النفس بعد الكفاح، فيدوم السير مدة أطول... أنا لا أقول إني لن أمسح أحياناً عرق جباهكنّ لأساعدكنَّ على السير. أجل يا بناتي، سوف أفعل ذلك كل مرة يقتضيه خير نفوسكنّ وتبدو لكنَّ الحياة مريرة. فقد يكون على هذه الأرض بعض أيام قاتمة بالحزن والمزعجات! أنتنّ الآن فتيات صغيرات السنّ، يا بناتي، لكن الله قد حباكنّ أُمّاً. ألا اعلمنَ أنكنَّ سوف تجدنها بقربكنّ في أتعابكنّ، وزلاتكنّ، وإنزعاجاتكنَّ! ومتى صرتُنّ ناذرات، حينئذ يسوع يعمل فيكنّ كل

شيء، وأُمكنَّ تقول لكنّ: دَعنهُ يعمل فيكنّ عملهُ ولا تُتلِفنَ عمله بقصدكنّ أن تعملنَ على حسب هواكنّ وأميالكنّ".

الفصل التاسع

في عبادات الابتداء

1
قواعد عامة

قال القديس فرنسيس السالسي: "في أثناء ابتداء الأخوات يُبذل الجهد لتقوية قلوبهنّ وجعلهنّ عابدات، لا ذوات عبادة غنج ودلال، عبادة عاطفة ودموع، بل عبادة على جانب واحد من الرفق والشجاعة، والإتضاع والثقة".

كثير من المبتدئات تدفعهنّ تربيتهنّ الأولى أو مزاجهنّ أو المطالعات التي تغذّيهنَ بها إلى تلك العبادة الغنجية العاطفية الكثيرة الدموع التي ذكرها القديس اللطيف في نصه المورد آنفاً. لا يفتكرن أن كثرة الشواعر التقوية تُضعف الطبع، وإن العواطف التقوية المصنَّعة تزول سريعاً، خصوصاً متى زال الشباب، فتصير النفس حينئذٍ يابسة، وتظن أن الله قد أهملها، وتتذمر، وتهمل حينئذٍ حتى الصلوات الواجبة. لا تفكر تلك النفوس أنها تتفرَّد وتتميّز عن سائر الأخوات، وتُتيح للشيطان أن يجرّبها بتجربة الزهو الباطل وأن يحملها على احتقار الغير، وأنها تُسد إتفاق الجمهور ولا تستطيع أبداً أن توّفق بين مزاجهن وأميلهن وقاعدة المحبة.

قال القديس فرنسيس السالسي: "يجب أن تكون عبادة الراهبات قوية:

1. في احتمال التجارب التي لا يخلو منها أبداً أولئك الذين يريدون إخلاص الخدمة لله.
2. في احتمال الأرواح المختلفة في الرهبانية. وهذا التمرين عظيم للعقول الضعيفة الممكن مصادفتها في الرهبانية.
3. في احتمال كل واحدة لنقائصها بحيث لا تقلق من حصولها عليها.
4. في محاربة نقائصها.
5. في إزدراء أقوال العالم وأحكامه، وهو لا يتأخر أبداً عن مراقبة الراهبات التقوية.
6. في استقلالها بعواطفها وموّداتها وصداقاتها وأمياها الخاصة، لكي لا تحيا بحسب إندفاعها بل بحسب أنوار التقوى الحقة.
7. في استقلالها واستغنائها عن العذوبات والتعزيات الآتية من الله أو من الخلائق، لئلا تُستعبد لها.

8. في ثيامها بكفاح دائم ضد أميالها الشريرة ومزاجها وعوائدها وإندفاعات أهوائها.

فمنذ دخولكِ في الابتداء، تجردي من عباداتكِ الخاصة لتتمسكي بتلك التي تمارسها أخواتكِ كلهنّ، بحسب القانون أوالعادة.إكشفي لمعلمتكِ الممارسات التي تعودتها قبلاً، والصلوات التي كنتِ تتلينها، والأخويات والشركات التي كنتِ تنتمين إليها... ولا تحتفظي من ذلك إلا بما تدللكِ هي عليه، بل وبلا شيء منه إذا رأت هي ذلك أوفر حكمةً.

هوذا الآن بعض نصائح عملية يلزمك إتباعها بدقة وشدة:

1- لا تفرضي على ذاتك عهداً تقويّاً قبل أن تستشيري معلتكِ معرّفك، أيّاً كان ميلُكِ إلى هذا العهد، وإن أوصاكِ به علناً أو سراً شخصٌ واجبٌ عليكِ احترامهُ.

2- آثري دوماً التمارين القانونية على ما تفرضينه أنتِ على ذاتكِ، وتمسكي بشدة بوفائها مع الجمهور كله لا وحدكِ، وإن كانت تشتتاتكِ أغزر وأكثر من الآخرين.

3- لا تكثري ممارسات عبادتكِ بإفراط، ولا تتهافتي خصوصاً على التي ينشرها بعض أشخاص أتقياء يستولون فجأة على مخيلتكِ أو قلبكِ لأنهم على جانب من الجمال ويلوحُ لكِ أنهم مدعوّون إلى أن يجري على يدهم خير عظيم. ففي كثرة العبادات إرتباك للعقل، وخسارة فادحة للوقت، ولعلكِ تهملين لذلك واجباتكِ.

4- تجنبي كل عبادة وكل ممارسة تبدو كثيراً لعيون الجمهور. فقد تُحسبين لأجلها غريبة، وقد تزجك في مهاوي الزهو الباطل.

5- لا تُستعبدي بإفراط لممارساتكِ بحيث لا تعرفين كيف تتركينها بلا أسف حالما تقتضي ذلك الطاعة أو المحبة أو اللياقات نفسها.

6- أيّاً كانت طريقتكِ في الصلاة العقلية، وأيّاً كانت سلطة من أشار بها عليكِ، أخضعيها لفحص معلمتكِ. فإذا رأَت موافقاً أن تلزمكِ بإتباع الطريقة المرعية في الجمهور فأطيعيها بلا اعتراض. والله يعرف كيف يقودكِ فيما يعد حيث يُريد.

7- أَري معلمتكِ كل ما جلبتِهِ من الكتب التقوية وكل ما يُعطى أو يُعارُ لكِ. وأَقري ببساطة ما هي الكتب التي تلذ لكِ بالأكثر. ولا تحتفظي إلا بالكتب التي تُترك لكِ.

8- اذكري أن كلمة عبادة (الفرنسية) تذكّر بكلمة معناها التفاني، وأن هذا التفاني لا يقوم في فعل كذا أو كذا مما يرضينا أو يملّقنا، ولا في صلاة تؤثر فينا، ولا في قراءةٍ تثير دموعنا، بل في قبول الحالة التي يريدنا فيها الله قبولاً تاماً، وفي إتمام الواجب المفروض علينا إتماماً كاملاً، بالرغم من كراهيات الطبيعة والإنزعاج الذي تصوره لنا مخيلتنا.

9- لا ريب في أنكِ سوف تُعطَين مدة حياتك الرهبانية كلها كل الوقت الضروري للقيام بواجباتكِ الدينية. ولكن إذا فرضنا أنكِ أُلزمتِ يوماً بإختصار الشكر بعد التناول، أو حُذف جزء من صلواتك، أو نُهيتِ عن إتمام صوم مفروض، أو أُقصيتِ مدةً عن الخورس، أو حُرمتِ تناولاً... فالبَثي في سلام، وإعلمي جيداً أنكِ تكرمين الله بخضوعكِ البسيط الخالي من التذمر إكراماً أوفر مما بصلواتكِ أو بحرمانكِ وتقشفاتكِ لو كنت تبعتِ فيها ميلكِ.

10- إجتنبي العناد في عباداتكِ. فالتمسك بالصلوات والتناولات والممارسات الخاصة هو من العلامات التي يُخشى منها بالأكثر أن تكون العبادة كاذبة. قال القديس توما: "العبادة استعداد خاص في الإرادة به تُقبل النفس بإندفاع على كل ما يتعلق بخدمة الله". خدمة الله! تلك هي الكلمة المهمة في هذا التحديد، وهذه الخدمة يرجع إلى الله أن يأمرنا بها لا إلينا أن نختارها.

11- لا تظني أنكِ قد خسرتِ كل شيء إذا كنتِ لا تشعرين بعذوبة في الصلاة ولا بميل إلى التناول ولا بفرح بعد الاعتراف. فهذه العذوبة وذاك الميل وهذا الفرح قد تكون، ولا ريب، من مفاعيل النعمة، لكنها تكون غالباً أيضاً من مفاعيل الشعور الحسي الطبيعي والمخيلة، وما من وصية تفرضها علينا. يجب عليكِ أن تصلي وتتناولي وتعترفي لأن الله يريد منكِ ذلك، لا لأنكِ تجدين إرتياحاً في إتمام هذه الواجبات.

كتب القديس فرنسيس السالسي إلى إحدى تلميذاته الروحيات قال: "تُحسنين صُنعاً بأن تواصلي تمارينك التقوية فيما بين اليبوسات والكراهيات. إذ بما أننا لا نروم خدمة الله إلا حباً له، وبما أن خدمتنا له في حال اليبوسات أكثر إرضاء له من خدمتنا فيما بين العذوبات، فيجب علينا من جهتنا نحن أيضاً أن نرضى بهذه الخدمة في اليبوسة

وأكثر، على الأقل بإرادتنا السميا. وأن تكن العزيات أعذب على قلبنا بحسب ميلنا وحبنا الذاتي، فاليبوسات أنفع لنا بحسب ميل الله وحبه".

ويردف القديس نفسه قائلاً: "نحن ميّالون إلى العذوبة والتعزيات في التقوى، بيد أن نشوفة اليبوسة أجدى لنا. وإن يكن القديس بطرس قد أحب جبل ثابور وهرب من جبل الجلجلة، فهذا يبقى مع ذلك أنفع من الأول، والدم المهراق في الجلجلة أحب من النور المتدفق في ثابور. إن سيدنا يسوع المسيح يعاملكِ منذ الآن كنفس قوية. فعيشي قليلاً على هذا النحو. فخيرٌ لنا أن نأكل الخبز بلا سكر، من أنا نأكل السكر بلا خبز".

2
قواعد خاصة

نبسط في ما يلي أهم العبادات المشتركة بين كل أديرة الابتداء. وبما أنه ليس من غرضنا أن نؤلف كتاب صلاة، فنكتفي ببعض ملاحظات عامة. هذا وإن في أديرة الابتداء الخاصة كتباً تدل على تمارين من شأنها أن تنعش نفوس المبتدئات[12].

(1) العبادة للثالوث الأقدس

إن سعادة الملائكة والقديسين في السماء هي في مشاهدة هذا الثالوث القدوس وجهاً لوجه، وفي السجود له وحمده ومحبته والإنشاد له بلا إنقطاع وﷺ ملل: قدوس، قدوس، قدوس ... والكنيسة تضع على لسان الكاهن والمؤمنين معاً هذا النشيد الملائكي عينه عند قرب حلول الضحية المقدسة على مذابحنا. وهي تبتدئ ذبيحة القداس وتوزيع الأسرار وصلواتها كلها وﷺ سيما صلوات الفرض الإلهي باستدعاء الثالوث الأقدس. وتختم كل المزامير والأناشيد والﷺلوات والإبتهاﷺت بالمجدلة للآب والﷺبن والروح القدس...

فأنتنَّ، أيتها المبتدئات التقيات، اللواتي تحاولنَ بعيداتٍ عن العالم، أن تﷺرنَ ملائكة الأرض، أحببنَ ترديد هذا النشيد الذي سوف تردّدنه مدى الأبدية: قدوس، قدوس، قدوس رب الﷺبؤوت. المجد للآب والﷺبن والروح

[12] لكل دير ابتداء عبادة خاصة للسر أبو للقديس الذي بُني الدير على اسمه. فهذه العبادة ﷺ يسعنا إﷺ أن نذكرها فقط، من غير أن نتوسع في تفسيرها وشرحها. مع أنه كان حلواً وعذباً على قلبنا أن نفيض في الكلام على سر القربان الأقدس والتناول وقلب يسوع والعذراء القديسة والقديس الفلاني والقديسة الفلانية، فنحمل هكذا المبتدئات على محبة أعظم وتفانٍ أكمل ليسوع المسيح ومريم وللقديس شفيعهنَّ ...

القدس! جدّدن عواطف الإيمان والاحترام والحب للثالوث الأقدس كل مرة ترسمن على ذواتكن إشارة الصليب وتلفظنَ في الفرض: المجد للآب ... إحنينَ رؤوسكن بحسب رغبة الكنيسة والفظن سراً فعل خضوع ومحبة.

طلب القديس منصور دي بول إلى البابا أن يفرض في مرسوم إنشاء جمعيته على جميع أعضائها أن يكرموا هذا السر الجليل إكراماً خاصاً.

(2) العبادة للعناية الإلهية

يجب أن تكون هذه العبادة العبادة الكبرى في الجماعات الرهبانية.

العناية، هي الله من حيث هو أبٌ يعود إليه الإهتمام بعيالة الجمهور وشرفه والدفاع عنه.

إن من يقرأ بإنتباه نصوص الإنجيل التي تظهر لنا الله معتنياً بأصغر الخلائق، ومستحلفاً إياناً بأن نثق به، ومؤكداً لنا أنه إذا طلبنا ملكوت الله وبره يهتم هو بنا من حيث الباقي، وواعداً إيانا نحن الذين تركنا لأجله أبانا وأمنا وأخواتنا وأرزاقنا بمئة ضعف حتى في هذه الحياة، كيف يسعه أن لا يشعر بالتأثر، وبالشكر، وبثقة لا حدّ لها؟

إلهي، إلهي، أنت أبي، فلن تدعني أبداً يعوزني شيء. أنت أمي، فستحبني. أنت أخي، فستدافع عني. أنت أختي، فستعتني بي! إلهي، ما أسعدني أنا القادرة أن أدعوك أبي بحقٍ يفوق حق سائر الخلائق التي لم تدعها إلى العيشة الرهبانية!

كثير من الجماعات الرهبانية تتلو كل يوم طلبة العناية الإلهية. فاتلي على الأقل بحبّ الصلاة الربية، ولتكن أعز الصلوات على قلبكِ.

(3) العبادة لسر الإفخارستيا المقدس

تلك هي عبادتكن القلبية، وقد أسعدكن الحظ بأن تعِشنَ بقرب يسوع المسيح الحاضر حقاً، وأن تسترحنَ تحت السقف نفسه، وأن تذهبن لزيارته مرات في النهار، وأن ترين في كل ساعة الجدران المباركة التي تخفيه عن نظركن لكنها لا تخفيكن عن نظر محبته.

فأحببن أن تزرنَ القربان المقدس، فليس من عبادة راهنة كهذه، كما قال بوردَلو، ولا عبادة أقرب إلى مآرب ونيات يسوع المسيح، ولا أفيد لنا وأنفع لخلاصنا. بادرن إلى الذهاب أمام المذبح كل مرة تدعوكن الفرائض أو تُتيح لكنَّ ذلك. وليكن نعيمكنّ في أن تكنَّ مع يسوع، وهنالك أحببنَ وصلين وابكين واشكرن واطلبنَ. وإن لم يسعكنَّ أن تُبررنَ عاطفةً من قلبكن فامكثنَ بقربه ودفِّئن نفسكن في أتون المحبة، واكتفين بالنظر بالنظر إليه، وبالإنتظار والصبر ...

إحضرنَ القداس الإلهي بالاحترام الداخلي والخارجي الذي ينبئ الملائكة وأخواتكنَّ بما يخالجكنَّ من العواطف. وأنكنَّ تجدنَّ في الكتب صلوات وطرائق للإتحاد بيسوع المسيح مدة القداس، فاتلينَ هذه الصلوات، وادرسنَّ تلك الطرائق، واتبعنها بأمانة ولا تبدّلنها من عير رضى معلمتكنَّ.

أما التناول المقدس، فأحبيه يا أختي. فإن التناول حياة النفس، وشفاء المرضى، وقوة الضعفاء، وكمال القديسين...

يختلف عدد التناولات الأسبوعية باختلاف حالة النفس كل مبتدئة. فإذا لم يُتح لها أن تتناول التناول السريّ، فلتعوض عنه بالتناول الروحي.

(4) العبادة لقلب يسوع الأقدس

هذه العبادة مرتبطة بالعبادة للإفخارستيا. إن يسوع المسيح قد وكل إلى راهبة مهمة نشر العبادة لقلبه الأقدس. ويظهر أنه للراهبات أكثر مما للآخرين قد وكل العناية بمحبة قلبه ونشر معرفته بين الآخرين والتعويض عن الإهانات اللاحقة به. فعليكِ إذن أن تحبي هذا القلب القدوس وأن تجعليه محبوباً. تعالي مراراً أمام بيت القربان لتتأملي في حبه الرقيق، الصادق، الحار، ا لواسع، النَزيه، الثابت. وإتّحدي به لتكوني على مثاله وضيعة، وديعة، صبورة، متفانية، فتجدي في هذا الإتحاد نوراً وقوةً وعزاء.

(5) العبادة لأسرار يسوع المسيح

إن الكنيسة تعيد إلينا كل سنة في حفلاتها ذكرى أسرار يسوع المسيح: تجسده، وميلاده، وحياته الخفية، وآلامه، وموته، وقيامته، وصعوده؛ وهذه كلها تتوالى لتذكرنا ما أبداه لنا من الحب وما يترتب علينا نحوه من الواجبات.

هذه الأسرار هي أُسس إيماننا، وسند رجائنا، وموضوع محبتنا وعزائنا. بها نعرف يسوع المسيح، وهذه المعرفة هي العلم الوحيد الضروري للمسيحي والذي كان بولس الرسول يفتخر بأن لا يعرف علماً آخر سواه هو وتلاميذه: لقد جزمتُ ألا أعرف بينكم إلا يسوع المسيح، وإياه مصلوباً. فهذه الأسرار احتفلي بها بتقوى، باذلةً جهدكِ لتتوغلي في روح السر. ونو□يكِ بسرّين على الخصوص: سرّ طفولة يسوع المسيح الذي هو مثال الابتداء وسرّ الصليب.

كل الراهبات تقريباً يحملن على □درهن □ليباً. فأنتِ قبّلي □ليبك عند الرقاد وعند النهوض. وتعوّدي هذه العادة التقوية القائمة بأن تحني رأسك قليلاً في التجارب، وفي ساعات القنوط، وفي الأوقات التي تبدو فيها لكِ الطاعة عسرة جداً، وأن تهمسي ليسوع: أيها المعلم الصالح لا تتركني. وفي الأيام التي تشعرين فيها أنكِ مرهقة بالأكثر، أَحبي أن تمارسي رياضة درب الصليب؛ فإنكِ لن تسيري على هذا الدرب مع يسوع المسيح وفي إثره من غير أن تشعري بقوة وشجاعة لإحتمال العذاب.

تنبيه: لا نُفردُ فقرةً للكلام على العبادة للكنيسة، وهي من ملحقات العبادة ليسوع المسيح الذي وكل إليها أن توا□ل عمله. فالآن هي الكنيسة تكلمكِ، لا يسوع المسيح. فاحترمي إذن كل قرار أو كلمة تبدر من فم الحبر الأعظم. احترمي الأساقفة. احترمي الكهنة. ولا تسقطنَّ أبداً من شفتيكِ كلمة إزدراء أو ملامة بشأنهم وإن ظننتِ أن لكِ أسباباً كافية تخوّلكِ حق النيل من كرامتهم.

(6) العبادة للعذراء القديسة

كل أديرة الابتداء تضع ذاتها تحت حماية العذراء القديسة. وتمثالها أو أيقونتها ترأس اجتماعات المبتدئات العادية، ومن عرشها هذا تملك على جميع النفوس والقلوب. وكل الأنظار تتجه إلى الأيقونة المحبوبة عند تلاوة الصلوات... وإليها تصوّب المبتدئة التعبة في شغلها أنظارها حيناً بعد آخر لتطلب شيئاً من الشجاعة. وحولها تجثو الركب كل مساء في بعض الأديرة لتلاوة فعل التكريس...

إن العبادة لمريم العذراء، المدعوّة بحق "عبادة المختارين" لأنها لا تنفصل عن عبادة يسوع المسيح، كثيراً ما تكون موضوع وعظ في مدة الابتداء. فافتحي قلبكِ للأقوال الصالحة التي تُلقى عليكِ. واقبلي بفرح الممارسات التقوية التي تُعرَض عليكِ. واحتفلي بفرح عظيم وجمع فكر بليغ بكل الأعياد المقامة لإكرام مريم.

ومن صلواتك القانونية أحبي خصوصاً تلاوة المسبحة. ففي حالة المرض، لتكن المسبحة آخر صلاة تتركينها إذا طُبي منكِ أن تتوقفي عن تلاوة بعضها. ليست تلاوة المسبحة بصعبة ومُتعِبة، ويمكن إعادتها وقطعها بسهولة، وقد تقوم مقام التأمل والاستعداد للتناول والشكر بعد التناول... ما أسعدكِ على فراش الموت إذا استطعتِ أن تقولي: من يوم دخولي الرهبانية لم أُهمل مرة واحدة عمداً تلاوة سُبحتي.

كان الرجل التقي توما الكمبيزي يقول للمتبدئين الذين يرشدهم: "متى وقعتم في محنة وأردتم وطأتها إذهبوا إلى أم يسوع، إذهبوا إلى مريم". ونحن بدورنا نقول لكِ مع خادم مريم هذا الغيور، بكل ما يسعنا من غير وحرارة: "افتكري بمريم، وادعي بمريم، وأكرمي مريم، وتكلمي عن مريم، وحبّي مريم، وابتهلي إلى مريم" – مع مريم إلبثي معتزلةً في قلايتكِ؛ مع مريم إلزمي الصمت؛ مع مريم عيشي في فرح؛ مع مريم احتملي أحزانكِ؛ مع مريم إشتغلي؛ مع مريم صلي؛ مع مريم تنَزّهي؛ مع مريم استريحي – مع مريم اطلبي يسوع؛ بين ذراعيكِ احملي يسوع؛ ومع يسوع ومريم اجعلني سكناكِ في الناصرة – مع مريم اذهبي إلى أورشليم وإلبثي بقرب صليب يسوع، وادفني يسوع – مع مريم ويسوع إنهضي؛ ومع مريم ويسوع إصعدي إلى السماء؛ ومع مريم ويسوع كوني في حياتكِ ومماتكِ.

أيتها المبتدئة الحبيبة، إذا سرتِ على هذا النحو فالشيطان يهرب بعيداً عنكِ ونفسك ترتفع تدريجاً إلى السماء! طوبى لمن يعيش في ألفةٍ مع يسوع ومريم، ويدعوهما إلى مائدته، ويختارهما رفيقين لهُ في سفره، ومعزيَين لهُ في أحزانه، وملجأين لهُ عند إنحباط عزيمته، ومشيرين لهُ في أرتياباته، وسنداً لهُ في ساعاته الأخيرة!".

(7) العبادة للقديس يوسف

قد انتشرت العبادة للقديس يوسف، منذ بضع سنوات، انتشاراً يمكن أن يسمى عجيباً. وكل القلوب المسيحية تبتهج لذلك. فافرحن، أنتنَّ أيضاً أيتها الراهبات عروسات يسوع، لأن القديس يوسف قد صار بالفعل عينه

محامياً عنكنَّ أو بالحري معيلكنَّ. ألم يكن هو الموكولة إليه راحة العيلة المقدسة المادية؟ وبما أنكنَّ أنتنَّ تواصلنَ تلك الأسرة الناصرية بعيشتكنَّ مع يسوع ومريم، أليس ملتزماً بأن يهتم بكنَّ؟

إن تواريخ الأديرة ممتلئة من الحوادث العجيبة التي تشهد بتدخل القديس يوسف الخاص في شؤونها. فبعض أديرة الابتداء الفارغة جاءتها طالبات ممتازات بالتقوى؛ وفي بعض الأحيان، على أثر صلاة حارة، جاءت مواد غذائية ضرورية لطعام النهار، أو مبلغ من الدراهم ضروري لوفاء فريضة ملحة أو لقبول مريضة مسكينة في المستشفى، جاءت هذه كلها على يد بعض أشخاص مجهولين أحياناً، وغالباً على يد بعض النفوس المحبة وهي تقول: لقد شعرنا بما يدفعنا إلى المجيء إليكنَّ...

فإذهبي إذن إلى القديس يوسف، وصلّي إليه، وتأملي في فضائله، فتتعلمي بقربه أن تصلي، وتشتغلي، وتتألمي، وخصوصاً أن تموتي ميتةً صالحة.

(8) العبادة للملائكة الحرّاس

إن العبادة للملائكة القديسين، ولا سيما للملاك الحارس، يجب أن تكون إحدى العبادات الخاصة بدير الابتداء. فهي تقود إلى ممارسة الحياة الداخلية وحياة الاتحاد بالله، وهي نتيجة العبادة للعناية الإلهية.

قليل من الأفكار يشجع ويعزي كالفكرة التالية: إن لي بقربي ملاكاً لا يفارقني أبداً. فالله قال له في محبته وجودته: كن لهذه النفس معزياً، الآن خصوصاً وقد تركت أسرتها لتتعلق بي، كلّمها عن أبيها وأمها، وأظهر لها أسرتها في حماية العناية الإلهية.

كن لها حارساً: أبعد من حولها القنوط والتجربة والخطيئة.

كن لها دليلاً: أرِها قانونها كالطريق الأمين الواجب أن يقودها إليّ؛ مهِّد العقوبات التي تلاقيها، وأنعش تضحياتها ببعض أسباب الفرح.

كن لها محامياً: نبِّهها بالنصائح والتوبيخات والعقوبات إذا لزم الأمر؛ ولكن لا تدعها تسقط. وإذا زلَّت وهفَت مع تنبيهاتك، فساعدها على النهوض والرجوع إليَّ.

ففكري إذن مراراً في ملاكِكِ الحارس. وبما أن العادة التقوية تدفعكِ إلى الاستنجاد به صباحاً ومساءً، فاتلي باحترام بليغ وفرح جزيل الصلاة التي توجهينها إليه.

(9) العبادة للنفوس المطهرية

في كثير من الجماعات الرهبانية تعرُض الرئيسات على أخواتهنَّ إبراز فعل المحبة البطولي نحو النفوس المطهرية، وقد وافق الكرسي الرسولي على هذه الممارسة وعلّق بها عفرانات عديدة.

معلومٌ أن فعل المحبة البطولي هذا هو تقدمة أو عطية اختيارية بها نقدم لله كل أعمالنا الوفائية الشخصية مدة الحياة وكل وما يوَّجه إلينا من الوفاءات بعد وفاتنا ونضعها بين يدي العذراء الجزيلة القداسة لتوزعها هذه الأم الحنون كما تشاء هي، على النفوس المطهرية التي تريد إنقاذها من عذاباتها المطهرية. فبقوّة هذا الفعل الذي يُبرز مرة واحدة، نتجرد فقط من ثمرة أعمالنا الوفائية وما يوَّجه إلينا من الوفاء؛ وهذا لا يمنعنا أن نصلي لأجل أنفسنا ولأجل أهلنا الخ ... هذا الفعل لا يُلزم صاحبه تحت طائلة الخطأ، ولا يعبَّر عنه بعبارة خاصة، بل يكفي أن يُصدر داخلياً في القلب. وقد أغناه البابوات بندكتس الثالث عشر وبيوس السادس وبيوس التاسع بغفرانات عديدة.

كثيراً ما تبادر الراهبات بسرعة إلى إبراز الفعل المحبة هذا، فلا تمضي ساعة من النهار أو من الليل إلا ويقبل فيها عدداً لا يكاد يحصى من الصلوات والأعمال الوفائية لإنقاذ النفوس المطهرية العزيزة.

والراهبة التي وهبت للنفوس المطهرية ثواب أعمالها لا تمضي ساعة إلا وتصنع نحو هذه النفوس، بأمانتها لفرائضها، ونشاطها في شغلها، وصبرها في أتعابها، عمل رحمة قد وعد الله بأن يكلّله في الدينونة الأخيرة.

وهوذا الآن تعليم القديس فرنسيس السالسي المعزّي بهذا الشأن:

1. إذا نزلتِ في وسط هذه النيران الملتهمة وحملتِ إلى النفوس المنطرحة على سرير من نار صدقة صلواتكِ، ألا تكونين قد زرتِ المرضى من بعض الوجوه؟
2. أليس سقياً للعطاش سكبُ ندى النعمة السماوية العذب على النفوس المتلهبة عطشاً إلى رؤية الله وجهاً لوجه؟

3. حقاً أننا نطعم الذين يلتمسون منا قوتاً إذا كنَّا نسبِّق لهذه النفوس ساعة الحصول على سعادة السماء وعلى الله الذي تجوع إليه أكثر من جوع المستعطي إلى الرغيف الذي نقدمه له.
4. أجل، نحن نفتدي الأسرى عندما ندفع فدية النفوس القديسة أسيرة العدل الإلهي، بكسرنا وتحطيمنا القيود التي تربطها بعيدةً عن السماء، ويا لها من قيود!
5. ونكسو العراة كسوةً ممتازة عندما نفتح للموتى، بتوبتنا، أبواب مسكن المجد حيث أعدّ لهم الرب ثوباً من النور فائضاً بالسنى الأبدي.
6. وما أعجب الضيافة التي نقدمها لهذه النفوس بإدخالها أورشليم السماوية، مدينة الأرواح الطوباوية الظافرة.
7. وهل بوسعنا أن نجعل مقابلةً بين ثواب دفن أجساد سوف يأكلها الدود، وثواب وسعادة إدخال نفوس خالدة إلى الأخدار السماوية[13]؟

[13] نحرّض الراهبات المبتدئات على تعيين عبادة لكل يوم من أيام الأسبوع. فيوم الأحد: العبادة للثالوث الأقدس والعناية الإلهية. ويوم الإثنين للملائكة الحراس. يوم الثلاثاء للشفيعة الخاصة. ويوم الأربعاء للقديس يوسف. ويوم الخميس للرسل القديسين. ويوم الجمعة للقربان الأقدس والقلب الأقدس وآلام المسيح. ويوم السبت للنفوس المطهرية.

الفصل العاشر

في أركان الابتداء

إن للابتداء أركاناً داخلية، كماءٍ حي، تنميها وتقويها وتكملها، وهي: التأمل، وفحص الضمير، والرياضة الشهرية، والقانون الخاص.

وهنالك أيضاً مستندات خارجية هي للمبتدئة سندات تساعدها على البقاء قوية رغم الخضَّات التي تزعزعها أحياناً، وشجاعة رغم أفكار الإنحطاط والضجر التي يوحي بها إليها الشيطان. وهذه المستندات الخارجية هي القانون، والصلاة الجمهورية، والاسترشاد، ومجمع الاستغفار، والقراءة الروحية.

 نتكلم عن الأسرار التي هي لجميع المؤمنين على السواء وعنها تفيض كل الكتب التقوية بأحكم النصائح. ففي هذه الأسرار، وخصوصاً في الاعتراف والتناول، تستقي المبتدئة ما تحتاج إليه من قوة وشجاعة. فلتقبلهما بالعتناء والاجتهاد اللذين كانت تبديهما في قبولهما قبل دخولها الدير. ولعلّها في بادئ الأمر تصادف فيها فرحاً وعذوبة، ولكن فلتحذر الخداع، فإن ثمرة الاعتراف والتناول ليست في ما تشعر به من فرح وعذوبة، بل في السهر على ذاتها، وفي كراهية الخطيئة، وفي التعلّق بواجباتها، والإتحاد بالله.

1
الأركان الداخلية

(1) التأمل أو الصلاة العقلية

أمن الضروري أن نذكركِ بإسهاب ضرورة التأمل؟ أ تدركين، بعد كل ما قلناه عن واجباتكِ، إنكِ من غير نصف الساعة هذه تناجين فيها الله كل يوم، يستحيلِ عليكِ أن تقومي بواجباتكِ وخصوصاً أن تبلغي إلى هذه الحياة الداخلية التي بسطنا لكِ ضرورتها؟

ففي التأمل تقدين إكرامكِ لله، وتسمعين كلمته، وتعدينه بخضوعكِ، وتقدمين ذاتكِ لخدمته، وتعرضين له حاجاتكِ، وتبينين له أوهانكِ، وتحديثنه عن مخاوفك وعمّا تخشينه من الموانع، وتطلبين عونه وتعدينه بفعل ما يُرضيه.

فاعكفي إذن على التأمل. ولكي نشجعكِ على ذلك سنبسط لكِ بعض أقوال القديسين لتساعدكِ على إنعاش حرارتكِ وإرادتكِ في أوقات الكراهية والتعب.

الصلاة العقلية ركن وأساس للفضائل الراهنة. فإذا نقص الأساس لا يلبث البناء كله أن ينقلب. (القديسة تريزيا).

الصلاة العقلية لا يجتمعان في نفس واحدة. (القديس فيلبس دي نيري).

لم يكن النساك القديسون ينعمون إلا بقليل من المحاورات الروحية؛ بل كثير منهم لم يكونوا يسعدون بالإشتراك المتواتر في سر الإفخارستيا؛ ومع ذلك، فبواسطة الصلاة العقلية قد صاروا رجالاً ملائكيين، رجالاً كاملين في الفضيلة، مفعمين إحتقاراً ونسياناً لذواتهم مفعمين محبة حارة وحية للقريب (القديس فرنسيس السالسي).

من المسيحيين من يتناول كل يوم وهو في حال الخطيئة المميتة؛ ومنهم من يتصدّق صدقات وافرة وهو في حال الخطيئة المميتة؛ ومنهممن يتقشف بأنواع شتى وهو في حال الخطيئة المميتة؛ ولكن لن تكون أبداً نفس تصلي الصلاة العقلية كل يوم وتبقى في حالة الخطيئة المميتة (القديس الفونس دي ليغوري).

إذا أردتِ أن تحتملي شدائد الحياة وشقاءها، فكوني نفساً تحب الصلاة العقلية.

وإذا أردتِ أن تنالي شجاعة وقوة لتتغلبي على تجارب العدو، فكوني نفساً تحب الصلاة العقلية.

وأذا أردتِ أن تقهري إرادتكِ الذاتية مع كل أميالها الشريرة، فكوني نفساً تحب الصلاة العقلية.

وإذا أرتِ أن تعرفي حيل الشيطان ولا تنخدعي بمواعيده، فكوني نفساً تحب الصلاة العقلية.

وأذا أردتِ أن تعيشي في الفرح وتسيري بسكينة في سبل التجرد، فكوني نفساً تحب الصلاة العقلية.

وإذا أردتِ أن تغذي نفسكِ بعذوبات العبادة وتملئيها دوماً أفكاراً أو أشواقاً صالحة، فكوني نفساً تحب الصلاة العقلية.

وإذا أردتِ أن تستأصلي من نفسكِ كل العيوب وتزرعي بدلها الفضائل التي تجعلكِ محبوبة عند الله والريب فكوني نفساً تحب الصلاة العقلية (القديس بونافنتورا).

إن الراهبة التي تتهاون في الصلاة العقلية لا تكون عابدة في الكنيسة، وتكون مشتتة في الخورس، وغير محتشمة في الدير، ومبدّدة في المحاضرات، وحزينة وقلِقة في كل مكان. فالشغل يزعجها، والأوامر لا تسرها، وحيل الشيطان تخدعها، والتجارب تتغلب على ضعفها وعطبها (القديس توما الفلانوفي).

النفس التي تترك الصلاة العقلية لا تحتاج إلى شيطان ليجربها، فهي شيطان لذاتها. أما الأمينة في ممارسة الصلاة العقلية، مع ما تشعر فيها من الضجر والكراهية، فتصل عاجلاً أم آجلاً إلى ميناء الخلاص (القديسة تريزيا).

الصلاة العقلية سور النفس القديسة، وعزاء الملاك الصالح، وعذاب الشيطان، تطفئ العيوب؛ هي أم الفضائل، ومرآة النفس، وقوة الرجاء، وطريق العلم، وأتون المحبة، والراحة من التعب، ومصدر الإنسحاق، واستئصال الأميال الرديئة، والوسيطة التي تنال لنا كل الخيرات الروحية (القديس لورنسيوس يوستنياني).

نكتفي بما سبق من النصوص، وبوسعنا أن نكثرها بسهولة. إذ ليس من مؤلف روحي لا يلحّ في تبيان ضرورة التأمل. ونكتفي فقط ببعض تنبيهات عامة.

ولا نروم أن تعيّن طريقة خاصة للصلاة العقلية، لأن كل جماعة رهبانية تختار وتعتمد التي تراها أصلح لها. ومعلوم أن كل راهبة تتبع الطريقة المرعية في جماعتها، ما لم يكن لها ميل خاص يجب إخضاعه للمرشد وللرئيسة قبل إتّباعه.

بعض نصائح بشأن الصلاة العقلية

إتخذي، مدة التأمل، الهيئة التي تبدو لكِ أوفق لحالة نفسكِ أو لضعفمزاجكِ، فلكِ أن تقفي أو تركعي، أو تجلسي، أو تخرّي ساجدة إلى الحضيض (القديس أغناطيوس).

وجِّهي معظم جهدكِ لا إلى الإمعان في التفكير بل إلى فهم وتذوّق ما تتأملين فيه في داخلكِ. وتمسّكي خصوصاً بمعرفة وإدراك ما فعله يسوع المسيح وفكّر فيه بشأن الموضوع الذي يشغلك. طوبى للنفوس التي يسوع المسيح حاضر دوماً أمامها مدة الصلاة العقلية. فهو وحده الطريق والحق والحياة (المسيو أوليبه).

إذا أثّر فيكي فكرٌ ما فتوقفي أمامه ما دام تأثيره، ولا تحاولي أن تنتقلي إلى فكر آخر.

لا تتهاوني في إتباع الطريقة المعينة لكِ، فذلك من مفاعيل الكسل. ولكن لا تستعبدي لها بحيث تتبعين تفاصيلها بحذافيرها. حالما تشعر نفسكِ بتأثير عذب يدلها على حضور الله، أتركي كل طريقة وإلبثي مع الله. لا تطلبي في عقلكِ ما هو في قلبكِ (القديس فرنسيس السالسي).

تمسكي بالعواطف أكثر مما بالاستنتاجات العقلية.

إذا أصابتكِ يبوسة أو تجربة أو ملل، فإلزمي الشجاعة والصبر! إلبثي حتى النهاية في حضرة الله. في مثل هذه الحال يُفيدكِ أن يكون التأمل بهيئة صلاة.

أحبي أن تطيلي مناجياتكِ ليسوع المسيح والعذراء القديسة. أذكري أن التأمل هو فوق كل شيء مناجاة الله (القديس أغناطيوس).

غاية كل صلاة عقلية أن تزيدكِ أمانةً في إتمام واجباتكِ، وإتضاعاً، وطاعةً، وصبراً، وإماتة... فلا تقيسي إذن قدر صلواتكِ العقلية بمقياس ما تشعرين به فيها من تعزياتٍ أو تتحميلنه من ضجر وملل، بل بما تشعرين به في آخرها من نية صالحة وما تبذلينه من جهودٍ لتصيري أكثر موافقةً لمطالب القانون.

ليس الهدف أن نشعر بعواطف في صلاتنا العقلية، بل أن نريد. فإن العاطفة في غالب الأحيان لا تتعلَّق بنا؛ والله ينْزعها منَّا ليجعلنا نشعر بفقرنا، ويعوّدنا الصليب بواسطة اليبوسة الداخلية، ويطهرنا بجعله إيانا نتلعق به من غير هذه التعزية الحسية. وهو يردّ لنا، حيناً بعد آخر، هذه التعزية شفقةً منه على ضعفنا (فينلون).

كوني في مناجاتك لله متكلفة ولا متصنعة، بل كما مع صديقة لا تزعجكِ في شيء ولا تزعجينها البتة. فصديقتان على هذا النحو تتشاهدان وتتحدثان وتسمع إحداهما للأخرى، وتُسَرّان، وإن ظلتا صامتتين، بأن تجتمعا

معاً؛ فالقلبان يستريحان في مشاهدة أحدهما الآخر ويكوّنان معاً قلباً واحداً. ولا تزِنان كلامهما، ولا تُعنيان بالتلميح إلى شيء، بل كل شيء يكون من باب العاطفة الودية. ومسرتهما واحدة يوم المناجيات القصيرة ويوم المناجيات الطويلة. يجب أن لا نذهب إلى الله في زيارات لتأدية واجب عابر، بل يجب أن نلبث معه في إلفة أهل البيت، بل بالحري في إلفة البنين. كوني مع الله كالابن مع أبيه؛ فذلك وسيلة تفكيكِ الملل والسأم (فنيلون).

تقولين أنكِ تلبثين بطَّالة بلا عمل في التأمل. وما عساكِ تفعلين فيه غير ما تفعلينه في الواقع، فإنكِ تبسطين لله عدمكِ وشقاءكِ. إن أجمل خطاب يوجهه إلينا المستعطون هو أن يعرضوا على نظرنا قروحهم وحاجاتهم. بل إنكِ في بعض الأحيان لا تفعلين شيئاً من ذلكبل تلبثين أمام الله كشبح أو كتمثال. فاعلمي أنه ليس شيئاً قليلاً أن تكوني على هذا النحو. ففي قصور الأمراء والعظماء تُنصب تماثيل لا غاية منها سوى إراحة نظر الأمراء. فاكتفي بأن تقومي بهذه ا لمهمة حضرة الله. وهو ينعش هذا التمثال متى حسن لديه (القديس فرنسيس السالسي).

متى شعرتِ بالتعب، استعملي الكتاب الذي تهيئين فيه تأملكِ. إقرأي حينئذٍ مدة وجيزة، ثم تأملي، واجري على هذا النحو إلى آخر الوقت المعدّ للتأمل.

ولعلكِ تقولين: لا بدّ أن يكون الكتابُ دوماً بيدي، وإلا بقيتُ بلا عمل. وأنا أُجيبك: سيَّان أن يكون بيدك الكتاب، ومرات متوالية، وأن لا يكون. فالمهم هو أن تصلي وتتحدي بسيدنا يسوع المسيح.

(2) فحص الضمير الخاص

كل الذين يتهاونون في فحص الضمير الخاص يظلون على حالهم بل يتأخرون في طريقة الفضيلة. فيما الذين يزاولون هذا التمرين بإجتهاد دائم يتقدمون من باب الضرورة. إن فحص الضمير إذا أتقنَ إتقاناً جدّيّاً مدة شهر واحد فقط، يأتي في آخر هذا الشهر بنتائج مدهشة.

يقوم هذا التمرين، كما تعلمين، بتعيين نقيصة أو عادة يرام إقتلاعها، وبالنظر مرة في النهار إلى جهاد النفس ضد تلك النقيصة وما أحرزته من إنتصارات أو وقعت فيه من سقطات.

فإختاري إذن أحد عيوبك، بالإتفاق مع معلمتكِ، وصوّبي سهامكِ في بدء الأمر إلى العيوي التي تجرح القريب أو تشككه. ﷺ تبدلي موضوع فحص الضمير إﷺ بقدر ما تبيدين أو تضعفين العيب المعيّن هدفاً لجهادكِ. وﷺ تُقبلي على هذا التبديل من غير استئذان.

وإذا رأى رؤساؤك الأمر مناسباً وكانت هذ العادة في جماعتكِ، سجلي كل يوم، بطريقة أو بأخرى وبدقة، نتائج فحصك. وألزمي نفسكِ أن تقدّمي لمعلمتكِ في كل أسبوع، أو كل شهر على الأقل، نتيجة هذا الفحص.

إفرضي على ذاتكِ كل يوم بعض إماتات تتفق مع العيب الذي تريدين محاربته أو الفضيلة التي ترومين إكتسابها. وﷺ تكتفي بأن تنتحبي أمام الله على خياناتكِ وضعفكِ وجبانتكِ، بل عاقبي ذاتكِ. إذا دخلت في يدك شوكة فلا يشفي جرحها ضماد ما لم تنْزعيها أوﷺ. إذا لم يكن لكِ مرةً وقت لفحص ضميركِ، فلا بأس أن يكون ذلك في أثناء زيارة القربان المقدس.

طريقة فحص الضمير الخاص

1. استحضري الله واطلبي أنواره لمعرفة خطاياكِ وعيوبكِ ونقائصك؛ ونعمته لإدراك شناعتها وفهم كل ما ينجم عنها من الضرر لكِ؛ والقوة لإقتلاعها من قلبكِ.
2. إبحثي، ساعة فساعة، عن الأسباب التي عرضت لكِ، والسقطات التي عثرتِ بها، والزﷺت التي توبخين نفسكِ عليها، واﷺنتصارات التي أحرزتِها.
3. سجلي عدد إنتصاراتكِ وسقطاتكِ، إذا أشارت عليكِ معلمتكِ بذلك.
4. فكري برهةً أن هذا العيب سوف يزيد عذابكِ في المطهر، وينقص من درجة مجدكِ في السماء، وبوسعه أن يجرّكِ تدريجياً إلى الخطأ الثقيل، ويجعلكِ عاجزة عن الإرتقاء إلى ما يطلب منكِ الله من الكمال، ويمنعكِ عن تحقيق ما يرومه الله لكِ من الخير، ويحزن الروح القدس، ويجرح قلب يسوع المسيح، ويبعد عنكِ مظاهر حنان العذراء القديسة، ويحرمكِ تعزيات التناول المقدس.
5. فهذه الإعتبارات من شأنها أن تحملكِ على استغفار الله وتلزمكِ بإصدار بعض أفعال وفائية.
6. أضيفي إلى ذلك كله صلاة حارة إلى يسوع ومريم وملاكك الحارس. وعِدي الله وعداً صادقاً أن تكوني في الغد أحكم ممّا كنتِ اليوم.

7. إفرضي على ذاتكِ إماتةً أو إثنتين أو ثلاثاً بحسب عدد زلاتكِ. مثلاً: لزوم الصمت الشديد مدة الشغل الفلاني؛ حشمة أعظم في المرور من مكان إلى آخر؛ أداء خدمة لرفيقة نحبها أقل من غيرها؛ تلاوة الصلاة الفلانية من غير إسناد الذراعين إلخ ...

(3) الرياضة الشهرية

قال الأب بودران: "تتألف الأديرة من نفوس حارة، ونفوس فاترة، ونفوس تخالف النظام. ففي هذه الحالات كلها تحتاج النفوس أن ترجع إلى ذاتها: فالنفوس الحارة لتثبت في حرارتها؛ والنفوس الفاترة لتنعش همتها؛ والنفوس الحائدة عن النظام لتعود إلى السبيل الذي حادت عنه".

ذلك هو السبب الذي من أجله وُضع في الجماعات الرهبانية فحص الضمير اليومي، والاعتراف الأسبوعي، والرياضة الشهرية، والرياضة السنوية التي تدوم مدة أطول.

قال القديس فرنسيس السالسي: "ليس من ساعة، مهما كانت جيدة، إلاّ وتحتاج إلى ضبط وتعبئة. يجب، حيناً بعد آخر، أن تُفك قطعها كلها ليُنْزع عنها ما غشيها من الصدأ، ويُقوّم ما إعوجّ منها ويُبدّل ما تَلِف منها. هكذا من يعتني بقلبه عناية حقة يجب عليه أن ينهضه في الله. ولذلك يجب عليه أن يراقب حالته مراقبة متواترة، وأن يقوّمها ويصلحها، وأن يفحص كل قطعة منهُ على حدة، أي أهواءه وأمياله، ليطبب ما فيها من النقائض؛ وأن يفعل ما يفعله الساعاتي فيبث قليلاً من الزيت الناعم في الدواليب والرفاسات ومواطن الحركة في ساعته، لتسهل حركاتها ولا يعلوها الصدأ. هذا التمرين ينعش قواكِ التي إنحطت مع الزمان، ويزيد في حرارة قلبكِ، وينعش فيكِ المقا□د الصالحة فتزدهر نفسكِ بالفضائل".

إن تمارين الرياضة الشهرية معينة في كتاب عوائد الجماعات الرهبانية. فنكتفي بأن نبسط هنا أسئلةً تساعد على فحص دقيق مليّ أمام القربان الأقدس أو في تأمل المساء. إذ من المفيد أن يتذكر الإنسان حيناً بعد آخر تفا□يل واجباته. هو فحص غير كامل، ولا شك؛ لكنه يكفي ليضع نصب أعيننا واجباتنا.

1. واجبات دعوتنا، وعنايتنا بالكامل: ما هي الفكرة التي أتصوّر بها الدعوة؟ هل جعلتُ دعوتي ثابتة بأمانتي في إتمام واجباتي؟ هل لها عندي ما يحق لها من الإعتبار والإجلال، وهل تلهمني الشكر الواجب؟ – هل همي الرئيسي

أن أتقدم في الكمال؟ هل استعداداتي بشأن إصلاح ذاتي وتقدمي في الكمال هي على ما كانت عليه في أيام ابتدائي الأولى؟ ما هو نجاحي وتقدمي في الفضائل المسيحية والرهبانية؟ – هل إيماني حيٌّ وبسيط وعامل؟ هل رجائي وطيد، لا يُسده يأس أو طمع؟ ما هي محبتي لله؟ أليس في قلبي تعلّق غير مرتب بالخلائق؟ هل تفعل فيَّ هذا الفعل المشؤوم الأطماع والمودات الحسية؟ – هل فيَّ غيرة على مجد الله؟ هل يحزنني ما يناله من الإهانات؟ هل فيَّ رقة الضمير التي تجعل الراهبة ترتجف أمام ما له ظاهر الشر، فقط؟ ألم أَسمح لذاتي بخطايا كثيرة، بحجة أنها عرضية فقط؟ ألم أعرّض ذاتي لخطر إرتكاب خطيئة ثقيلة؟ – ما هي حالتي بشأن الإتحاد بالله، وذكر حضوره، وموافقة مشيئته القدوسة؟

افحصي ذاتكِ خصوصاً عن جهودكِ ضد الهوى المتسلط عليكِ، وعن تقدمكِ في الفضيلة التي قصدتِ إكتسابها. وأنظري خصوصاً هل حملكِ نجاحكِ الضئيل على أن تدخلي إلى نفسكِ هبوط العزم.

2. ممارسة الفقر: ملاحظة: وإن تكن المبتدئة غير ملتزمة بممارسة الفقر والتواضع بقوة النذر الذي لم تبرزهُ بعد، فهي ملتزمة بذلك بقوة القانون، ولكي تعدّ نفسها للواجب الذي سوف تعاهد به الله قريباً.

ألم أَقبل أو آخذ أو أشترِ أو أستعِر شيئاً من غير إستئذان؟ ألا أحفظ عندي شيئاً من غير إذن، أتمسك به تمسكاً غير مرتب، وهو من النوافل وقلّما يتفق مع روح الفقر؟ ففي هذه الأحوال كلها يجب أن أتجرّد بلا تأجيل وأن أعود إلى دقة الممارسة لفضيلة الفقر المقدس. – هل أعتني بكل ما هو لاستعمالي كأنه يخصّ الرب والرهبانية؟ هل أحبّ الفقر كأم، وأفرح بلبس شاراته وبتحمل مفاعليه؟ ألا يحدُث لي أن أطلب ما هو الأجود وأترك الباقي للآخرين؟

3. ممارسة العفة: هل أنا أمينة في السهر على أفكاري وقلبي وحواسي؟ ألم أسمح لذاتي بما كان لي على الأقل سبب قلق وإضطراب؟ هل أنا أمينة في الإلتجاء إلى الله بسرعة منذ هجوم العدو الأول؟ هل حاربت بإعتناء الموادت الطبيعية؟ هل تجنبتُ كل ألفةٍ وكل ومظاهر الصداقة المفرطة؟ كيف أمارس القناعة الرهبانية؟ هل أبذل ما بوسعي لأقتدي بطهارة الملائكة بطهارة جسدي ونفسي؟

3. ممارسة الطاعة: هل في طاعتي روح إيمان وخضوع الإرادة والعقل؟ – هل أرى الله في شخص رئيساتي؟ هل سمعتُ صوتهن كأنه صوت الله؟ (إن في هذا الاستعداد روح الطاعة). ألا أفعل شيئاً خلسةً؟ هل أطيع بسرعة عند أول قرعة جرس أو أول إشارة؟ هل تحدثتُ عن الوظيفة الفلانية أو المركز الفلاني أو عن أمر سابق أو إشارة سابقة،

مفكرة أنه لا بدَّ من التجرد عن كل شي على هذه الأرض، إلا عن مشيئة الله المعبّر عنها بمشيئة رئيساتي؟ – ألم أسمح لذاتي، بعكس ذلك، بملاحظات ومزاحات وإنتقادات وتذمرات بشأن جوهر الأوامر أو أعراضها، أو بشأن شخص الرئيسات، فأنقصتُ بذلك الإجلال الذي يحق لها في ذاتي وفي الآخرين؟ – هل في علاقاتي مع رئيساتي الصراحة التي يفرضها الحب الخالص؟ – هل أنا أمينة في حفظ فرائضي كلها، أم بينها فرائض قد استثنيتُها من طاعتي أو ابتكار تعدّيها عادةً فيَّ؟ هل أجللتُ خصوصاً ولزمتُ فريضة الصمت الجزيلة الخطورة للجمهور كله ولي أنا خصوصاً؟

5. ممارسة التواضع: هل جرحت التواضع بالإفتخار وسرعة التأثر والإدعاء الفارغ والترفع على أخواتي؟ هل سعيتُ في طلب الإجلال والمديح بدل أن أحب النسيان والمذلات؟ هل سلكتُ عن حياء بشري؟ ألستُ مغترّةً بمواهبي وفضائلي؟ – ألم أعتَد التكلم عن ذاتي والإعتذار؟ هل أنا أمينة في الإقرار بزلاتي ببساطة، وفي كشف ضميري بذلك الإتضاع وتلك الثقة البنوية التي هي من روح القانون؟ ألا يهبط عزمي عندما تخيب مساعيّ فينالني اللوم؟ هل أكثر من أفعال التواضع المتواترة، متقدمة للقيام بالوظائف التي تأنف منها الطبيعة، أو على الأقل قابلةً إياها بخضوع؟

6. ممارسة المحبة الأخوية: تحق لأخواتي من قِبَلي المودة والإجلال والعاطفة القلبية الرقيقة. ويجب أن أساهم بكل جهودي في إتحاد القلوب. ألم أُقل أو أفعل ما يعاكس هذه الواجبات؟ هل استسلمتُ لعواطف النفور والحسد والتأويلات السيئة والحقد والمماحكات والغضب؟ – هل أقصيتُ عني الحسد الدنيئ الذي يحزن الله حبه عند رؤيته إمتيازات الآخرين ونجاحهم وفضائلهم عينها؟ – يحق لقريبي، أيّاً كان، الحب والإحتمال والغفران. ألم أسمح لذاتي في حقه بنمائم، أو بشكايات فضولية، أو بإفتراءات، أو برغبات إنتقام، أو بفورات الطبع، أو بما من شأنه أن يسبب عثرة أو إنقساماً؟ هل تحرزتُ من توبيخ الآخرين من غير أن يحق لي ذلك، ومن إنتقاد أخواتي؟ – هل مودتي لأخواتي مبنية على محبة سيدنا يسوع المسيح؟ هل هي سخية، عملية، شاملة، لا تستثني أحداً؟ – هل أستكره الصدقات الخاصة التي تشكك القريب وتشطر القلب وتنْزعه من يد الله الذي يريده كاملاً لذاتهِ؟ – هل فكرتُ في عواقب الشك الوخيمة في جماعة رهبانية، وفي ضرورة تأدية القدوة الصالحة؟

7. ممارسة الإماتة: هل أتراخى بشأن الإماتة، هل أتمم الفرائض المعاكسة لأميال الطبيعة بحسب حرفها وروحها؟ أي جهود بذلت للبلوغ إلى ممارسة الحشمة الخارجية، في النظر والمشية والحركات جميعها؟ في الأحوال الحرجة الأليمة ألم تبدُر بعض حركات عدم صبر أو غضب أو إضطراب على الأقل؟ هل أتممتُ بشجاعة وثبات ممارسة

الإماتة والتوبة المرعية عند جماعة الدير؟ هل أقبلتُ خصوصاً على الإماتة الداخلية والكفر بالذات؟ هل بذلتُ جهوداً لإصلاح طبعي؟ كيف قبلتُ الأحزان التي أرسلتها إليَّ العناية الإلهية؟ هل عملت على إكتساب الموافقة الكاملة لمشيئة الله؟ أخيراً، هل كان فيَّ روح الإماتة؛ أي هل أحببتُ العذابات واشتهيها، لعلمي أنها وسيلة مُثلى للوفاء عن خطاياي ولإستئصال عيوبي، ولصيرورتي أكثر تشبهاً بيسوع المسيح؟

8. ممارسة الرياضات التقوية: هل أمارسها بغيرة وأمانة؟ أ يحدث لي أن أهمل بعضها بذنبي؟ لما إضطُررتُ إلى تأجيلها، ألم أعملها بعد ذلك بتهاون؟ ولعلي قد أهملتها تماماً – هل أستعد كما ينبغي للتأمل، وأتبع بأمانة طريقة معيّنة في ما هو من المقاصد والنتائج العملية؟ ما هي أسباب تشتتاتي؟ هل هو إهمال الستعداد القريب أم تبدُّد إعتيادي؟ – هل أمارس بعناية وفائدة فحوص الضمير، و سيما الفحص الخاص؟ – ما هو تقديري لقراءاتي الروحية؟ – كيف أحضر ذبيحة القداس؟ – أليس عليّ أن أصلح شيئاً في إعترافاتي وتناوتي؟ ما هو استعدادي لها؟ وما هي الثمار التي أجنيها منها؟ – هل أصلي مسبحتي بتقوى؟ – ما هو إنقيادي لما يُبذل لي من النصائح؟ هل أنا أمينة في احتساب معلمتي كمن يقوم مقام يسوع المسيح، قد أعطانيها لتقودني بحسب القوانين وروح الجمعية التي إنضويت إليها؟ – هل أمارس الاسترشاد بدقة، في الأوان المناسب، إن لم يُتح لي أن أسترشد في اليوم والساعة المعيَّنَين لذلك؟ – كيف أتلو الصلوات في أثناء النهار و سيما الصلوات الصغيرة قبل التمارين وبعدها؟

9. ممارسة الوظيفة: هل أنا سعيدة في ما أُسند إليَّ من وظيفة؟ – لماذا لستُ بسعيدة؟ أ أكون أسعد مما أنا بقليل من الإيمان وحب الله؟ – لماذا أقول لنفسي كل صباح: أنا مزمعة أن أفعل ما يريده الله مني؟ هل أضع في أعمالي غيرةً ونشاطاً وفطنة؟ – ألم أُزعج رفيقاتي في الوظيفة؟ هل ساعدتهنّ؟ هل احتملتهنّ؟ هل حاولتُ أن أسرّهنَّ؟ – ألم أستسلم لليأس وسرعة التأثر والحسد والزهو الباطل والتسرع؟

10. الإعتناء بالأعمال العادية وحسن استعمال الوقت: كيف أتمم أفعالي العادية؟ هل عملتُ دائماً لأجل الله؟ هل أنا أمينة في إنعاش أعمالي كلها بروح الإيمان؟ هل أنا مقتنعة بأن كمالي يقوم في إتقان أعمالي العادية؟ هل اقتصدت في استعمال وقتي؟ هل أشغالي كلها خاضعة لمطالب الطاعة؟ – هل في أعمالي إجتهاد رهباني أم تسرع غير مرتب وإبطاء وإسترخاء وبطالة وضياع وقت؟ – كيف أقضي نزهاتي أيام العطلة؟ هل أعتني بتقديس تناول الطعام، والراحة، والتمارين الرياضية الجسدية؟

فعل التجدد الروحي. بعد هذا الفحص، إتلي جاثيةً الصلاة التالية:

"يا إلهي، أرى من الضروري لي أن أفكر في تجدد مقدس يجعلني أعود إلى سبُل الكمال الذي تدعوني إليه. فهذه هي النقاط الجوهرية التي لا بدّ أن أتجدد فيها:

الدقة في ممارسة جميع رياضاتي التقوية – التجدد في تطهير النية – الاستعداد لقبول الأسرار الإلهية – الأمانة المطلقة لمجاراة النعمة – خضوع مطلق وتام لرؤساتي – تجدد في عواطف الوداعة والمحبة نحو الجميع بلا إستثناء – إتمام واجبات وظيفتي بسخاء – تجرد قلبي المطلق من كل ما ليس أنت".

بعد هذا الفعل تحدد المبتدئة مقا□دها الخا□ة وتقدّمها لله قائلة من □ميم الفؤاد:

"إلهي هذه هي المقا□د المقدسة ودستور الحياة التي أنا مزمعة أن أسير بموجبها فيما بعد. هذا التجدّد تفرضه عليَّ الحالة المقدسة التي أنتحلها؛ والنعم الغزيرة التي نلتُها؛ وواجب الأسف والوقاء الذي تفرضه عليَّ خطاياي الكثيرة؛ وبنيان الأشخاص الذين أعيش معهم؛ وواجب الإعتناء بالكمال الذي تهاونتُ فيه حتى الآن؛ وواجب الاستعداد للأبدية حيث قد أدخل قبل الرياضو المقبلة. إني مدركة ما يجب عليّ أن أخشاه من ضعفي، من بعد إختباراتي المؤسفة ورياضاتي السابقة العديدة التي وعتدتك فيها مثل هذه الوعود. وأملي أن الحالة سوف تتغير بعد هذه الرياضة. فساعدني يا إلهي بعون جديد من نعمتك. بهذا العون أعدك بأمانة أكثر ثباتاً في إتمام واجباتي كلها. وها أنا مكبَّةٌ على ذلك منذ اليوم، فعساني لا أحيد عنه مدى الحياة.

أيتها العذراء، الجزيلة القداسة، أيها القديس يوسف، يا ملاكي الحارس، أيها القديسون شفعائي، اجعلوني أمينة في إتمام هذه المقا□د".

في ختام هذه الرياضة، أُنظري في أقدر الوسائل على تحقيق تجدّدكِ التام. ضعي في الله رجاءكِ كله، ووا□لي جريكِ من جديد بنشاط، من غير أن تُهبط عزمكِ رؤية شقائكِ، مهما كان بليغاً.

(4) النظام أو الدستور الخاص

النظام أو الدستور الخاص هو ما تسنه كل مبتدئة لنفسها وتكتبه في دفتر خاص، عاقدةً العزم على قراءته حيناً بعد آخر في هذا الدفتر:

1. تحدّد استعمال كل أوقات النهار التي لا يكون فيها تمرين جمهوري مشترك.

2. تحدّد ما تنويه من النيات لكل من أعمالها: النهوض، والشغل إلخ ... لتزيدها قداسةً وثواباً. فهي تعلم "أن جميع أعمال النفس البارة الصالحة، حتى أصغر أعمالها المفعولة بنعمة الله، تلبسها حقاً، بقوة استحقاقات يسوع المسيح الذي هي عضو حيٌّ من أعضائه، نموّاً في النعمة على هذه الأرض، وتُعِدُّ لها درجةً جديدة من المجد في السماء" (المجمع التريدنتيني).

3. تعيّن الفضائل التي تروم أن تتعلّق بها خصوصاً، وعباداتها الخاصة، والإماتات التي تنوي أن تفرضها على ذاتها.

4. وتعيّن أيضاً موضوع فحص ضميرها الخاص، الذي عينتهُ لها معلمتها، وطريقة القيام به، وما تروم أن تشغل به نفسها في ذبيحة القداس والمسبحة وزيارة القربان المقدس.

5. تعيّن التذكارات السنوية للنعم التي نالتها، ومقاصد رياضتها الشهرية؛ والأحوال التي أثّر فيها بالأكثر حبُّ الله؛ والأفكار التي تركت فيها تأثيراً بليغاً مدة صلاتها العقلية، أو في أثناء موعظة؛ وما فعل فيها خيراً من إرشادات معرّفها لها؛ ونصائح وتوبيخات معلمتها لتتذكر النقيصة التي يجب أن تصلح ذاتها معها؛ والأمثال الصالحة التي تقع تحت نظرها ...

هذا الدفتر يُكتب برضى المعلمة، ويقدم لها حيناً بعد بعد آخر، ويحق لها أن تطلبه لتطّلع عليه متى شاءت.

متى كان هذا الدفتر مكتوباً ببساطة، بدون إفتخار، ولا طمعاً في الثناء، كان جزيل الفائدة في أوقات اليأس وهبوط العزم والضجر؛ إذ تكوت المبتدئة قد مرَّت بحقبة بضعة أيام من التجربة أو التراخي، فنجد نير الرب قاسياً، بوسعها، وبوسع الراهبة أيضاً أن تقرأ ما في هذه الصفحات من عبارات سعادتها السابقة فتسائل نفسها: من تُراه قد تبدّل: الله أم أنا؟

2
المستندات الخارجية

(1) القانون أو الفرائض

القانون! الفرائض! ذلك هو صراخ النفس التي تشعر بأنها تهيم على وجهها ولا تريد أن تهلك تماماً؛ أو النفس التي تشعر بأنها تضعف وتروم أن تنهض!

إن القانون هو للنفس العائشة في الأديرة كالسبيل المسلوك في برية مجهولة؛ فهو يقودها رأساً إلى الهدف، من غير خطر ولا خوف من الضلال. هو كالدرابزونات إلى جانبي الجسر فوق نهر عميق: تقي من السقوط، وتهدّئ من سقط، وتساعد على الرجوع إلى السبيل الأمين. وهذا السبيل هو الله قد خطه، وهذا الحرز الواقي هو الله قد مدَّه على طول الجسر! فما أسعدكِ، يا أختي لأن الله وضعكِ في هذه الطريق التي تقودكِ حتماً إلى السماء! فأحبي إذن قانونكِ، وأجلّيه واحفظيه!

الأسباب الباعثة على ممارسة القانون

1. ممارسة القانون تجعلكِ مرضيةً لله. إن القانون يعبّر عن مشيئته تعالى، والضمانة على ذلك هي تثبيت الكنيسة له. أفلا ترين أنكِ بممارستكِ القانون بأمانة تقدّمين لله في كل ساعة من النهار والليل، علامة حبّ، وتمجدينه، وتعترفين بسلطانه عليكِ، وتسعين أن تسرّيه، وتقتدين بيسوع المسيح الذي كان يبذل جهده في طاعة أبيه؟ كل مرة يدعوكِ الله تكونين مستعدة، وتقولين والفرح ملء الفؤاد: ها أنا ذي، يا سيدي، فماذا تريد أن أصنع؟ والله يقول عنكِ، بداعي كل فعلٍ تفعلينه لمرضاته، ما قاله عن يسوع: هذه ابنتي الحبيبة التي بها سُررت.

2. ممارسة القانون تشرفكِ وتكرمكِ. قد يحدث لكِ، بسماح من الله، مع كل مل لكِ من تقوى وحرارة، أن لا تتمتعي بمودة أخواتكِ؛ ولكن أيقني أنكِ إذا كنتِ ممارسةً للقانون بلا تكلّف ولا تنّع بروح الإيمان، فما من واحدة إلا وتجلُّكِ في صميمها وتروم أن تقتدي بكِ. ألا أنظري إلى ما تفكرين به أنتِ نفسُكِ بالراهبات اللواتي تعرفينهنَّ متمسكات بالقانون؛ ألستِ بالحري لديهنَّ تطلبين النح والإرشاد؟

3. ممارسة القانون تسعدكِ. لا، يا أُختي. إن الله لا يدعكِ تغلبينه في السخاء، فكلما إزدادت عطيتُكِ له إزدادت مكافأته لكِ؛ وبقدر ما يزداد إجتهادُكِ في خدمته والأمانة له وعدم الإساءة إليه إزدادت تعزيته وحمايته ومكافأته لكِ. ومتى حماكِ الله، فما عساه يلقيكِ في الإضطراب؟

هل الخوف من المستقبل؟ بيد أن فكرة العناية الإلهية من شأنها أن تحملكِ على الرجاء الدائم بالرغم من كل عوبة. هذه العناية، يا أُختي، يحق لكِ أن تستندي عليها أكثر من كل أحدٍ سواكِ، بما أن الله قادر أن يتكل عليكِ. ستجدين الله دوماً مستعداً للإعتناء بكِ، لأن الله يجدكِ دوماً مستعدة لطاعته – هل هي العذابات؟ بين أن رؤية المصلوب تشدّدكِ وتشجعكِ، ويسوع يقول لقلبكِ: أنا معكِ بما أنكِ تريدين أن تكوني معي. فتشجعي إذن، فالعذاب عابر، وأبدية الفرح مُقبلة – هل هي التضحيات التي تطلبها الطاعة؟ لكنكِ تعلمين جيداً، أنتِ المريدة أن لا تقطعي واحداً ولا الأغر من الرُبُط التي تربطكِ بيسوع المسيح، تعلمين جيداً أن هذا المعلم الإلهي يتبعكِ حيث ذهبتِ، ومع يسوع المسيح يكون الفردوس في كل مكان – ولا نكلمكِ عن مودة معلمتكِ لكِ، فهي لن تعوزكِ أبداً وتشعرين بعذوبتها بقدر ما تعشرين أنكِ تستأهلينها.

4. ممارسة القانون تقدّسكِ. إن البابا بندكتس الرابع عشر قد وعد بأن يعلن قداسة المبتدئة التي تمارس قوانين رهبانيتها بكمال مدة ابتدائها. أجل، ما من شيء يقدس النفس مثل ممارسة القانون. فإنها تشمل كل الأوقات في الليل والنهار وكل الأفعال، فلا تدع شيئاً تحت إمرة الهوى والحواس والإرادة الذاتية. وتجعل المبتدئة تسلك بحسب أوامر الله وتحت نظر الله، وبالإتحاد مع الله، وبنيّة إرضاء الله. وفي هذا كله تقوم القداسة.

كيف يجب أن يُمارس القانون

1. بكامله. كل ما يأتي من الله يستحق الاحترام عينه، والطاعة ترفع قدر كل شيء وتشرّفه وتجعله أهلاً للثواب. فلا تتلّهي بالتمييز بين ما يبدو لكِ مهماً وما يبدو لكِ غيراً، وما يبدو لكِ مفروضاً وما يبدو لكِ مشورةً ونصيحة. ولا تسمحي لذاتكِ بتعدّي فريضة بحجّة أن القانون لا يُلزم تحت طائلة الخطأ. حيح أن القوانين لا تلزم

عادةً تحت طائلة الخطأ، ولكنكِ تعلمين من تعليم كل القديسين أن الباعث الذي يحملكِ على تعدّي هذه الفريضة عمداً هو خطيئة، لأنه يكون إما كسلاً أو كبرياء أو إرضاء للحواس ... وَهبي أن ليس هناك خطيئة، أفليس شيئاً حريّاً بالذكر أن تتعوّد النفس الحرية والاستقلال والاستغناء عن الإماتة؟

2. بدقة. من حيث الزمن: فيتمَّم الشيء المفروض في الزمان المعيّن له، بحيث يُعَدّ الجرس الداعي إلى العمل كصوت يسوع المسيح. فهو الذي يريد أن ننهض في الساعة الفلانية، وأن نذهب إلى النُزهة، أو إلى الشغل، أو إلى المعبد... فلا نزدرِ دعوته. من حيث الطريقة: بالرغم من تمردات حبنا الذاتي الذي يوحي إلينا بأننا نصنع أحسن لو سلكنا طريقة أخرى، وأننا نعجل في العمل، وأن الرؤساء لا يعرفون الطرائق الجديدة في رهبانيتنا الخ... من حيث المكان: فلا نذهب أبداً إلا حيث يجب أو يمكن أن نكون، ولا نهرب أبداً من مراقبة، ولا نبدي امتعاضنا إذا نُقلنا من مكان إلى آخر.

3. بحب ومودة. ويكون ذلك إذا كان القانون لكِ صوت الله الذي يدعوكِ، ويرشدكِ، ويعلمكِ، ويأمركِ. لو كنتِ عشتِ في زمن المعلم الإلهي على الأرض وتبعتهِ وفرض عليكِ ما يُفرض عليكِ الآن في الابتداء، ما كان أعظم فرحكِ وسعادتكِ في طاعتكِ له! فيا أختي! إنه نفسه يأمركِ الآن!

(2) الصلاة الجمهورية

هذا السند كان ينقصكِ وأنتِ في العالم؛ أما في الدير فيكون لكِ مصدر نعم وتعزيات: أما النعم، فلأن هذه الصلاة الجمهورية لها موعد خاص بأن الله يحضر فيما بين المجتمعين باسمه، وأن الله متى حضر خصوصاً يترك دوماً شهادةً لعطفه، كما يعلّم القديسون؛ وأما التعزيات، فلأن صلاتكِ التي قد تكون ضعيفة ومشتَّتة سوف تنعشها وتقوّيها صلاة أخواتكِ الحارة. أجل، ما أعذب على النفس أن تستطيع فتقول لذاتها في صلاتها، مع أنها تشعر بذنبها وبأنها لا تستحق أن تُستجاب: إن الله يسمع بإرتياح هذه الصلوات الجمهورية التي أضم إليها صلاتي، فإن صوت البارّ يرتقي إلى ما هو أسمى من صوت المذنب الأثيم. تلك أفكار نتوسع في بسطها في كتاب الناذرات، في كلامنا على الفرض الإلهي. وإنما نحرّضكِ فقط هنا على أن لا تعفي ذاتكِ من هذه الصلوات الجمهورية إلا لأسباب حقيقية وثقيلة. فكم من النعم نخسرها لذهابنا وراء ميل خاص إلى الإنعزال عن الجمهور، بحجّة أننا نكون حينئذٍ أكثر خشوعاً إذا صلّينا وحدنا على إنفراد.

(3) الاسترشاد

قال القديس فرنسيس السالسي لراهباته: "في كل شهر تكشف الراهبات قلبهنَّ لرئيستهنّ بإيجاز، ويُعلمنا بزواياه الخفيّة وثناياه بكل بساطة وثقة وأمانة، بمثل ما يفعل الولد بصدق وسذاجة إذ يكشف لأمه تخديشات أو قرصات النحل في جسمه؛ وبهذه الوسيلة يُطلعنها على تقدمهنَّ ونجاحهنَّ، وعلى خساراتهنَّ ونقائصهنَّ في ممارسة الصلاة العقلية والفضائل والحياة الروحية؛ ويُظهرنَ أيضاً تجاربهنَّ وأحزانهنَّ الداخلية، لا ليتعزَّين فقط بل ليتشدَّدن ويتذلَّلن أيضاً". ويُردف القديس: "طوبى للواتي يمارسنَ هذا البند ببساطة وعبادة، فإن فيه تعليماً بشأن الطفولة الروحية التي حرّض عليها كثيراً سيدنا يسوع المسيح، ومنها ينتج سكون النفس وبها يحافَظ على هدوء الروح".

ندلي ببعض معلومات فقط بشأن موضوع الاسترشاد هذا، وقد نشرنا كتاباً كاملاً في هذا أسميناه "في الارشاد الروحي" تأليف واضع كتاب الرئيسات وكتاب المبتدئات.

الاسترشاد ليس اعترافاً بل مناجاة ومسارَّة بثقة. فلا يؤتى فيه على ذكر ما هو موضوع للحلة السرّية، بل ما يحتاج إلى نصيحة وإشارة وطريقة خاصة للعمل. المسترشدة لا تأتي لتكشف حالة نفسها كمجرمة، بل كنفس ناقصة تحتاج أن تُدَلَّ على وسائل الكمال. إن المبتدئة تحتاج إلى استرشاد أكثر من أي نفسٍ أخرى. فالحياة الرهبانية جديدة لها، وكل ما تراه وتسمعه يدهشها ويحملها على الشوق إلى الاستنارة بشأن تفاصيل كثيرة معرفتها ضرورية. فهذه الأسئلة التي تتزاحم في نفسها هي مادة الاسترشاد – تشعر المبتدئة بسهولة ببعض القلق والضجر والكراهيات لأسباب عديدة، وقد تداعب هذا القلب المسكين أحياناً بعض التأسفات والتحسّرات، مع أنه كان قوياً في ساعة التضحية وكان يحسب نفسه قوياً على الدوام. أفليس من الضروري أن تُكشف هذه الأحزان الداخلية وما يرافقها من ضجر وإنزعاج؟ فهذا الكشف هو مادة للاسترشاد – المبتدئة تفهم التقوى كما تُفهم عادةً في العالم، بممارسات تختارها هي نفسها، فتكون سهلة، عذبة، مستقلة، بلا قواعد محدودة، وخصوصاً بدون تضحيات ولا معاكسات، وهي تكتئب لكونها ما عاد بوسعها أن تصلي كما كانت تصلي في العالم، لأنها ترى نفسها ملتزمة بالطريقة الفلانية في صلاتها وهي لا تحبُّها، ولا تعود تشعر بتذوّق للتناول، فتحسب أن كل شيء ضاع في حياتها... أفلا يلزمها أن تكشف حالة نفسها ليهدأ روعها؟ فهذا الكشف هو مادة للاسترشاد – المبتدئة تسمع قراءات وعظات هي في الغالب جديدة لعقلها؛ ويُحكى أمامها عن أمراض النفس وطريقة معرفتها والعلاجات لمداواتها، وعن واجب الراهبات

بأن يسعَين إلى الكمال إلخ. والكتب لا تبسط عادةً إلاّ العموميات، أفلا يلزم أن يُشرح لها ما لا تفهمه إلا فهماً ناقصاً؟ فهذه التفاسير والشروح هي مادة الاسترشاد – وطريقة الصلاة العقلية، وما يُشعر به فيها من الأفراح والتعزيات والملل، والسعادة التي يُشعر بها في الصلاة وتلاوة الفرض، والسأم الذي يجعل الصلوات من مدة مستكرَهة، والفضائل التي تجتهد المبتدئة في إكتسابها، والثمار التي تجنيها من تناولاتها... هذه كلها وكل ما يتعلّق بالنفس والروح والجسم، ما خلا ما هو خطيئة، يمكن أن تكون مادةً للاسترشاد.

أنظري إلى معلمتكِ كإلى أمٍّ أعطاكِ إياها الله كمحامية مدة طفولتكِ الرهبانية. إذهبي إليها ببساطة، وثقة، واستسلام لمشيئة الله، والله يعطيها المودة والدقة والحنان التي تحتاجين إليها. قال القديس فرنسيس السالسي: "ليكن للمبتدئات نحو معلمتهنَّ محبة قلبية وثقة بنوية تامة مشفوعة بالاحترام؛ وليبدينَ لها شكراً ومعرفة جميل من أجل ما تفعله لتهذيب عقولهنَّ".

(4) مجمع الاستغفار

تُدعى بهذا الاسم اجتماعات دورية لجمهور الدير كله أو لكل فرقة معاً، فيها تشكو كل راهبة ذاتها بصوت عالٍ بمخالفاتها الخارجية وتعديتها على القانون، ثم تسمع أخواتها يبدينَ لها الملاحظات بشأن ما لم تلاحظه في سلوكها، ثم تقبل من الرئيسة توبيخاً وقصاصاً.

إن بعض الطباع ترهب هذه الاجتماعات فوق كل شيء في الحياة الرهبانية، وذلك على مدى سنين عديدة ومدة الحياة الرهبانية كلها. ذلك أن الحب الذاتي يستصعب كثيراً شكاية النفس العلنية وسماع شكايات الآخرين. ولكن ما من شيء أفعل في النفس وأكثر مساعدةً لها لإستدراك السقطات وإصلاح العيوب والنقائص.

يُحكى في سيرة القديس دومينيكوس أن إبليس ظهر له يوماً بهيئة إنسان، فأوحى إلى القديس بأنه أمام روح الظلام. فقال له: أنت عدوّ النفوس الألد، قل لي ماذا تفعل في هذا الدير؟ – أقوم بواجب المجرّب ولست إلاّ رابحاً بعض الشيء – وما تفعل في الكنيسة؟ – أسعى ليذهب إليها الرهبان بعد الوقت المعيّن، ويلبثوا فيها من غير أن يتذوّقوا التقوى، ويفكّروا في شؤون العالم – وما تفعل في ردهة الاستقبال؟ – هذه حجرتي الخاصة: أحمل فيها على الإغراق في الضحك، وأدفع إلى الكلام البطّال وأحياناً التذمر... هنا يفقد رهبانك ما ربحوه في أماكن أخرى. وكان

القديس في هذه الأثناء قد أوصل الشيطان إلى غرفة الاجتماعات للاستغفار. فرفض الملاك المتمرد أن يدخلها وقال: "هذه القاعة هي لي جهنم؛ ففيها يقرّ أخوتك بما دفعتهم إليه من الشر، وهذا الإقرار الذي يغطِّيهم خجلاً يقوّيهم ضد هجومي لمدة أيام عديدة".

لكي تستفيد المبتدئة من الاستغفار يجب أن تتأهب له بالصلاة وتقول بنشاط: أريد أن أتذلّل؛ وأن تبسط خطأها بإيجاز ومن غير كلمة إعتذار واحدة ثم تنتظر بصبر.

يجب أن تسمع بهدوّ، إن لم يكن بفرح، ما تبسطه رفيقتها من خطأ فيها؛ وأن تسكِّن بفعل محبة لله داخلي الثورة الداخلية التي تشعر بها أحياناً، ولا سيما إذا بدا لها أن أختها تغلط في تخطئتها؛ وأن تلتزم بتلاوة صلاة لأجل تلك التي تشكوها؛ ومن بعد الاجتماع تمتنع عن كل ملاحظة حول ما جرى أو قيل في مجمع الاستغفار. قال الأب سان جير: إن الراهبة التي تحبّ أن تُصلح لا تلبث أن تصير عاجلاً كاملة، أما التي تكره الاصلاح فلن تصي أبداً على شيء من الكمال.

كثيراً ما تكون شكاية الأخوات بأخطائهم في الاجتماع أشدّ وطأة على المبتدئة من سماع أخطائهم الشخصية. إذ يلزم لذلك شجاعة وصداقة صافية ومحبة كبيرة للواجب. فإن الخوف من إزعاج رفيقة وحملها على أن تبرد محبتها لنا كثيراً ما يحملنا على الصمت. لا شك أنه يلزمنا أن نمزج شكايتنا بكثير من الفطنة والتحفظ، وإن لا نؤكد شيئاً بطريقة مطلقة، وأن لا نقول أبداً ما من شأنه أن يُخجل المشكوَّة ويذللها؛ ولكن فلنكن بسيطات ومُحبَّات: فإن في نبرة صوت الشخ المحبّ الحقيقي وفي طريقة تعبيره شيئاً يمنع أن تُنتنتج أقوال اللوم منه تأثيراً سيئاً.

درجت العادة في بعض الرهبانيات أن تعطي معلمة المبتدئات كلاًّ من مبتدئاتها رفيقةً تدعى مساعدة أو منبِّهة، وظيفتها أن تلفت إنتباه رفيقتها المبتدئة في كل أسبوع إلى إخلالها. هذه الطريقة تساعد كثيراً ونحرّض على حفظها حيث هي دارجة. ذلك أن التنبيه والإصلاح الأخوي يُقبل بسهولة أعظم ممن هي صديقة فاضلة، ومتى كان هذا التنبيه والإصلاح في عزلة على إنفراد فلا يُزعج؛ ومتى امتزج بالمودة فلا ينشأ عنه يأس ولا قنوط.

(5) القراءة الروحية

عندما نصلي نناجي الله؛ وعندما نقرأ قراءة روحية يناجينا هو تعالى. إن الكتاب الجيد المفيد يُنتج فينا أحياناً خيراً لا يستطيع أن ينتجه حديث ودّي، ولا سيما عندما يُقصد أن نعرَّف بعيب يذللنا لا يحسر أحد أن يحدّثنا عنه خشية أن يثير استياءنا.

كل قراءة تقوية، وكل تعليم، يحتوي دوماً، بنعمة خاصة، درساً مفيداً لكل من يسمعه بروح الإيمان. فعليكِ أن تذهبي إلى القراءات الروحية وإلى المحاضرات والعظات، وأنتِ تفكرين أن الله سوف يعطيكِ نصيحةً هي لكِ؛ وكوني على حذر ويقظة لكي لا تدعيها تعبر من غير أن تستفيدي منها.

ليس لنا أن نكلمكِ عن اختيار مواضيع قراءاتكِ الروحية، لأنكِ في الابتداء، لا تستطيعين أن تقرأي أو تحفظي عندكِ كتاباً بلا إذن خاص. والكتب التي تقرأ علناً ليست من إختياركِ، والكتب التي تُعار لكِ تُختار خصوصاً لأجل حاجات نفسكِ. فالكتب التي تعيرُكِ إياها معلمتكِ لا تقرأيها بنَهَم وسرعة، ولا تستسلمي للزهو الصبياني الذي يباهي بقراءة كتاب كل أسبوع. اسألي معلمتكِ هل يفيدكِ أن تستخرجي من الكتاب الأفكار التي تركت فيكِ أثراً تقويّاً حسناً.

لا تعيري رفيقاتكِ لا إذن الكتب التي أُعيرَت لكِ، ولا تطلبي من رفيقاتكِ أن يدعنكِ تقرأين ما أُعير لهنَّ من الكتب. وإذا تُرك بعض الكتب في تصرُّفكِ فاعتني بها، وأحبيها، لأن الله لم يسمح بلا قصد خاص بأن يُترك لكِ الكتاب الفلاني. وكوني دوماً مستعدة لتضحي بها. وإذا سمحت لكِ معلمتكِ بأن تحتفظي بكتاب المبتدئات هذا، فاسألي الله، عند قراءته، إن يفيدكِ خيراً، وصلّي حيناً بعد آخر صلاة وجيزة لأجل مؤلفه ومعرّبه.

***

والآن نلخص لكِ هذا الفصل بإيراد صفحة من ألذ الصفحات التي كتبها القديس فرنسيس السالسي. فإن إحدى راهبات أنّسي الأخت سمبلسيانا،(أي بسيطة)، سألت الأسقف الفديس بكل بساطة السؤال التالي: يا سيدنا، لو كنتَ راهبةً فيما بيننا، ماذا كنت تفعل لتبلغ عاجلاً الكمال؟ فأجابها القديس اللطيف:

"يبدو لي أني بنعمة الله أكون كثير التيقظ لأمارس العوائد والممارسات الصغيرة، وبهذه الوسيلة لا ألبث أن أربح قلب الله – كنتُ ألزم الصمت جيداً وأتكلم في بعض الأحيان، حتى وقت الصمت، أي كل مرة تطلب مني

المحبة ذلك، ولكن لا أتكلم أبداً بغير هذه الطريقة – كنتُ أتكلم بصوت خافت هادئ لأن الفرائص تأمر بذلك؛ وكنتُ أفتح الأبواب وأغلقها بهدوّ لأن أمنا الرئيسة ذلك، ونحن نروم أن نفعل كل ما تريد هي أن نفعله – كنتُ أخفض نظري كثيراً وأمشي الهوَينا لأن الله وملاكه، يا ابنتي العزيزة، يريانا دوماً ويحبَّان إلى أقصى حدود الحب أولئك الذين يُتقنون أعمالهم – كنتُ إذا استخدمت لعمل أو وظيفة ما أُحبّ هذا العمل أو الوظيفة وأبذل جهدي أن أقوم بهما وبكل شيء في الأوان المناسب – وإذا لم أُستخدم لشيء وتُركتُ مُهملاً، كنتُ لا أهتم بشيء آخر سوى الطاعة ومحبة سيدنا يسوع المسيح – أجل يظهر لي أني كنت أحبه بكل قلبي، هذا الإله الصالح الحنون، وأبذل جهدي لأحسن ممارسة القوانين والفرائض".

"أجل، يا ابنتي يجب أن نفعل ذلك بأحسن ما يمكننا، فإننا لذلك بعينه صرنا كلانا راهبَين. إني لمسرور ومرتاح أن تكون هنا راهبة تريد أن تكون راهبةً بدلاً مني، وأحب كثيراً أن تكون هذه الراهبة الأخت سمبلسيانا لأني أحبها كثيراً.

ويبدو لي أيضاً أني أكون فرحاً جداً ولا أتسرّع أبداً. وإني لأحمدُ الله أني أقوم بهذا لأني لا أتسرّع أبداً – وكنتُ أسلك سلوكاً متَّضعاً، فأذلل نفسي بحسب الظروف والأحوال، وإن لم أتّضع، فعلى الأقل أتَّضع بأني لا أتّضع – كنتُ أبذل أفضل جهودي لأبقى في حضرته تعالى وأفعل أفعالي كلها لأجل حبه، لأننا هنا نتعلّم ذلك يا ابنتي. وماذا علينا أن نفعل في هذا العالم غير ما ذكرته؟ لا شيء مطلقاً. فمتى عرفنا ذلك عرفنا كل ما يُطلب منّا.

والآن، هل تعرفين، يا أختي سمبلسيانا، ماذا كنتُ أفعل أيضاً؟ أملي أني كنتُ أدع الغير يفعلون بي ما يشاؤون، وكنت أُطالع بتواتر في فرائضنا الفصل المتعلق بالحشمة والتواضع. أجل، يا ابنتي، يجب أن يُطالع جيداً هذا الفصل".

الفصل الحادي عشر

في التجارب التي يوسوس بها الشيطان

مدة الابتداء

كثير من الفتيات يحسبنَ أنهن، متى دخلنَ في دير رهباني، لا يعُدنَ يُجرَّبنَ كما في العالم. ومنذ الأيام الأولى تستولي على أفكارهنّ وتستغرقها الحرارة التي تنعشهنَّ ومشاغلهنَّ الجديدة والتمارين الجديدة التي تملأ أيامهنَّ والشغل المتواصل الذي يُفرَض عليهنَّ، فيشعرون بسعادة خاصة لدى رؤيتهنَّ نفوسهنَّ قد تخلَّصت من المشاعر الحسية والأفكار الرديئة والزهو العالمي والرغبة في استجلاب رضى الناس، فيحسبنَ أن الأمور سوف تظلّ دوماً على هذا النحو. ولكن لا تكاد تمرّ بضعة أسابيع حتى يتعوَّدن العيشة الجمهورية الجديدة ويألفنها، فتجد المبتدئة ذاتها من جديد كما كانت قبلاً وتشعر بما كانت تشعر به آنفاً. وهذه النفس العادمة الخبرة لا يمكنها أن تفكر بإمكان حدوث مثل هذه التجارب في دير رهباني، فتقلق وتحزن وتهبط عزيمتها وتفكر أن الله قد رذلها.

فاذهبي ببساطة وبلا وَجَل وأطلعي معرّفكِ على ما تشعرين، وانتهزي هذه الفرصة لتطلعيه على ما كانت حالتك قبل مجيئك إلى الدير، لتستفيدي من نصائحه فائدة أعظم[14] واتبعي بأمانةٍ ما يقوله لكِ؛ فإن له نعماً خاصة تساعده على طمأنة بالكِ وإنارتكِ وتعريفكِ بالوسائل الضرورية لمقاومة الشيطان.

نحن لا نروم أن نحدثكِ في هذا الفصل عن التجارب التي يسمح بها الله في الابتداء كما بعد النذور الرهبانية؛ وإنما نبسط لكِ بعض تجارب خاصة بمدة الابتداء، غايتها في قصد الشيطان، زعزعة الدعوة، وفي قصد الله تثبيتها، بإلزامه المبتدئة أن تبدي له حباً أعظم.

تجربة أولى

كنتِ محبوبةً في أسرتكِ يا ناكرة الجميل! — ستصيب أباك وأمكِ أَحزان، فلا تكونين بقربهما لتعزيهما! — ومتى وافاهما المرض سيدعيانكِ إلى قرب سريرهما فلا تكونين هناك؟

[14] من عادة بعض الجماعات الرهبانية أن تدعو الطالبات إلى إعتراف عام منذ دخولهن الدير. وفي غيرها تحرَّض الطالبات على ذلك من غير أن يلزمنَ به، لأنه مفيد لإنارة المرشد على حالة تلميذته الجديدة. وفي كل حال يعود إلى المرشد وحده أن يحكم في موافقة هذا الاعتراف العام.

هذه التجربة أشدّ التجارب هولاً، تلك التي تمزّق بالأكثر قلب المبتدئة وتجعلها أحياناً تسكب دموعاً غزيرة. فلكي تتغلبي عليها استعيني بأفكار الإيمان التي أولتكِ شجاعة كافية فتركتِ أباكِ وأمكِ، ذلك، لأن البراهين البشرية تبقى هنا عاجزة. هذه الهواجس الأليمة لا تسكن إلَّا أمام القربان المقدس وبواسطة التناول.

1- أَجَل، يحبكِ أهلكِ؛ والله يحبك أكثر. فإذا كان الله يدعوكِ من جهة، وأهلكِ من جهة أخرى، فمن تجب طاعته؟ ردّدي في ذهنكِ هذه الأقوال الصريحة، وإن كانت تمزّق القلب: من أحبّ أباً او أمّاً أكثر مني فلا يستحقني.

2- ليس الله بناكر جميل. فأيقني بأنه يقوم بدلكِ لدى أبيكِ وأمكِ، ويوليهما القوّة التي كنتِ أوليتِهما إياها بحضوركِ، وهو يسندهما ولا يهملهما. إن الله ملتزم بذلك نحوَكِ، فاتكلي عليه.

3- هذا الفراق، الذي هو تضحية دائمة، يوليك الحقّ بأن تنالي نعماً دائمة. اسمعي بالحري: من ترك أَباه وأمه وإخوته حبّاً بي يأخذ مئة ضعف في هذه الحياة، والحياة الأبدية في الآخرة. أَنتِ ماذا تريدين في هذا العالم؟ ألا تريدين خصو□اً لأهلكِ السلام والسعادة والقداسة؟ سيكون لكِ ذلك كله يا أختي. □لي لأجل أبيكِ وأمكِ، قولي مراراً لله ليعزّهما ويشدّدهما؛ كلّميهما عن السماء متى رأيتهما وعيشي في سلام. فإن الله يقوم مقامكِ تجاههما، ومن أَجل أنكِ تركتهما لأجله يعطيهما نعماً غزيرةً تقدّسهما، فيشكرانكِ يوماً في السماء على هذا الفراق الذي يكلّفهما الآن دموعاً غزيرة.

تجربة ثانية

□حتكِ لا تسمح لكِ بالبقاء هنا – ستضعفين وتصبحين باكراً سقيمة فما المنفعة منكِ إذن، سوى أن تتعذبي وتعذّبي غيركِ؟ فخير لكِ أن تنصرفي منذ الآن.

قاومي هذه التجربة بجواب القديسين: 1. أَنا لم أدخل الرهبانية لتكون عافيتي ممتازة وأعيش براحة، بل لأقدس ذاتي وخصو□اً لأموت ميتة □الحة – 2 أَنا جئت إلى هنا بنيَّة □افية ورغبة □الحة. وقد أطلعتُ رؤسائي على مزاجي وأوهاني. فإذا حكموا بأني مفيدة للرهبانية فسيحفظونني؛ واذا رأوا أني لن أفيد الرهبانية، فسيقولون لي ذلك. فما لي إلاَّ أن أنتظر قرارهم – 3 سوف تنتابني بعض الأسقام، أجل، أفليس في العالم أَسقام؟ فعلى الأقلّ يُتاح

لي هنا أن أقول لله: لقد مرضتُ في خدمتك وأنا أحاول أن أخدمك خدمة أَفضل. فيا للتعزية الفائضة من هذه الأقوال!

تجربة ثالثة

إنها لصعبة العيشة التي يكون فيها الإنسان خاضعاً للآخر–حياتي كلها سأقضيها في وظيفة لا تلائم طبعي – حياتي كلها مع طباع لا تأتلف مع طبعي – حياتي كلها في الحرمان والانزعاج والقسر.

أجيبي الشيطان بصراحة: هذا كذب. إن للطاعة تعزيات لا يعرفها الشيطان، وقد ذقتُ عذوبتها غير مرة. هذه الفكرة الوحيدة "إني أعمل ما يريد الله" قادرة أن تجعلني أحتمل جميع مرائر الحياة – قد لا يكون في بعض الأحيان الشغل الموكول إليَّ موافقاً لطبعي. ولكن بما أن لرؤسائي منفعة في إتقاني عملي هذا، فإذا تركوني أزاوله فهذا دليل على أني أنجح فيه، وكل إنسان لا يلبث أن يحبّ ما يتقن صنعه. وإن لم أنجح فيه فهم يبدلونه لي بعمل آخر – ثم من المستحيل أن لا يلائمني طبع واحد من طباع رفيقاتي. فإن المحبة تليّن كل ما يبدو لأول وهلة صعباً. وفي الرهبانيات تسود محبة متبادلة كما في العالم بل أكثر مما في العالم. هذا، وأنه لمتعلّق بي أن أَكون محبوبة – أخيراً، إن الحرمان والانزعاج والقسر، وإن كانت حقَّة وواقعية، لا تؤلّف الحياة الرهبانية كلها. فلِمَ لا تُكشَف من هذه الحياة الأَّ وجهتها الصعبة؟ أليس في العالم انزعاج ولا حرمان؟ أَوليس في الحياة الرهبانية راحة الضمير وسلام النفس ورجاء السماء؟ هذا، وإذا كان يصعبُ العيش في الحياة الرهبانية أحياناً، فالموت يحلو فيها دوماً. والمهمّ أن نموت ميتة حسنة!

تجربة رابعة

أتيتِ الدير لتعيشي في سكون أعظم، وأنتِ تجدين فيه أقلّ مما كنتِ تجدين في أسرتك. أتيتِ لتكوني أشدَّ تقىً وأنتِ الآن أقل تقىً مما كنتِ عليه في العالم: فقد قلَّ وقت لبوثكِ في الكنيسة، وتشعرين بإنحطاط في حرارتكِ وتقواكِ.

لا، أنا لم آتِ الدير لأحرز سكوناً أعظم، بل قداسةً أكمل؛ والقداسة لا تقوم بالهدوء الخارجي والأوقات الحرة، بل بخضوع الإرادة لإرادة الله، وهذا كل ما أبتغي. فإذا شاء الله أن أشتغل كثيراً وأن لا يكون لي برهة فراغ،

أفليس هو السيد؟ هذا، وهل السكون الخارجي هو الذي يولي الفرح؟ أليس بالحريّ سكون النفس؟ فهذا السكون أشعر بأنه لن ينقصني أبداً ما دمت أريد أن أقول لله بملء إرادتي: لتكن مشيئتك!

صحيح أن الوقت الذي أقضيه في الكنيسة أقل؛ بيد أن وقتي كل يُقضى في إتمام مشيئة الله، وفي أن أكون حيث يريد الله، وهذا أعظم عزاء! وصحيح أيضاً أني في بعض الأحيان قلّما أشعر بحرارة حسية، وهذا يؤلمني حقاً؛ لكني تعلمتُ أن الحرارة ليست في الشعور الحسي بل في الأمانة، وأن الحب لا يكون في ما نشعر به من الفرح بل في ما نبذله من التضحيات في سبيل من نحبّه.

تجربة خامسة

ما تفعلين من الخير في العالم أعظم مما تفعلينه هنا – فكم من الجهَّال لا يأبه لهم أحد وبوسعكِ أن تعلميهم؛ وكم من أولاد مهملين يمكنكِ أ، تجمعيهم؛ وكم من مريض مهمل تستعين أن تعتني به... أنتِ تقومين بهذا كله، ولكن غيرك قادر أن يقوم مقامك فيه؛ أما الأشقياء الذين ذكرتهم فما من أحد يفكر فيهم!

هذا كله جميل وجذّاب؛ ولكن هل يريد الله أن أعمله؟ فلو شاء ذلك لأعلمني به كما أعلمني برغبته في أن أدخل الدير! هذا كله جميل، وقد أنجح إذا قمت به؛ ولكن ألا أهلك إذا فعلته؟ هل أنا قوية منيعة ضد الزهو والمجد الباطل والتأثيرات الحسية وأسباب الخيئة العديدة التي تعترضني؟ فمن يُسندني في تقلباتي؟ ومن يقوّيني في أيام الإخفاق والخذلان؟

إلهي، هب لي ضمانةً أعظم في حياتي، وإن خفَّ شغلي الجذّاب ونقص هب لي مجداً أقل، وأكثر لي ظروف الثواب والاستحقاق. هب لي أن تنقص أشواقي وأن يزداد إنتباهي لأتمم في هذه الساعة وفي كل ساعة، مشيئتك المقدسة والمعبودة!

***

الفصل الثاني عشر

أيام الابتداء الأخيرة

تُقضى الأيام الأخيرة من الابتداء في الرياضة. وما أعذب هذه الأيام المباركة التي تُعِدُّ المبتدئة ليوم نذورها الرهبانية المشتهى. إليكِ ما كتبته إحدى المبتدئات: ألا أسرعي، أسرعي، أيتها الساعات المتباطئة بإفراط، أسرعي في الهرب ودعيني ليسوع! ... أنتَ تريد إذن، يا يسوع، تريد أن تسمح لي بأن أرتبط بك! ولا تسمح لي بذلك فقط، بل قد ذهبت بك الرأفة إلى أن تسألني كل يوم، مدة سنة كاملة، هل أريده أنا أيضاً! أجل، أجل، أُريده. وما يجعلني أرتعش رعشة السعادة التي تعجز عن وصفها أقوال الأرض، هو أن هذه النذور التي أنا مزمعة أن أعاهد الله بها نذور أبدية! أبدية القيود المزمعة أن تربطني بيسوع؛ وأبديٌّ لقب العروس الذي يعطينيه يسوع ولقب العريس الذي ألقِّب أنا به يسوع؛ وأبديٌّ هذا القول: لم أعُد لنفسي بل أنا بجملتي ليسوع!

إلهي، إلهي، لقد بزغت أخيرا الشمس هذا اليوم أجمل أيام حياتي! فسفينتي تُنقَّذ اليوم من أخطار بحر هائج وتدخل المرفأ. ما كنت أشتهي إلاَّ أمراً واحداً، والله يحققه اليوم، فأجوز أنا من البرية إلى أرض الميعاد... فمبارك نصيبي! في هذا المكان كل شيء يحمل القلب ويرفعه إلى الله: الصلاة والأناشيد التقوية، والأمثال الصالحة المقدسة والمنّ الملائكي. في هذا الحمى يفوح شذا السلام والنقاء، فيوم واحد فيه خير من آلاف في العالم الغرور. أجل أترك في العالم رفيقات عزيزات، وأمي وأختي وأهلي وأخوتي الذين يبقى حبهم دائماً فيَّ، وذلك كله يؤلم قلبي؛ ولكن لا بدّ في كل تضحية أن تئن الضحية من طعنة السكين... فهم يصلّون، وأنا أصلّي، وملائكتنا الحراس يندفعون من الأرض ويحملون لدى قدَمي الله الآب صلواتهم وصلواتي. وفي إثرهم ترتفع إلى السماء أشواقنا، وهذه الطلبات المتبادلة تعود فتنْزل عليَّ وعليهم نعماً سنيَّة. أنظروا إلى سعادتي، ولا تذرفوا الدموع، فإن حياتي بقرب الرب لسعيدة في مسكن السلام هذا! يا لسعدي! سنلتقي يوماً في السماء، حيث يسود الحب، ونجتمع إلى الأبد في أحضان الله!

لنحفظ في قلبنا هذه التأثيرات التقوية العذبة؛ فسيعود إليها غير مرة، ولا ريب، أمام القربان المقدس وفيما بين متاعب عملٍ تستكرهه الطبيعة وتنفر منه.

ولنقدّم الآن للمبتدئة موضوعاً لتأملاتها في الأيام الأخيرة من ابتدائها، بعض إعتبارات تعرّفها بالحياة المزمعة أن تنتحلها من وجوهها المختلفة. فنبيّن لها ما في هذه الحياة من أوجاع ومتاعب، وتعزيات:

1

المتاعب العامة في الحياة الرهبانية

لقد أشرنا، منذ الصفحات الأولى من هذا الكتاب، إلى الأوهام التي تخامر كثيراً من الفتيات بشأن الحياة الرهبانية، وإلى الأفراح الطبيعية التي يعِدن ذواتهنّ بها في الحياة الجمهورية المشتركة. ولا ريب عندنا في أن سنة كاملة قضتها الفتاة في الابتداء قد بدّلت بعض الشيء في تلك المخيلة الفتية الملتهبة وذلك القلب المشتعل الذي لا يرى أدنى تعب في الطاعة والتفاني. ولعل الشيطان أتى وضخَّم صعوبات المستقبل، ساعة كانت المبتدئة تحتمل من معلمتها إمتحاناً مذللاً، أو في تلك الساعات الأشد إيلاماً التي تركها فيها الله بلا نشاط ولا حرارة ولا تذوق لشؤون العبادة.

فنرى من واجبنا أن نعرض ونبسط، بكل ما يقتضيه هذا الموضوع من الدقة، الحقيقة الصريحة في متاعب الحياة الرهبانية بوجه عام. وننقل هذا الإيضاح عن الأب بوردلو الدقيق دوماً في تعاليمه. قال الراهب الواعظ الشهير:

"في الكلام على سعادة الحالة الرهبانية تُعرَض في بعض الأحيان أفكار يبدو لي أنها بشرية. وأقرّ بأني لا أفهم بسهولةٍ أولئك الواعظين الذي يمثلون لنا الحياة الرهبانية عيشة عذبة خالية من كل الأحزان والمتاعب ومن كل همّ. فلو صدّقناهم لقلنا أن الراهب لا يتعذب البتة ولا يحتمل شيئاً، ولا ينقصه شيء وكل شيء يبسم له، وكل ما يجري يكون على حسب هواه وأشواقه. فبدل البيت الذي تركه تُفتح له مئات وأكثر؛ وبدل الأب والأم اللذين تركهما وفارقهما يلاقي على قدر ما له من رؤساء يهتمون به. ذلك كله جميل، بيد أن الشر هو أن ذلك كله لا يتفق مع الإنجيل. ولعمري، لماذا نتجرد عن العالم إذا كنا نلاقي في الدير ما وعدنا به يسوع المسيح من مئة ضعف؟ ففي هذه الآمال كثيرٌ لا يتحقق في الحالة الرهبانية؛ وأنه لغريب كل الغرابة أن نطلب خارج العالم ما ندّعي أنّا تجردنا منه بتركنا العالم، من فوائد زمنية محضة وعذوبات طبيعية.

إن الفائدة الكبرى من الحالة الرهبانية إنما هي التجرد المسيحي وإماتة الحواس، والصليب، ومن هذه الوجهة يجب النظر إليها. كل ما يبتعد عن وجهة النظر هذه يبتعد عن الحقيقة، ومن ثم ليس سوى أوهام بأوهام. فأريد إذن أن لا يُخفى شيء على فتاة تنوي أن تعتزل في دير وتشعر بأنها مدعوّة إليه. أريد أن لا يُستر عنها شيء بالأوصاف البرّاقة الكاذبة؛ وأن تُرى كل عواقب اختيارها؛ وأن تُبسط لها الأمور كما هي؛ وأن تُدَلّ على الأشواك المبعثرة في

الطريق التي تدخل فيها. إذ ما هي الحياة الرهبانية سوى الإنجيل في وجهته العملية وممارسته الكاملة؟ وما هو الإنجيل سوى شريعة إنكار الذات وموت عن الذات وحرب دائمة يُصليها الإنسان لذاته؟

"ورب قائلٍ: إن هذه الأفكار من شأنها أن تثبط عزيمة النفس وتنفّرها. وأنا أجيب أن الأمر يجب أن يكون بالعكس، فتجد النفس في هذا عينه أقوى البواعث على تثبتها في قصدها. وكيف ذلك؟ لأنها من هذه الصعوبات عينها تتعلّم أن تقدر الحالة الرهبانية قدرها، من حيث تبدو جديرة بكل تقدير وإجلال، فترى فيها حالة قداسةٍ وكمال وخلاص، تستطيع فيها النفس الرهبانية أن تجمع كل يوم إستحقاقات جديدة للأبدية، وأن تكدِس أكاليل فوق أكاليل بلا إنقطاع. هذه النقطة الرئيسية يجب أن تتمسك بها وحدها وتجعل فيها سعادتها كلها على هذه الأرض. لذلك ينبغي للواعظ أن يلحّ في تبيان ذلك خصوصاً، وفي ذلك وحده يجب أن يحصر امتيازات الحالة الرهبانية. فمهما يكن من الباقي، وأي ثوب ألبسناه لنُزّينه ونرفع قدره، إذا حِدنا عن اعتبار الخلاص هذا الجليل، فلا أتردّد في أن أقول في الحالة الرهبانية والأشخاص الذين ينتحلونها ما كان القديس بولس يقوله في الدين المسيحي بوجه عام وفي المسيحيين الذين ينتحلونه: إذا كان رجاؤنا في المسيح يسوع محصوراً في هذه الحياة فقط فنحن أشقى الناس أجمعين.

"ذلك ما أقوله، من غير أن أخشى معاكسة أحدٍ من الذين لهم بعض إلمام بالحياة الرهبانية، وخصوصاً بعض معرفة إختبارية لها. فإذا بُسطت لي بشأنها مسألة الخلاص وعُرضت عليَّ الدعوة الرهبانية كضمانة للخلاص، وذُكرت لي فيها محبة خاصة من الله وعناية خاصة من لدنه بخلاصي، فحينئذٍ أهتف مع بولس الرسول: أنا فائض بالفرح والعزاء في جميع المضايق وأصعب المحن اللازمة لحالتي هذه الرهبانية".

"وأضيف أيضاً مع النبي الملك: إن يوماً واحداً في ديارك، يا إلهي، خير من ألف سنة في مساكن الخطأة. فلا بأس أن أذلّل في بيت الله هذا، ولا بأس أن ألزم فيه المراكز الأخيرة، وأن أشعر بجميع مزعجات الفقر المدقع، وأن أحمل نير الطاعة الشديد، وأن تكون طبيعتي فيه مقهورة مع جميع شهواتها؛ حسبي أن بيتي هذا بيت خلاص ليكون محمولاً عندي بل لذيذاً ومحبوباً. أنا لستُ أطلب فيه شيئاً آخر وعنده تنتهي كل مطامعي".

إذا كان يُبسط على هذا النحو موضوع سعادة الحالة الرهبانية، فالفرض راهن وواقعي، وذلك ما يجب أن يصبو إليه كل واعظ؛ وإلا قال أقوالاً رنّانة تطرق الفضاء ولا تقنع العقول ولا تؤثر في القلوب.

"ولا يجيبنَّ أحد أن الإنجيل، ومن بعده آباء الكنيسة جميعهم، باستنداهم على أقوال يسوع المسيح، يعدون الراهب، علاوةً على مئة ضعف في الحياة الأخرى، بمئة ضعفٍ أيضاً لهذه الحياة، هي ما يشعر به الراهب من الراحة وما يلازم حياته من العذوبات. □حيح أن مخلص العالم قد تكلم عن مئتي الضعف هاتين، واحدة للحياة الآتية، والأخرى للزمن الحاضر، إذ قال بعبارة □حيحة: ما من أحد يترك من أجلي بيته أو إخوانه أو أخواته أو أباه أو أمه أو حقوله إلاّ ويأخذ مئة ضعف في الحياة وحياةً أبدية أيضاً في الآخرة؛ بيد أنه □حيح أيضاً أن مئة ضعف هذه الحياة لا يمكن أن تكون للنفس الرهبانية إلاّ السلام الذي تذوقه في حالتها ويفوق قدره وحده مئة مرة جميع مواريث هذه الأرض وكل الخيرات التي تخلَّت عنها. فهكذا يفسّر الشراح نصّ القديس مرقس هذا ويفهمون وعد ابن الله. ولكن ما هذا السلام؟ هذا هو الموضوع الجوهري الذي قد تكون نفوس فتيَّة في وهم وضلال بشأنه، فلا بد من نزع هذا الوهم من عقولها بدل أن يُغذَّى بأقوال مملَّقة ومبالغاتٍ باطلة".

"لما منح يسوع المسيح تلاميذه السلام نبَّههم في الوقت عينه أنه ليس سلاماً كما يحسب العالم ويشتهي. قال هذا المعلم الإلهي: سلامي أعطيكم، هو سلامي لا سلام العالم. وسلام العالم هذا سلام كاذب ومرذول، سلام كسول، رخيّ، مبني على رخاء العيش وكل ما يلذ الطبيعة ويرضي الحب الذاتي؛ أما سلام النفس الرهبانية فمبنيٌ على مبادئ غير هذه: على بغض الذات، وتضحية دائمة بالشهوات الحسية والأميال والأهواء والإرادة الذاتية. فلا يستطيع الراهب أن يكون سعيداً في خلوته إلاّ بقدر ما يعرف أنه يتذلل ويتضع ويصلب نفسه ويقهر ذاته ويطيع فقيراً و□بوراً ومواظباً على العمل، ودقيقاً في إتمام واجباته، فلا يعفي ذاته من شيء، ولا يوّفر على ذاته تعباً، ولا يشفق على نفسه في شيء. ذلك كله يكلفه عناءً، ولكن العجيب في هذا أنه بقدر ما لا يراعي نفسه ولا يشفق عليها يشعر بوفرة السلام تفيض في قلبه".

"ألا نرى أيضاً أن الجماعات الرهبانية الأكثر نظاماً والأشد □رامةً هي التي يكون فيها الإرتياح أعظم، ونير يسوع المسيح أعذب، وحمله أخف؟ ففيها كل الأشياء تتعاون لتنتج هذا الإرتياح وذلك السكون التام في النفس الرهبانية: تجردُّها عن كل الشؤون البشرية، وعن كل المصالح والمنافع التي تولي أهل العالم اضطرابات كثيرة؛ وتسليم ذاتها التام بين أيدي رؤساتها ليقودوها بحسب أفكارهم؛ وهدوء الضمير، وإنتظار تلك السعادة التي تتوق إليها وحدها

ولأجلها تعمل كل يوم لتتقدم في الكمال؛ وخصوصاً عذوبة النعمة التي تملأها. فإن الله، الأمين في مواعيده، يتّصل بهذه النفس بألف سبيل خفيّ ويغمرها بأصفى تعزياته وملذاته".

"إذا نظرنا إلى الأمور من الخارج ما وجدنا في حياة النفس الرهبانية إلاّ كل ما هو متعب ومنفِّر: الحصن، والخلوة، والصمت، والخضوع الدائم، والطاعة العمياء، والقانون المزعج، والممارسات المضايقة، والأشغال المتعبة، والتمارين المذللة، والقطاعات، والأصوام، وقمع الجسد. ولكن، تحت الظواهر القادرة أن ترّعب النفوس التي لم تلِج قطّ في أعماق الحياة الرهبانية ولا تعلّمت من محنةٍ ما أن تعرف أسرار الله، كم تخفي هذه الحياة القشفة من التعزيات، بحسب شهادة النبي، المحفوظة للذين يتّقون الرب! وكم من هذه التعزيات محفوظة للذين يحبونه ويخدمونه بالروح والحقّ!".

"لذلك بأعجوبة لا يدركها الإنسان الحيواني ولن يدركها أبداً، لكنها تُكشَف للإنسان الروحي بالخبرة والذوق المحسوس، يحدث أن أهل العالم، مع ما لهم من الخيرات الكثيرة والكرامات والملذات، لا يزالون مستائين ويتشكّون دوماً من سوء حظهم، فيما الراهب المتجرّد، المتستّر، الخاضع لسلطة قاسية ولممارسات تميتُ الطبيعة، لا يزال راضياً عن حاله، يواصل حياته كلها في سلام. وهذا السلام الذي أحرزه هو سلام الله. والرسول نفسه الذي ذاقه قبلنا يؤكد لنا أن سلام الله هذا يفوق كل فهم ولا يضاهيه في هذا العالم سلام".

من هذا الوجه أريد أن تبيَّن للنفوس الرهبانية سعادة حالتها. على هذا التعليم أريد أن يدور التحريض الملّح؛ فهذا ما يؤول إلى إثارة غيرة هذه النفوس وسهرها وحرارتها، إذ تعتقد أن ذلك هو مصدر سعادتها، وفيه ملء تلك السعادة وديمومتها.

2

تعزيات الحياة الرهبانية

إن الكلام على تعزيات الحياة الرهبانية أدعى إلى الإرتياح. بوسعنا أن نستقي ما نحن قائلوه من بعض صفحات خطّتها راهبات يتكلّمنَ عن سعادتهنَّ. ولكن هذه الصفحات قد تحدث فيكِ الآن رعشة الفرح وتملأ

مآقيكِ دموعاً عذبة، ولا تعود تؤثر فيكِ بعد مدة، إبّان أنحجاب النعمة الحسية، فيتبادر إلى ذهنكِ أنها كتبت تحت تأثير حماسة خيالية ملتهبة. لذلك نروم أن ندَع الحديث للقديسين. فكلامهم أهدأ وأروع، وفيه دوماً عون أمين أكيد لحالات النفس المختلفة.

ما من أحد وصف تعزيات الحالة الرهبانية أحسن من القديس برنردس. فهذا المعلم الشديد العبادة للعذراء القديسة يتكلم على هذا النحو: في الحالة الرهبانية تكون العيشة أنقى وأطهر، والسقوط أقل وأندر، والنهوض أسرع وأعجل، والسير أكثر تيقظاً وتحفظاً، والنعم أغزر وأوفر، والسلام أوسع، والموت أكثر ثقة بالله، والمهر أقصر، والإكليل الأبدي أجمع وألمع.

فلنبحث في هذه الفِقَر المختلفة المعزّية واحدة فواحدة، ولنبذل الجهد لنكشف ما في كل واحدة منها من الكنوز الوفرة.

(1) النفس الرهبانية تعيش عيشة أنقى فتكون استحقاقاتها وافرة

لأن كل ما تفعله، تفعله تحت نظر الله، متحدة به تعالى، ليقدَّم له عزّ وجلّ. هي أمة الله، فله تطيع. تعلّقت به بنذور الفقر والعفة والطاعة، فما عاد بوسعها أن تنفصل عنه، وتحت نظره تشتغل وتصلي وتتنَزَّه وتستريح. ليس في حياتها برهة واحدة ولا فعل واحد إلا بإمرة الله، تقدّمه لله. هي تعلم ذلك، وهذه الفكرة التي تسندها في شغلها ومتاعبها، تلزمها بأن تعمل بنيَّة صافية وحب طاهر يوليان أعمالها كلها ثواباً لا يقدر. أضيفي إلى هذا الثواب ما تكسبه بواسطة نذورها، فتري كم تكدس من الثروة وكم تمجد الله.

كان أحد المؤلفين الأتقياء يقول: ما أجمل صغار أفعال الراهبة وما أجزل ثوابها، فإن تاج أميرة لا يضاهي مكنسة راهبة تضعها في يدها قوانينُها.

(2) النفس الرهبانية تكون سقطاتها أندر

لأن الجدران التي تفصلها عن العالم، والقانون الذي يمتد مفعوله إلى جميع أويقات النهار والليل، وأنظار رؤساتها التي تتبعها بودّ، وذكر حضور الله الذي لا يفارقها إلاّ بصعوبة، والمشاغل التي تكاد تكون دائمة فتستغرق أوقاتها كلها، هذه جميعها تُبعد حتماً أسباب الخطيئة.

فيا لها من ضرورة سعيدة تُلزم النفس الرهبانية أن تعيش بموجب القانون وبحشمة؛ يا له من قسر سعيد يخضع الأعضاء للشغل ويرهق العقل بالتفكير، ويحمل الإرداة على التوجه إلى الله.

كانت القديسة مادلينا دي باتسي تهتف بلهفة، أيتها الأسوار الحبيبة، ما أكثر الأخطار التي تقيني منها!

(3) النفس الرهبانية يكون نهوضها أسرع وأعجل

لأنها تحوّطها مساعدات ملؤها الودّ، قوية وفعالة: الصلاة والاعتراف، والنصائح والقراءات التقوية، والأمثال الصالحة، والإلهامات المقدسة، وتوبيخات الضمير. هي دوماً حاضرة في كل ساعة، لتحثها وتحرضها وتساعدها، وتعزيها وتنهضها وتقويها وتغفر لها.

يجب أن تكون الراهبة خبيثة، شريرة، لتبقى بعيدة عن الله يوماً واحداً. ففي كل ساعة يمكنها أن تنهض على الأقل بواسطة الصلاة وبفعل محبة أو طاعة يؤهبها لإعتراف جيد. في كل ساعة وفي كل يوم بوسعها أن تلجأ إلى رئيستها لتطلب منها مشورةً أو رأياً أو تشجيعاً. ثم أليس لها في وقت النعم التي تجلبها على جماعة الدير النفوس القديسة التي تسكنه؟

قال أحد الآباء: "إذا سقط راهب، فالله يبادر ويمدّ له يده لينهضه".

(4) النفس الرهبانية يكون سيرها أكثر تحفظاً وتيقظاً

لأنها تدرك واجباتها إدراكاً أكمل، وتشعر بضعفها شعوراً أبلغ، وتقدر قدراً أعظم جمال نقاوتها، وترى خطورة نذورها، وتشعر خصوصاً بما تسببه من الحزن ليسوع المسيح بأبلغ هفوة طوعية. لذلك تسهر بعناية، ولكن بدون إنزعاج وقسر ووسواس، على نظراتها ومخيلتها وأقوالها؛ وتوعي ملاكها الحارس بالسهر عليها وهي تعيش سعيدةً في حضرته؛ وتواظب عند الصباح على النظر السابق إلى النهار، وفحصها هذا يجعلها تجتنب أسباب السقوط ويزيدها سهراً ويقظة.

(5) النفس الرهبانية تحرز نعماً أوفر

لأنها تعيش حتماً في اتحاد أعظم مع الله. فالله مصدر اشعاع تتدفق منه بلا إنقطاع نعم لا تحصى. وهذه النعم تنال الخلائق كلها نصيباً منها، بيد أن التي تسكن بقرب النبع يكون نصيبها أوفر.

فالراهبة تسكن بيتاً يخص الله، وتعيش وتستريح هي ويسوع المسيح تحت سقف واحد، وتتقرّب كل يوم من المائدة المقدسة، وتذهب مرات في النهار إلى بيت القربان حيث يسكن يسوع المسيح، ومرات عديدة في النهار تصلي وتبتهل وتسجد وتشكر وتطلب، بل أن شغلها نفسه لا يبعدها عن الله لأنه مفعول بأمر الله وتحت نظر الله... فكيف لا تكون ممتلئة نعماً مقدسة؟

(6) النفس الرهبانية تتمتع بسلام أوفر

من تُراه قادراً على إلقاء الراهبة في الاضطراب؟ أليست مع الله، وخصوصاً أليست لله؟ فقد تسلبها الأمراض صحة الجسد، والافتراءات ما كانت تتمتع به من تقدير واعتبار، وقد تجعلها الأسقام غير مفيدة من الوجه المادي، ويستطيع الشيطان أن يملأ مخيلتها أشباحاً هائلة ومخاوف، وقد لا تعود تجد فيها رئيساتها ورفيقاتها، بسماح من الله، سوى شخص مزعج؛ فإذا ظلت مواظبة على إتمام واجباتها على قدر قواها، وإذا كانت نفسها وإرادتها لله، وإن بدا لها أن قلبها ليس له تعالى، فبوسعها دوماً أن تقول: إني لله، والله لن يهملني أبداً. ومع هذه الفكرة يكون السلام دوماً في أعماق النفس.

(7) النفس الرهبانية تموت في ثقة أوسع

الميتة المقدسة هي الواقع الأمر المهم... فعلى باب كل دير يمكن أن تُنقش هذه العبارة المنقوشة على أبواب أديرة الترابستيين، إذا شقَّت الحياة أحياناً هنا، فالموت لذيذ! أجل، لذيذ الموت في دير رهباني عشنا فيه عيشة أقدس من عيشتنا في العالم، وكان تجردنا فيه ثابتاً متواصلاً، وتعذبنا في بصبر، ومحبتنا فيه أحرّ وأنشط، ومواظبتنا على الشغل أكمل، واعترافاتنا وتناولاتنا أقدس وأتقى.

كان أحد الرهبان ينازع، والابتسامة لا تفارق ثغره، فقال: كيف لا أموت مسروراً؟ فإن الرب قد وعد بالسماء من ترك لأجله كل شيء، وأنا تركت كل شيء لأجل حبِّه؛ والله مزمع أن يبرّ بوعده ويحققه.

وقال راهب أخر هذه الأقوال التي تستطيع كل راهبة مائتةأن ترددها هي أيضاً، إذا كانت في حياتها متفانية وجارية بحسب القوانين: ما كنتُ أظن أن الموت يكون بمثل هذه الحلاوة!

(8) النفس الرهبانية يكون مطهرها وجيزاً مختصراً

لأن إبرازها النذور الرهبانية، بحسب تعليم اللاهوتيين، يُنيلها غفران العقاب الزمني عن كل الخطايا التي اقترفتها في العالم، بحيث تنال في ذلك اليوم، إن كانت حسنة الاستعداد، وأي راهبة لا تكون مستعدةً تماماً في مثل ذلك اليوم، نعمة غفران تفتح لها أبواب السماء إذا سمح الله بأن تموت يوم إذٍ.

ثم لأن الهفوات الطفيفة التي تُقترف بعد النذور توفي عنها بسهولة الصلوات العقلية والإماتات والتناولات والأشغال اليومية والغفرانات العديدة الملازمة لتمارين الجمهور كلها على وجه التقريب؛ وأخيراً لأن موت كل راهبة تعقبه صلوات عديدة تقدمها الأخوات جميعاً، وقدَّاسات عديدة تقام لأجل راحة نفسها.

(9) النفس الرهبانية تكسب إكليلاً أجمل

لأن بها إكليل السماء يكون على قدر ما كان في النفس الرهبانية من الحب لله وما بذلت لأجله من التضحيات. ومن تُراه يحب الله أكثر من الراهبة؟ فإنها لأجله قد تخلَّت عن كل ما كانت تحبه: عن أبيها وأمها وإخوتها وأخواتها؛ وعن كل ما كان بوسعها أن تحرزه من أفراح بشرية وراحة مادية ومجد وتمتعات. لقد أعطته جسدها وقلبها بنذر العفة، وخيراتها ووقتها وشغلها بنذر الفقر، وكيانها كله بنذر الطاعة.

قال القديس الفونس دي ليغوري: لو كان أهل العالم يرون المكافأة المحفوظة للراهبات لتركوا بيوتهم، ونزلوا حتى عن العرش، ليحجبوا ذواتهم على مثالهنَّ بين جدارن دير ويقفوا ذواتهم لله!

***

بعد هذه الاعتبارات التي تشير عليكِ بأن تقرأيها وتتأملي فيها، اجثي على ركبتيكِ واتلي الصلاة التالية:

يا يسوع فاديَّ وإلهي، لماذا تركتَ في العالم نفوساً عديدة نقيّة وشئتَ أن تمنحني أنا الخائنة المسكينة نعمةً تجعلني عروسكَ وفتحتَ لي أبواب هذا الدير المبارك الذي هو بيتك؟

إلهي، بما أنك تروم أن تخصَّني بمثل هذه النعمة الجلّى، اجعلني أقدرها لأكون شاكرة وأقابل محبتك بمحبتي. لقد آثرتني على كثيرين، أليس حقاً أن أُوثرك أنا على الجميع؟ تروم أن تشركني في نعمك الصميمة، بقبولك إياي في أسرتك، أفليس حقاً أن أعطيك أنا كل ما أملك وكل كياني؟

أجل، يا يسوع، إني أعطيك عليَّ كل سلطان. فتقبَّل حواسي وأعضائي وقلبي وإرادتي، ولا تترك لي عليها شيئاً من السلطان. أجل، يا يسوع، في هذه الساعة السعيدة التي يُتاح لي فيها أن أنذر نذوري، لا أريد أن يكون لي نية غير نياتك، وشوق غير أشواقك، وإرادة غير مشيئتك القدوسة والجديرة دوماً بالعبادة.

فإذا تغلَّب عليَّ تأثير قلبي ولم يدَع لي السكون الكافي لأتقن لفظ نذوري التي هي موضوع كل أشواقي، فأنا منذ الآن أستنكر كل ما ينقص من قوتها ومداها في ما أقوله. يا مريم أمي. أنتِ قُدتِني إلى هنا، وأنتِ ساعدتِني على تحقيق هذه التضحيات التي ظننتها مدة طويلة تفوق قواي. فشكراً لكِ.

عمّا قليل أ□ير عروسة يسوع، فتصبحين حينئذٍ أمي أكثر مما أنتي الآن. فيا مريم أمي، احفظيني، واحميني ودافعي عنّي وأحبّيني. آمين.

***

خاتمة

والآن نلخص لكِ هذا الكتاب الصغير في صفحتين يمكنكِ ان تطالعيهما بتأنٍّ، وقد سمَّيناهما: دستور إيمان الراهبة.

أومن أن الدعوة إلى العيشة الرهبانية من أعظم النعم التي يمكن أن يمنحها الله للنفس.

أومن أن الخلاص في العيشة الرهبانية أسهل وآمن مما هو في العالم، للراهبة الخاضعة لرؤساتها، الأمينة لقانونها، المتعلقة بوظيفتها؛ لكنه أصعب وأقل أماناً للراهبة التي تعيش في التراخي والتذّمر والإستياء العادي.

أومن أن صلبان الحياة الرهبانية، إذا حُملت بهدوّ وصبر وتسليم، تخفي تحتها تعزيات إلهية تخفف وطأتها بل تجعلها محبوبة وخصوصاً تجعلها مجيدة؛ وإن هذه الصلبان عينها؛ إذا حُملت بعدم صبر وتمرد داخلي، تلازمها مرائر تجعلها مرهقة، وخصوصاً بلا ثواب.

أومن أن الراهبة الحقيقية تجد في الدير الذي يأويها فردوساً سابقاً، إذ تجد فيه إتمام مشيئة الله بتدقيق، وصحبة يسوع المسيح، وسعادة التناول اليومي التي توصف، وسعادةً أخرى تنقص أهل السماء تقوم بأن تبرهن حبها لله ببعض العذابات؛ وأنها تجد في الدير راحة وسلاماً يستطيع قول بشري أن يعبّر عنها؛ وإن الراهبة السيّئة الشريرة تجد في ديرها جهنماً أولى بوسعها مع ذلك أن تحوّلها إلى فردوس بدموعها وندامتها الصادقة.

أومن أن الطاعة الرهبانية حرية حقَّة، بحسب ما تمارَس إرضاءً لله، لغايات بشرية أو عن إضطرار.

أومن أن الراهبة الفاترة، الرخوة، الجبانة، الناقصة، تجعل خلاصها في خطر؛ وأن الراهبة الخاضعة المجتهدة المريدة الخير للجميع تضمن يوماً فيوماً أكثر فأكثر أمر أبديتها العظيم.

أومن أن الضجر في الأديرة يأتي دوماً من عدم المواظبة على الممارسات الصغيرة، ومن سهولة ا□سترسال في تذمرات وإنتقادات طفيفة؛ وأن العلاج الأنجع لجميع المتاعب والتجارب هو الخضوع الدقيق والمحبة الأخوية وإحترام السلطة.

أومن أن الراهبة ملتزمة بقداسة أعظم من قداسة المؤمن البسيط، وأن الخطيئة التي تقترفها تهين الله أكثر بكثير من خطيئة تماثلها مؤمن عادي.

أومن أن الأمانة لأصغر مراسيم العيشة الرهبانية هي مصدر قداسة عظيمة، وأن النفس التي تسهر بحرص على تجنب أدنى تعدٍّ تحرز كل يوم من الثواب والاستحقاقات قدراً عظيماً لا يكاد يُحَدّ.

أخيراً، أومن أن الراهبة الأمينة تكون أرفع مرتبةً في السماء مدى الأبد، بالمجد والسعادة، ومن سائر المختارين؛ وأن الراهبة الهالكة تكون هي أيضاً أشقى من سائر الهالكين على مدى الأبد